القائمة الطويلة لجائزة بوكر العالمية 2021

أندريه تيشي

Longlist
The
2021
International
Booker
Prize

بؤس

رواية

ترجمة:
شرين عبد الوهاب
داليا هلال

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بـؤس

رواية

شرين عبد الوهاب/ حاصلة على بكالوريوس العلوم السياسية من جامعة أوسلو وعملت منسق للمشروعات الثقافية بين النرويج ومصر لعدة سنوات. تعمل بالترجمة مع العديد من المؤسسات. صدر لها تراجم لروايات ومسرحيات وأدب طفل. وتعمل حاليا في مشروع إعادة ترجمة أعمال هنريك إبسن عن اللغة النرويجية بالتعاون مع معهد إبسن للدراسات بجامعة أوسلو.

داليا هلال/ كاتبة وصحفية نقابية مصرية، مدير تحرير مجلة روزاليوسف وترأست قسم الخارجي والترجمة بها، عملت كمراسلة صحفية لعدد من الصحف والمواقع الإلكترونية الأجنبية ومترجمة ومعدّة تليفزيونية بالعديد من القنوات الإعلامية، كما عملت كمترجمة حرة، ولها ديوان شعري ورواية تحت الطبع.

.....

بـؤس

طبعة 2023

رقم الإيـــــداع:2022/22036

الترقيم الدولي: 978-977-821-287-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Eländet by Andrzej Tichý
Copyright © Andrzej Tichý, 2016
First published by Albert Bonniers, Stockholm, Sweden
Published in the Arabic language by arrangement with Bonnier Rights, Stockholm, Sweden

"The cost of this translation was defrayed by a subsidy from the Swedish Arts Council, gratefully acknowledged".

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

أندريه تيشي

بـؤس

رواية

ترجمة:

شرين عبد الوهاب

داليا هلال

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

تيشي، أندريه
بؤس: رواية/ أندريه تيشي، ترجمة شرين عبد الوهاب، داليا هلال، الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٣٢ ص، ٢٠ سم
تدمك ٧-٢٨٧-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص السويدية
أ- عبد الوهاب، شرين (مترجم)
ب- العنوان

٨٣٩,٧٣

رقم الإيداع: ٢٢٠٣٦/ ٢٠٢٢

تصدير

«التناقض وحده هو الدليل على أننا كل شيء..

التناقض هو بؤسنا، والشعور ببؤسنا هو الشعور بالواقع.. لأننا لا نخترع بؤسنا.

هذا صحيح؛ لهذا علينا أن نقدر ذلك، كل ما تبقى نراه خياليًّا».

سايمون ويل، الجاذبية والنعمة 1947

الفصل الأول

آخر ذلك اليوم بعد ظهيرة يوم الجمعة في بداية شهر أكتوبر، أقف بانتظار عازف الجيتار والملحنة هناك عند القناة، بجوار الطريق بين قسم الشرطة والمياه.

أقف مفكّرًا في زهرة نبات الشمع التي تفتحتْ أوراقها البيضاء والوردية ليلًا، وأفكّر كذلك في الدّروس المكثّفة المثمرة التي ربما تعلمتُها من عزف مقطوعة «سيلسي» لهذا الصباح، وبينما أحاول تذكر اسم الفيلسوف الإيطالي الذي كتب مقالًا استثنائيًّا عميقًا طويلًا عن أعمال «سيلسي» المهمة، أتى شاب يسألني مبلغًا من المال ليمنحه لشخص بلا مأوى، بحثتُ في جيبي الأيمن حتى وجدتُ

ورقة من فئة العشرين كرونة مكرمشة فأعطيتُها له، أخذها دون أن يضيف كلمة ووضعها في جيب معطفه الأسود ذي الياقة الفرو المرفوعة لتغطي جانبًا من رأسه.

وقفتُ هناك أدخّن، رأيتُه يحملق في السيجارة ويتابعها بعينيه، وعرفتُ أنه ينظر إليها لكنّي لم أعطه واحدة، بل نظرتُ مباشرة في عينيه ولم أكن خائفًا.

كان شابًّا رفيعًا ضئيلًا، وفكرتُ أنه لو رغب في افتعال شجار فسأبرحه ضربًا دون أي مشكلة، حتى لو كان بحوزته سكين أو مسدس.

نظر إلى السّيجارة التي رفعتُها إلى فمي، فواصلتُ التدخين وتركتُ يدي تهبط برفقة السيجارة من أسفل ذقني إلى خصري عند خط السرّة تقريبًا، ورأيتُه يراقب حركتي، واصلتُ التدخين مجددًا.. الدّخان.. الشّعلة.. التّبغ، بوسعي أن أعرض عليه سيجارة، لكن لم أفكّر في هذا، وكذلك بإمكانه أن يطلب لكنه لم يفعل.

لاحظتُ أيضًا أنه ينظر إلى درّاجتي الواقفة خلفي مستندة إلى «الدكّة الخشبية» كما لو كانت صندوق عِدة، قال الشّاب لاحقًا إنه قد تعرّض لضرب مبرح في اللّيلة السّابقة.

قال موضحًا: لا أعلم أين سأنام، فقد تعرّضتُ للضّرب أمس.

وقال كذلك أن شخصًا ما ضربه في صدره ووجهه، فنظرتُ إليه واستطعتُ أن أرى كدمة زرقاء وجرحًا قطعيًّا عند أسفل وجنته

اليسرى.

سألتُه: مَن ضربكَ؟

أجاب بشيء لم أستطع أن أتبينه؛ ذكر اسمًا ما حيث تحرّك لسانه في فمه مغمغمًا أمرًا لم يمكنني أن أفهمه.

سألتُه: لماذا؟

أجاب أن عظامه قد طُحنتْ بشدّة كما ألقيت به خارجًا، مضيفًا إنه شخص لعين.

جعلتْني هذه الكلمات أشعر بالتهديد فتراجعتُ للخلف كما لو أن بتلك الكلمات نفسها عنفًا خفيًّا.

فجأة فكرتُ في «روبرت/ روبي» صديق الطفولة الذي التقيتُه مصادفة في يوم مشمس عند البحر في «ليمهام فيلدز».

لم نكن قد التقينا لسنوات طويلة، صار ضخمًا ورياضيًّا، لم يعد ذلك المراهق نفسه الذي أتذكّره، وقد أخبرني بنبرة حيادية تخلو من أي تباهٍ أو خجل أنه كان في السِّجن؛ لأنه طعن شابًّا بمفكٍّ حين اكتشف قيامه بالسرقة، فتعرّض للحبس عدة سنوات ثم خرج ليعمل في مصنع نظارات، مؤكدًا أن الأمور بخير الآن، وأنه من الجيّد أن يحظى المرء بوظيفة.

أخبرتُه باختصار عما كنتُ أفعله طيلة السنوات الأخيرة؛ أتيتُ على ذكر فصول تعليم الكبار، والمعهد العالي للموسيقى، وأخبرتُه

كذلك عن حياتي كموسيقيّ هاوٍ.

قلتُ إنه أمر جيّد، مضيفًا أن حصول المرء على وظيفة ثابتة لهو بالفعل أمر جيّد، فأوضح أنها ليستْ وظيفة ثابتة إذ إنه يعمل بالساعة، في حين يمكنه العمل بشكل دائم كما قال، ثم سألني ما إذا كنتُ قد ترددتُ على «پراغ» كثيرًا، فأجبتُه أن لا؛ إذ مرتْ سنوات عدة منذ أن زرتُها. فقال إن بائعات الهوى بارعات للغاية في «پراغ»، لم أُجب، فقط تتبعتُ الرصيف بعيني إلى الرّاية ذات اللونين البرتقالي والأرجواني التي ترفرف على الناصية.

لمّا تلفت حولي، أشاح هو أيضًا بوجهه، لم أفهم ما حدث، أظننا تصافحنا وقلنا شيئًا على غرار: فلتنتبه إلى حالك، وذهب كل منا إلى حال سبيله.

هبّتِ الرياح بقوة فجرفتْ معها حصى الطريق، نظرت بتركيز وأنا أتلفت فرأيتُ عضلات ظهره وكتفيه تنقبض، فخطر لي أنه عليّ أن أخبر أحد اللذين أنتظرهما بشأن ذلك الموقف غير أني لم أفعل، فلمْ أخبر لا عازف الجيتار ولا حتى المُلحِّنة.

وقفتُ ناظرًا إليه فتذكَّرتُ فجأة كيف أنه عاونني ذات مرة في عراك نشب بالمزرعة، حين تشاجرتُ مع «كارلوس»، وأحسب أن الأمر تعلق بفتاة تدعى «ڤيكتوريا» وقفتْ حينها في ركن مبهورة حسبما أظن.

ثم رأيتُها ذات ليلة بعد ذلك بعدّة سنوات حين كنت أشتري

شطائر البرجر من متجر سوق «مولافانج»، فهي تعمل هناك حيث تقلي البطاطا مرتدية زي المطعم لكنّها تظاهرتْ بأنها لا تعرفني.

أثناء ذلك الشّجار أمسكتُ بخناق «كارلوس» حتى إنه وجد صعوبة في التنفس، فانحسرتْ عنه ملابسه كاشفة عن ظهره، في تلك اللحظة هُرع «روبي/ روبرت» حاملًا معه ولاعة وعبوة لمادة طيَّارة تشبه مزيل العرق أشعلها ليحرق ظهر «كارلوس» لمدة ثلاث أو أربع ثوانٍ، قبل أن يصرخ الأخير متوسلًا كي أدعه.

عاد «كارلوس» بظهره واستند على الحائط وقد بدا جليًّا تمامًا أنه قد خسر المعركة، وأنه خائف كذلك ويريد الاستسلام.

صديقي «كارلوس» جذوره تشيلية، ضعيف البنية، لكنه ذكي جدًّا وعبقري في الرياضيات، يعيش مع جدَّيه وأظن أني رأيتُ والده السكِّير مرات عديدة في السّنوات الأخيرة جالسًا على دكّة في سوق «فارنهيم».

طالما حاولتُ أن أتوجه إليه متسائلًا عمّا حدث لـ«كارلوس» صديقي الذي دأب أن يدعوه «كارليتو الصغير».

لمْ أعرف كذلك شيئًا عمّا حدث لأمه التي أحسبها سويدية، ولا أظنني التقيتُها قبل ذلك بسبب مسألة تتعلق بحقها في الحضانة، على الأقل عندما كان «كارلوس» صغيرًا في المرحلة الابتدائية.

ذاتَ مرة وبينما نحن بالصف الأوّل أو الثّاني، في وقت الاستراحة في أثناء لهونا، أتتْ سيارة إلى حيِّنا ووقفتْ عند متجر مجاور

للمدرسة في شارع «سنودروب»، عندما قفز شخص ما منها وجذب «كارلوس» ليدخله عنوة إلى تلك السّيارة بينما نلعب.

أدهشنا أن يظهر شخص ما هكذا من الفراغ ليجرَّ طفلًا ويزجّ به على هذا النّحو داخل سيارة، إنه شيء نشاهده في الأفلام فقط، وليس في الواقع، غير أننا رأيناه فعلًا بأنفسنا، فلِمَ حدث ذلك؟

لا أعرف ماذا استنتجنا.

عاد «كارلوس» لاحقًا بعد عدة أيام، يردِّد أكاذيبَ لا يصدقّها أحد، فلمْ نتحدّث في هذا الموضوع مرة أخرى قطّ.

المنازل بشكل عام بسيطة للغاية، مبنية من الجصّ وذات غرفة واحدة غالبًا، لها أسقف من الخوص ومثبتة بالطِّين حيث يتعين دومًا سد فراغاتها في كل مرة عقب سقوط المطر.

سمعتُ لاحقًا بعد عدة سنوات أن «كارلوس» قد انخرط في تعاطي المخدرات والتسكّع مع الفِتية الصّغار الذين جعلهم يشترون له احتياجاته كيلا يضطر للخروج بنفسه.

في المدرسة طُلب من الأولاد ألَّا يتسكّعوا معه، فلم يجد «كارلوس» بُدًّا من التوجه للمدرسة وتهديد المدرسين.

لا أعرف ماذا عساي أن أقول.

بدا الأمر سخيفًا..

أعني مسألة التحديق تلك، أو -لستُ أدري- ربّما تلك التخيلات أو إشاحة وجهي؛ إذ عندما يفعل المرء ذلك لا يبدو الوضع جيّدًا.

ماذا عساي أن أقول؟

لا يبدو الأمر غريبًا حتى إن كنتَ تشعر بالعكس!

أنا و «روبرت» -نصف البولندي- نتسكّع معًا مع غجريٍّ بولنديٍّ آخر يدعى «توني» -أسميناه «مونتانا»- نعم، فهو يرتدي البزّة والسلاسل الذهبية والإكسسوارات وكل هذه الخزعبلات، ومعه دومًا ورقة بمئة كرونة خلف علبة السجائر، مدّعيًا أنه زعيم عصابة كما نقول.

في إحدى المرّات التقيتُه في المدرسة، ولا أعرف لماذا يرتاح لي، ربّما لحديثنا بالبولندية أحيانًا، بينما هو أصغر من أن يدرك عدم أهمية هذا، وأن البولنديين يكرهونه تمامًا كما يفعل السويديون.

ذهبتُ إليه على أي حال ومعي دراجة -موديل الثمانينيات- انفلت سيرها، أخبرتُه أنه يسهل إصلاحها فقط إن فحصناها وهي مقلوبة وضبطناها، غير أنه رفض وحسب قائلًا: سوف تتّسخ ملابسك، دعها فقط، وتعالَ معي لمنزل ابن عمي «لوتشيانو» في حي «كروكسباك».

سِرنا معًا فسألني ما إذا كنتُ على ما يرام عارضًا عليَّ سيجارة من علبة مارلوبورو أخرجها، قبل أن يستشيط غضبًا فجأة صارخًا أنه لا يجد ورقة المئة كرونة التي وضعها هنا لتوه.

فيما نسير رأينا شابًّا لا نعرفه لكني صادفتُه في المدرسة في الصف التّاسع، هو من شمال السويد، لما تجاوزنا هذا الشاب هتف به «توني»: أنتَ، عليك إصلاح درّاجتي.

أجاب الفتى: لا أستطيع، لستُ أعرف كيف يمكنني إصلاحها.

ردَّ «توني» قائلًا: ماذا تعني أنك لا تعرف؟ فقط أعِدِ السَّير مكانه يا رجل، الأمر سهل.

شعر الشاب بالخوف بشدة، فانطلق «توني» يضربه على رأسه، بينما تفاجأتُ تمامًا للموقف بالرغم من عدم تفجّر الدماء.

خرَّ الشاب على ركبتيه محاولًا إصلاح الدراجة، واسودَّتْ أصابعه، قلتُ لـ«توني»: على رسلك يا «توني،» فقد خِفتُ منه شخصيًّا، كُنّا كُلّنا نخشاه.

في نهاية الأمر، تعاون ثلاثتنا لإصلاحها؛ أمسك «توني» بالدراجة، بينما أدرتُ الدوَّاسات، أما الشاب الذي أظن أن اسمه «دانيال»، فقد حاول إعادة السَّير إلى مكانه، ثم انصرف.

أشعلتُ سيجارة مع «توني» وانشغلنا بالبحث عن المئة كرونة الضائعة.

لم أوافق على هذا الأسلوب في مهاجمة الأبرياء بهذا الشكل، هكذا فكّرتُ حينها، لكن هذا ما حدث على أي حال، ربّما ظننتُ بالأمر ثمّة تسلية أو إثارة عندما يعتدي شخص ما على الآخر دون أن

أتدخّل بفعل أي شيء، لا أعلم.

طالما أحببتُ «توني»؛ إذ ثمّة رابطة وثيقة بيننا، فقد دافع عني ذات مرة حين تشاجرتُ مع أحد سكان المناطق الأرستقراطية بالمدينة؛ فتًى مدلَّل من «بيلافو» تحديدًا، (بحثتُ عنه بعد سنوات ووجدتُه قد صار طباخًا مشهورًا)؛ حيث فرَّ قفزًا من النافذة أثناء الدرس بينما نُقلتُ إلى فصل المشاغبين.

كنا مجموعة صغيرة، والمكان حينها أكثر هدوءًا بشكل عام، ثم جاء ذلك الفتى المدلّل مرة أخرى وبدأ في مضايقة صبي آخر يبدو أصغر كثيرًا من عمره يدعى «لارش» يتعاطى هرمونات النمو شبوكل وهذه الخزعبلات بينما يكبرنا هذا الفتى المدلَّل بنحو عام أو اثنين. تدخلتُ بينهما وانهلتُ معهما ضربًا عليه، قبل أن أطرد للخارج لنعود للشجار مرة أخرى، حتى قام المعلمون في المدرسة بفصلنا عن بعضنا، حينها هتف أحدهم مجددًا سننتظركم مرة أخرى عند سفح الجبل في الساعة الثانية عشرة، فالتقينا جميعًا هناك بالفعل وتعاركنا حتى قام الفتى المدلّل بكشط سِنّي اليُسرى.

وبعد مرور خمسة وعشرين عامًا على الحادث، ما أزالُ حتى الآن أستطيع أن أستشعر تعرّج سطحها بلساني.

حتمًا أبرحتُه كذلك ما يكفي من اللكمات والركلات كي يدرك أن إهانتي ستكلفه كثيرًا، في النهاية شعرنا جميعنا بالتعب وقلَّ التجمع حولنا فأوقفنا العراك.

انتهى الأمر دون أن ينتصر أحد.

علم «توني» بالقصة لاحقًا، فانتشرتْ شائعة مفادها أنه ينوي قتل هذا الفتى الثري.

إن «توني» مجنون كما يعلم الجميع.

لنا صديق پولندي آخر اسمه «مارسِن» التقى بهذا الفتى المدلل الثري في موقَف للسيارات، واندلع شجار بينهما لكنه ليس خطيراً.

إن «مارسِن» من حيّ «روسينجور» وله أصدقاء كثيرون هناك.

يعرف «توني» كل غجر مدينة «مامو»، فتردّدتْ شائعات كثيرة عما سيحدث، أصبح الفتى المدلّل خائفًا بشدَّة، ويبدو أن أحدهم أتى على ذكر الأمر بالمدرسة؛ لأن المعلمين استدعوني والفتى الثَّري للتصالح وبرغم أني لم يعد لي علاقة بالمسألة حيث تعاركنا وانتهى الأمر، الآن سيتعين علينا الجلوس معًا والاعتذار والتصافح، لا أتذكر بِمَ هدّدوني، ولكني اعتذرتُ وهو أيضًا كذلك، وطلبتُ من «توني» و«مارسِن» عدم التدخل فامتثلا لطلبي.

كما قلتُ، أصبح الفتى طاهيًا شهيراً، ولكنه ما زال وغدًا، فهو يعيش في حي القصور ويقود درّاجته البخارية الجديدة طراز MT5، بينما تشاركتُ و«رودريجو» درّاجة بخارية «بوتش ماكسي» ذات مِقود مكسور سرقناها من «حمزة» الذي قد سرقها بدوره من شخص ما، وهي لم تكن سرقة سهلة كذلك، فـ«حمزة» مجنون ومعروف بإطلاق الرصاص على الأعين من بندقيته.

ماذا عساي أن أقول؟

منزله بسيط جدًّا، اعتدنا على البقاء هناك أنا و«كارلوس» والتوأمان «قاسم» و«روبي» وآخرون على الدَّرَج، نحرق أي أشياء بلاستيكية مثل أصص الزرع والأكياس البلاستيكية وخلافه.

لا أعلم ما الذي أبهرنا في ذلك، لكن طالما أمتعنا صوت قرقعة البلاستيك (تشُك تشُك) عند انصهاره ثم تصلّبه حتى إننا أسمينا اللعبة تشك تشك، أعتقد أن الموضوع بدأ عندما تعلّمنا صنع القنابل من ورق الألومنيوم وكرات تنس الطاولة.

نسرق الكرات ونلفها بورق الألومنيوم بحيث يصبح شكلها متناسقًا وناعمًا، ونشعلها فتنصهر الكرات ببطء إلى أن تنفجر مُطلقة دخانًا كثيفًا، حتى تبدأ أعيننا نفسها في التشكي من الحرق.

تنقسم المنازل حينها إلى جناحين؛ واحد مخصص لأهل البيت، والآخر حظيرة حيوانات، ويحتل السَّكان الجزء العلوي ذا الأرضية المصنوعة من الطوب اللَّبِن.

النوافذ صغيرة بلا زجاج والإضاءة مصدرها مصابيح الجاز.

الأسرة التي تمتلك مزرعة صغيرة عادة لا تمتلك أي أثاث، فقط قطع جلدية تفرشها لتنام فوقها.

سيّدة الدَّار مسئولة عن المهام المنزلية، مثل الطّهو والتنظيف والغزل والخياطة، وتساعد أيضًا في أمور الزراعة وصناعة النبيذ

أحيانًا، وتتولّى كذلك تعليم الأطفال الصّغار.

تتناول الأسرة عادة وجبتين فقط يوميًّا؛ هما فطور خفيف مكون من خبز وفاكهة وجبن، بالإضافة إلى العشاء وهو من الخضر واللحم والنبيذ.

وهكذا مرَّتِ السنوات.

همهم حمزة بشيء عن المخدرات، فسألتُه أي نوع من المخدرات، قال: الكثير؛ «بنزوات»، «سپيد»، «هورس».. الكثير.. محصول القمح، محصول الكتان.. بشائر التّين..

لا أعلم أين سأنام الليلة.

كم عمرك؟

محصول الزيتون..

أربعة وعشرون..

ثم يستنشق الهواء..

تِين الصيف والبلح..

اذهبِ الآن، سنصلي من أجلك.

تِين الشتاء..

حرث الأرض..

بذر البذور..

محصول الليمون..

مرَّتْ سنة أخرى.

ثم كالمغفل قال: هذا ليس جيّدًا.

ردَّد: يا زميل، كما تعرف هذا ليس جيّدًا.

أومأتُ برأسي وهززتُها في الوقت نفسه لأني أعرف ولا أعرف، ثم قلتُ: أعلم يا رجل، وانصرفتُ.

دارتْ كل الأمور في رأسي حين قال المغفل: هذا ليس جيّدًا، الحياة التي تعيشها ليستْ جيدة يا رجل، أنتَ ما تزال شابًّا.

فقلتُ: أعلم يا رجل، فأنا لستُ غبيًّا.

فهو مثل أخي الأكبر، أو كأبي -لا، ليس أبي- إذ لو أنه أبي لضربني، هكذا فكرتُ.

لذا فإنه يحاول أن يرشدني قليلا مثل أب حقيقي، لكن كلّا، إذ قال مرة أخرى: هذا ليس جيّدًا.

فقد اعتاد أيضًا أن يفعل تلك الأشياء؛ لذا بدا أحمق فعلًا، غير أنه أقلع عنها وانتهى تمامًا من كل هذه الأمور وعاد لرشده.

أُقسِم أني نظرتُ إليه كما لو أنظر إلى أخ، فأقسَم لي أنه قد توقف

بنفسه عن البيع والاتجار وابتعد عن الشارع.

نظرتُ إليه متسائلًا: أقلعتُ فعلًا عن كل شيء، أليس كذلك؟

فسار منكسرًا متّسخًا أشبه بميّت، مرتديًا سترته السوداء وقد رفع غطاءها على رأسه، تصطك أسنانه بردًا بينما تشققتْ بشرته الرَّطبة وامتلأتْ ملابسه التي تغطي رأسه ووجهه بالدخان.

فيما أسير عابثا بالولاعة أجبتُه: بلى يا أخي، أنا الآن لي أبناء وأسرة وعمل؛ لذلك لا بدّ أن تكون الأمور هادئة، كما تعرف... إن الوضع لا يسير هكذا.

بعد عدّة سنوات مررتُ به مجددًا فرآني حينها قائلًا: إني أشعر بالخجل منكَ، ثم أضاف لاحقًا: تبًّا، إلى هذا الحد يخجل المرء منكَ، يا رجل!

سرتُ مبتعدًا وقد تواصل الأمر كله برأسي طول الليل وكل ليلة.

ثم جاء عازف الجيتار والملحّنة متأخرينِ.

رأيتُ العازف باديًا عليه التوتر وقد اعتذر عن التأخير، فقلتُ لا بأس، أما الملحنة فقالتْ إنها ظنّتْ أنه ما زال أمامهما متسع من الوقت.

بدأنا السير، أوشكتُ أن أقول شيئًا عن السكّير حين قال عازف الجيتار: هل تذكرون؟

الفصل الثاني

تفتحتْ زهرة نبات الشمع أثناء الليل.

وإذ أعيد تمرين العزف في الصباح، يصير بوسعي أن أرى الزهرة تهتز.

لا بسبب عزفي للتشلّلو، كما تصورتُ في البداية، حيث حاولتُ الالتزام بتوجيهات «سيلسي» (أو بالأحرى حاولتُ الالتزام بتعليمات أحد مؤدّي عزف «سيلسي»؛ فذراعه اليمنى المدعو «نجرو» هو من يدوِّن له النوتات الموسيقية.. اسمه «توسيتي» أو أيًّا ما يدعونه)؛ بل إن تلك الزّهرة تهتز بالأحرى بسبب قطار البضائع الذي يمرّ على مسافة مائتي متر أو ثلاثمئة، مسبّبًا ارتجاج المنزل كله، فتهتز

النوافذ والزهرة بذبذبة واهنة ذات تردّد خفيض.

لعلّي رأيتُ أمرًا ما في وجه هذا السكِّير، شيء في بياض عينيه دفعني لإعادة التفكير في تلك المسألة مرة ثانية.

تلك الزهرة من فصيلة تهتز وتشرق وهي ميّتة كما لو كانت حية.

واصلنا السير بجوار القناة، فقال عازف الجيتار: هل تذكرون ما كنا نسمعه ربما منذ خمس عشرة، ست عشرة، أو سبع عشرة سنة.. ذلك الفنان «لورين كونورز؟».. تقصد صاحب ألبوم هذا الهواء؟

لم أسمع جيّدًا ما قاله إذ كنت أجاهد كيلا أنزلق بعيدًا.

قالتِ الملحنة: أليس هو من يدعى «مزّاكاني؟» اللغز المحير. قال عازف الجيتار: تمامًا هو ذاك.

قالتِ الملحنة بينما تخرج مغلّفًا صغيرًا به سكاكر أو حلوى نعناع أو عرقسوس: أجل، أتذكر ذلك النوع من الآراء الانطباعية.. إنه يجري فقط حول وتر حساس ثانوي، مثل فتح حقيبة أمامنا..

ثم قدمتْ لنا مغلّف الحلوى، فتناول عازف الجيتار واحدة بينما أومأتُ برأسي.

قال عازف الجيتار: صحيح.

لائكًا الحلوى قليلًا بلسانه داخل فمه، مما ذكّرني بفك السكّير المحطَّم.

ثم استطرد: ربما يستخدم ضبط C المفتوحة، في تشبيه قريب من ذلك قليلا كما لو كان اللعب سريعًا بدون انزلاق حول المكان وجميع أغاني الألبوم متشابهة معظم الوقت.. ربما بسبب مقياس السلم الخماسي أو شيء من هذا القبيل.. أعتقد على أي حال أنه لا يعمل ولكنه في الحقيقة يعمل.. موسيقاه لا تبدو هزلية – كما اعتقدت- الأمر يتعلق بالإيقاع إنه من النوع غير المنتظم، المتدفق، ثم عالمه..

هذا ما تعتقده فقط لأنه يطلق عليه الهواء، هذا الهواء.. مثل الهواء بصيغة الجمع.. يبدو أنه متجذر في موسيقى القيثارة السلتية أو الأيرلندية كما قال.. حاولت أن أقول ولكن بطريقة ما عطلت.. وبدلا من ذلك سيجارة أخرى وأشعلتها، ثم حاولت مرة أخرى أن أقول شيئًا.. كان الأمر كما لو أن شيئًا قد تحطم.. شيئًا صغيرًا جدًّا لكن لا يزال مكسورًا متصدعًا متمزقًا.. كبعض العصي الصغيرة أو الأحبال الصوتية المهمة للقدرة على تحدث في موضع ما بين طرفين.

سرنا على الحصى الذي يصدر صريرًا فيما تُنصتُ الملحِّنة.

أنا كذلك أستمع دون أن أنصتَ في الوقت نفسه، بينما واصل عازف الجيتار حديثه عن «كونورز».

قال كذلك إن «تورلوف أوكارولان» هو موسيقار من القرن الثامن عشر أو هو قد توفي في القرن الثامن عشر أعتقد في عام 1838؛ إذ لا أعرف ما إذا كان قد وُلد بالفعل في القرن السّابع عشر من عدمه، غير أني لا أرجّح أن أعمار الناس كانت إلى هذا الحدّ طويلة آنذاك.. هذا الموسيقار قام بتأليف آخر مقطوعاته على فِراش الموت ومنحها عنوانًا موحيًا هو «وداع كارولان للموسيقى»، وقد أعجبني هذا، فالرجل لم يودّع الحياة أو العالم، بل ودّع الموسيقى فقط..

و... مقاطعًا حواره.. أخذتُ نفَسًا عميقًا معلِّقًا: آه، لعلّه لا يظنّ أنه سيقدر على تأليف الموسيقى بعد الموت أيضًا.

فقال عازف الجيتار: من الواضح أن لا.

واصلنا السَّير بجانب القناة، أنظر إلى الحصى على الأرض، وأشعر بضرب من الألم. فكرتُ أن أخبرهم بهذا بينما أتحدث، ولكن ماذا عساي أن أقول؟ لا أريد أن أبالغ.

إنه ذلك الإحساس بالألم الذي لا يمكن للمرء أن يعرف مصدره أو أن يصفه، الألم الذي برغم أنه معروف جيدًا لكنه مع ذلك لا يمكن تحديد كنهه.

ماذا عساي أن أقول لعازف الجيتار والمُلحِّنة؟

كيف لي أن أصيغ العبارات؟

لعلّ الأمر لا يمكن تفسيره أو وصفه أو الحديث عنه أو التفكير

فيه.

لعلّه لا يوجد ما يمكن فعله، كما يُقال.

لعلّي لا ينبغي أن أتفوه بشيء عن هذا.

لعل عليَّ أن أصمتَ مواصلًا الإنصات وحسب، فينصرف الألم بعد برهة.

هذا ما فكرتُ فيه.

واصلنا السير بجوار القناة كل منا إلى جانب الآخر، وسمعتُ صوت المُلحِّنة في الوقت نفسه الذي أفكر فيه في شقيق «روبي» الذي دخل السجن لسبب ما.

كانت الرَّاية ترفرف على الناصية، وسحب الأتربة تهبّ، بينما قد جفَّ حلقي تمامًا.

حاولتُ أن ألتقط أنفاسي، فنظرتُ إلى برج عالٍ أمامنا، ورأيت شيئًا يتحرك على سطحه.

فكرتُ في «كوبنهاجن» التي كنّا في طريقنا إليها كي نحضر حفل كنيسة «فرو فرو كيرك» التّابعة للكاتدرائية؛ حيث سيعزف فيها «موسّمان» مقطوعة «في المرشح لوسيس» من بين مقطوعات أخرى.

فكرتُ كذلك في «سانّا» في «كوبنهاجن»، وسمعتُ صوت المُلحِّنة

غير أنه تعذّر عليَّ التركيز؛ لأن صوت «روبي» ظلّ برأسي طوال الوقت، حتى إنني رأيتُ ظهر «روبي» أمامي يتحرك ويصغر شيئًا فشيئًا، بينما استمرّ صوته في رأسي يردد: تبًّا، يا لهنّ من عاهرات لطيفات، هكذا قالها «روبي».

تذكّرتُ «سانّا» التي سقطتْ من الطابق الرابع، ونجت بطريقة أو بأخرى من تلك القفزة في ذلك الخريف.

«سانّا» التي نشأتْ في محطة القطار الرئيسة بـ «كوپنهاجن»، بينما تولت جماعة «چونس» تربيتها في سوق «هالم».

هم عصابة من خمسة إلى ستة شباب في سنّ الثّالثة عشرة إلى الرّابعة عشرة، يعيشون جميعهم معًا في مكان واحد.

أمّا «چين» -المحلِّلة النفسية التي تعمل بمراكز المساعدة التي يترددون عليها- فقد اعتادتْ أن تدعو هذه العصابة «الفتاة الصغيرة وأفراخ البط القبيح» (وأعتقد أني بتُّ أستوعب الآن كيف أثّرتْ عليهم هذه التسمية بدون فهم حقيقي لها آنذاك).

طالما وُجِدوا معًا باستمرار في وسط «كوپنهاجن» -بأحياء «فاستربرو»، و«نورابرو»، و«أوستربرو»، وأخيرًا في ضاحية «كريستيانيا»- حيث أزور «سانّا» أحيانًا في شقة صغيرة يعيش فيها أخوها بحي «إيسهو».

التقيتُهم في «كريستيانيا»، بينما أنا في طريقي إلى مدينة «أورهوس»، أم كانت مدينة «هامبورج» أو «مارسيليا» أو

«إسطنبول»؟

في الحال تعرّف كل منّا الآخر، هكذا تذكرتُهم على الفور.

نحن الإجهاضات الفاشلة -حسبما قالتْها- جميعًا في ذات المكان؛ مكانٌ متداعٍ بشدّة، لكننا نحاول الفرار من الأشياء، نحاول الهرب من ضروب متباينة من الضبابية، وأشكال مختلفة من العنف، لنختفي داخل شيء ما؛ ضبابية جديدة، وخِدر وسكون.

نهيم ليلًا، ننام على الدَّرَج..

على المقاعد وفي الحدائق..

في باحات الكنائس، أو في منازل أشخاص سيئين نلتقيهم مصادفة فيدعوننا لمضيّ الليلة، أو لأن هؤلاء لديهم ما نحتاج إليه وهو المال غالبًا.

«نيكو»، «ووتان»، «ڤيڤي».

«فوكس»، أيها اللَّعين الماكر.

لاحظتُ أن عازف الجيتار قد سألني شيئًا، فنظرتُ إليه، وهمهمتُ ببضع كلمات وأظهرتُ إيماءة حين أعاد قوله: إن هذا من المفترض ألا ينجح، ولكنه سينجح بالفعل رغم كل شيء، فالأمر جيّد حقًّا، كما تعلم؛ إنها ألحان مراوغة خفية.

فكّرتُ في أضلع ذلك السكّير، وفي الألم..

فكّرتُ في مئات أو آلاف المرات التي وقفتُ فيها هناك؛ حيث يتّقد تمريني لجسمي في كل صالات الچيم المختلفة تلك، بينما تتقاطر الرّطوبة من السَّقف علينا وعلى الأرضية، فيما ننهال باللكمات للقفازات ولأكياس الرمل، ننهال بها ونتلقاها.

تذكرتُ المرات الثلاثة التي انهلت فيها بلكمة شديدة حقًّا؛ ثلاث مرات متتالية -ضربات قاضية كما يقولون- مرة لضابط شرطة في ملابس مدنية، برغم أني لم أعرف أنه شرطي، وهو كذلك لم يفعل شيئًا بعدها؛ لأنه كان بمفرده، ولأنه شعر بالعار لأني أسقطتُه بضربة واحدة، ومرة لمتطاول بالنادي، وأخيرًا لشخص عنصري افتعل شجارًا معي في حافلة ليلية.

في كلّ المرّات الثلاثة جاءتِ اللكمات قوية شديدة ناجعة حقًّا قلَّما ينجو منها أحد.

في كل مرة فإن كل ما يحدث هو أني أرفع يدي اليسرى وأمسُّ وجه الخصم وحسب، مع بعض النَّظر بخفة، على خفيف جدًّا، ليست لكمة، بل تقريبًا مشاكسة، لكنهم مع ذلك يرفعون أذرعهم دفاعًا كردّ فعل منعكس، كاشفين الجسم؛ سيما الأضلع والطُّحال، هنا يمكنني التموضع لِلَكم الجسم، أي أُرجِعُ فخذي وكتفي اليمنى للوراء قليلا، ثم أتوجه بكل قوتي منطلقًا من ساقيَّ، من الفخذ، فقط أقذفها بالكوع إلى الزاوية الصحيحة موجَّهة لأعلى قليلًا لأرى الرجل منهم يغوص لأسفل بأضلع محطمة، على وجهه ذلك التعبير الذي يقول: لا، انتظر، ما الذي حدث للتو؟

أتذكر أيضًا تلك المرة التي شُرخ فيها ضلعي بعدما رُكلتُ في صدري، أفكر في ذلك الألم الذي أستحضره بوضوح شديد، تلك الأنفاس الواهية للغاية، الحذرة جدًّا كيلا تتسبب في المزيد من الألم، هذا الألم المروع تمامًا الذي أتذكر تناقض إحساسك به عندما تتنفس؛ حيث لا يمكنك التوقف عن التنفس، وحيث يتعيّن عليك التنفّس إذ عليكَ أن تعيش.

لذا لم أسمع ما قاله عازف الجيتار.

فكرتُ أنه عليّ أن أنتبه، أن أستجمع شتات نفسي.

ركزتُ بصري وقلت: الهواء كما هي الحال في تلك المادة التي نتنفسها؟

على أي حال عليكَ أن تعيش، هكذا فكرتُ ثانية.

قالتِ المُلقِّنة: نعم كما هي الحال في تلك المادة التي نتنفسها، ومثل زوج الأحذية، ألستَ تمتلك البعض منها؟، أجل، هيا انظر، مشيرة إلى حذائي، إلى الأسفل حيث قدمايَ على الحصى، مثل «نايك أيرز» كما قالت، الجمع.. الهواء بصيغة الجمع.

فقلتُ: آه؟

كما قال العازف: أجل، هيا، مستطردًا: ولكن هذا لا علاقة له بذلك مطلقًا، أو أنه صحيح بشكل أو بآخر؛ فـ «إير» أو «آيَر» (هواء) هي لفظة مشابهة في معناها لأغنية أو نغمة، في الحقيقة

إنها من لفظة «أريا» التي تعني طرب التي تُشتق منها مفردة «إير»، «أيَر» أي هوى.

لكن عندها.. ثم تاه شاردًا قليلًا للحظة قبل أن يستطرد: هي أنماط، هي كذلك، وردَّد متلعثمًا إلى حدٍّ ما: إنها مثل.. مثل أن تكمن الموسيقى هناك، حيث.. حيث تلك الذبذبات، فليس إذن ما هو غريب بهذا الشأن، حتى لو اعتقدتَ خلاف ذلك...

هنا قاطعتُه قائلًا: أجل، فالصوت هو هواء في آخر الأمر، أو أنني أعني...

ثم شعرتُ بالتعب والظمأ على حين غرّة كما لو أعاني أعراض ما بعد السُّكر برغم أني في الحقيقة لم أحتسِ أي خمور.

قالتِ المُلحِّنة: حسنٌ، ليس بالضَّبط، ولكن ماشي الحال، هي أنواع من الرنَّات في الهواء، أو التضاغط...

قلتُ متثائبًا: إن التغيّر في الضَّغط، كما تعرفين، له علاقة بالجودة الصوتية، أو بالصّدى، وبالرّنين، والتردّد، والانتقال الموجي، فأنا لا أعلم إلى أي حد تقومين بكتم الأوتار حين تعزفين على الهارپ، بل لا أظنكِ تفعلين أصلًا، على الرغم من أني أثق أنه يتعين عليكِ ذلك، بل في الحقيقة إن هذا ضروريٌّ تمامًا، أعني لعلّه واضح على الأرجح...

عندما يأتي الربيع، تكون قد مرَّتْ سنة أخرى، وسنتجاوز بحيرة أخرى.

العشب والأغصان الجافة والسماء هي كل شيء..

دار تلو دار تلو أخرى، الأغصان والسماء، ثم مرَّ عام آخر..

يتعذَّر عليّ فعلًا أن أصدّق أن الأمر حقيقي، فقد عشنا هنا عامًا آخر، حيث تنقسم الحجرات الفسيحة إلى أخرى عديدة أصغر، بدون الأخذ بعين الاعتبار عملية التهوية وتوازن الإضاءة. تتعيّن قيمة الإيجار بحسب حجم الغرف والبُعد عن الشارع، وسرعانَ ما اكتظّ المنزل كله من قبوه حتى طابقه الأخير بالمستأجرين الذين بالكاد يملكون قُوت يومهم، فهم عديمو المروءة، ذوو سلوكيات غير مبالية، أشخاص ضائعون شديدو الفُحشِ كالمتسوِّلين..

وكما يقول «روبرت وايات»:

كن بالهواء، ولا تكن الهواء، كن في اللَّاهواء.

قالها العازف بضحكة مكتومة، بينما رحتُ أفتّش عن النّغمة لبرهة، ثم أتتْني هكذا:

لو كنتُ حُرًّا، لاخترتُ ألَّا أكون أنا.

غير أني لن أنطق بأي كلمة، فلأدعها تتغنّى بذهني.

أيّ عنكبوت هذا الذي يتفهّمُ رُهاب العناكب!

ثم قال: أجل، هيا، لقد فهمتُ المعنى الآن...

لكنّي لم أسمعه، لقد صرتُ بعالم آخر الآن حيث جعلتْني مسألة الأضلع تلك أفكر في «كيكو»، وفي آخر مرة التقيتُه فيها، وفي كتبه وتلك الليلة الأخيرة؛ الليلة التي بدأتْ في شقة «كيكو» ويعلم الله وحده أين انتهتْ.

تلك كانت المرة الأولى التي أكون فيها بمنزله، في وقت باكر من المساء عقب العمل، اخترت ركوب المترو، وعثرتُ على الطريق من خلال خريطة صغيرة مهترئة حصلتُ عليها من «أرجو»، أظنّه اقتطعَها من صحيفة مجانية ما، وصلتُ إلى الفناء عبر باب خشبي متهالك غطَّتْه البطاقات وقصاصات الملصقات.

المدخل مظلم ورطب، وأذكر بوضوح رائحة القمامة وعطن البول المتراكم، مما حدا بي إلى أن أشرع في السير رافعًا يدي لتغطية وجهي.

الفناء عبارة عن أسفلت متشقِّق كسَتْه الطحالب، وسور قرميدي أحمر بارتفاع مترين، رسم عليه أحدهم بعبوات إسبراي صورة لهدف سُجِّل في حارس مرمى تمّ تصويره بطريقة الخطوط الطفولية الرفيعة البسيطة التي تشبه العصي، أما في الزّاوية فهناك رف للفائف نجيل اللعب الصناعي، يقف إلى جواره أربعة أطفال في حوالي العاشرة من عمرهم، وإذ جُلتُ ببصري في المكان رأيتُ أربع ردهات للسلالم، فاتجهتُ للأطفال بالسؤال:

عذرًا، هل تعلمون أين يعيش «كيكو»؟

نظروا إليّ؛ هم صبيّان وفتاتان مستوضحين معلقين:

تقصد فرانشيسكو؟ شاب قصير بضفائر؟

ثم بهدوء قال أحد الصبيين للآخر إنه يقصد الزّنجي..

فجأة انتبهتُ إلى أنه يحمل سكين مطبخ ضخمة، فيما يُمسك الصبي الآخر ذراعه بحيث يظهر باطنها للخارج، وبها جرحان كبيران ينزفان ببطء.

قلتُ: هيّا، ما هذا الذي تفعلونه؟ فردَّتِ الفتاة الكبرى بسرعة: إنه لا يشعر بشيء.

سألتُ مجددًا فيما أقترِب: لكن ما الذي تفعلونه بحق الجحيم؟

فقال الصبي ذو الذراع المصابة: هذا صحيح، أنا لا أشعر بذراعي.

أنفه مسدود حتى إنني استطعتُ أن أرى المخاط يقطر قليلًا من إحدى فتحتيه.

بينما قال الصبي ذو السكين: إننا نتمازح وحسب، فلمَ بحق اللعنة تكترث أنت؟

فقلتُ بينما أُمسك بمعصم يده التي تحمل السكين: أنتَ أيّها الصغير، هل تستقوي أيّها الصبي؟ وأمسكتُ بيده التي تقبض

على السكين قائلًا: احذرْ حتى لا تُصيبكَ طعنة.

أجاب الصبي: اللعنة عليكَ أيها الدَّاعرُ المُريب، وأفلتَ نفسه مُسقطًا السّكين باصقًا على وجهي قبل أن ينطلق مسرعًا من البوابة الرئيسية التي صفعها بعنف خلفه.

بشكل غريزي أدرتُ وجهي بعيدًا، وأزلتُ اللعاب من على وجنتي ناظرًا للأطفال الآخرين، هزّتِ الفتاة الكبرى رأسها قليلًا وقالتْ:

لم يكن عليك أن تلمسه، فالبالغون لا ينبغي لهم لمس الصّغار.

أما الصّبي فاقد الشعور فقد أخذ ينظر إلى الدماء التي تتساقط بطول ذراعه، وعلى ظهر كفه، ومفاصل وسطاه وبنصره، ثم على الأرض، فسألتُه:

هل أنتَ بخير؟

أجاب مجددًا أنه لا يُحس بذراعه مطلقًا.

بلى، ولكنّكَ تنزف بحق اللعنة، وعليكَ أن تضع ضمادة أو لاصقًا طبيًّا أو شيئًا كهذا، فردَّتِ الفتاة:

لِمَ تهتم إلى هذا الحد، بحق اللعنة من أنت؟

فتحتُ ذراعي وأومأتُ:

هيّا، أجل، هذا سؤال جيد، إنه سؤال جيد حقًّا.

لِمَ أكترث؟ أوليتُهم ظهري، وسرتُ عائدًا نحو المدخل متمتمًا بشيء ما عن كونهم ضاعوا تمامًا، كما لو أني أحاول أن أتجاهلهم، غير أني نظرتُ للخلف في الحال وسألتُهم من فوق كتفي:

أتعلمون أين يعيش «كيكو» أم لا؟

قالتِ الفتاة فيما تجذب رزمة أوراق مكتبية:

في البناية سي، بالطَّابق الثاني.

قلتُ بأقصى سخرية أمكنني حشدها:

الطابق الثاني، شكرًا جزيلًا.

أجابتِ الفتاة بهدوء: عفوًا أيها الحلوف.

أما الصّبي فقد تجهم وجهه رافعًا إصبعه الأوسط بتلك الإشارة البذيئة.

توقفتُ ناويًا مواصلة الجدال، لكني أدركتُ عدم جدوى الأمر، فضغطتُ فكّيّ بحزم، وتوجهتُ إلى مدخل البناية سي بدلًا من ذلك.

صعدتُ السلالم، رأيتُ اسم «كيكو» فقرعتُ الجرس، فتح لي «كيكو» الباب وقال:

ما الأخبار يا «كودي»؟ هل من جديد؟

قال «كيكو»: لا، ليس بالأمر الكثير، فقط ألعب بلاي ستيشن.

سرتُ إلى داخل الرَّدهة وسألتُه: حسنًا، أي لعبة؟

أجاب: ريزيدنت إيڤل[1].

أومأتُ وابتسمتُ.

قال «كيكو» متجهمًا: علقتَ في مدينة الرَّاكوون؟ أليس كذلك؟ كعادة كل مرة يا زميل.

قلتُ بينما أعلّق سترتي: اللعنة، إنهم عيال ملاعين مرضى بحيِّك يا رجل.

فقال: أعرف، لا تتحدّث إليهم، إنهم ضائعون تمامًا، وعنصريون كذلك.

انتقلنا إلى غرفة المعيشة حيث السَّتائر الحاجبة للضوء منسدلة، فصار المكان معبقًا بالدخان ومظلمًا ما خلا مصباح اللّاڤا الكبير، وبصيص شاشة التليفزيون.

استطرد «كيكو»: أجل، واحد منهم على أي حال فقط لأن شقيقه حليق الرأس، لكنه ليس خطِرًا، بل هو مجرّد مغفل يلعب لعبة «سكرودرايڤر» وكل هذا القرف العنصري، هفف! حتى ترتعب منه المنطقة كلها.

ثم ضحك وجلس على المقعد، بينما اتّجهتُ ناحية مصباح اللاڤا

1- ريزيدنت إيڤل: لعبة معناها الشَّر المقيم.

ومِلتُ عليه متتبعًا أجمة حمراء تشبه الأميبا بإصبعي، وقال: عادةً أُجيب مشغلًا موسيقى فرقة الهيپ هوپ الأمريكية N.W.A (زنوج ذوو أخلاق)، ولأن سماعاتي أكبر وأفضل فأنا مَن يربح النّقاش دائمًا، لكني قلتُ: لا أعلم، يبدو الأمر نوعًا كما لو أنهم بحاجة لسحق رؤوسهم، ربما كنّا شديدي الطِّيبة مع هؤلاء الأوغاد الصِّغار.

بدأ «كيكو» باللعب ثانية، جلستُ على الأريكة ناظرًا لكل هؤلاء الزومبي يملؤون الشاشة بأذرع غارقة في الدماء تمامًا مثل ذلك الصبي الصغير منعدم الشعور.

بالرغم من أنه ذات مرة أخرج سلاحًا بالفعل، قالها «كيكو» بينما ينهمك في اللعب.

سألتُه: الصَّبي الصَّغير أم شقيقه؟

قال «كيكو:» الصَّبي الصَّغير.

قلتُ: أتمزح؟

قال «كيكو:» أقسم، قطعة سلاح «بيرِتَّا» مُحي رقمها المتسلسل، حتمًا حصل عليها من القزم، تعرفه، «كارلوس». إنّه الشَّخص الوحيد الذي أعلم أنه باردٌ بما يكفي ليورط أطفالًا صغارًا في مثل هذه الخزعبلات، قالها «كيكو» فيما يهز رأسه مواصلًا: هل تفهم في هذه المسائل؟

قلتُ: أي مسائل بالضبط؟

قال «كيكو:» «البيرِتَّا» وذلك كله، الماركات وأشياء من هذا القبيل؟

قلتُ: ليس فعلًا، إنني فقط أعرف تلك الماركة حيث كنت أمتلك قطعة مقلدة منذ فترة مضت، بعتُها عندما اشتريتُ مُسجِّلَ «آكاي».

قال «كيكو:» ما الذي حدث مع الصّبي الصّغير إذن؟

قلتُ: لا، لا شيء، لمَّا لم أبتعد، ابتعد هو.

قال «كيكو:» كالعادة.

ضحكتُ مكرِّرًا: كالعادة.

قال: ماذا بحق اللعنة، لا تمثل دور رجل العصابات، وسألني ما إذا كنتُ أريد لعب ريزيدنت إيڤل.

قلتُ: كلَّا.

ثمَّة بعض الفاكهة على الطاولة الجانبية، فطلبتُ تفاحة، فقال: طبعًا، تفضَّل واحدة حمراء، فالتفاح رائع.

تحدثنا بينما هو يلعب، ورأيتُ أن لديه كتابًا فأمعنتُ فيه النظر؛ «إدجار آلان پو»، قال «كيكو» إنه يحب «پو»، سيّما القصص لا القصائد التي يراها قديمة الطراز قليلًا، وقد أعطتْه أخته نسخة عندما كان بالمستشفى في «لندن»، سألتُه: لِمَ دخل المستشفى؟

فأخبرني أنه تعرض لاعتداء من قبل أشخاص عنصريين في «سيڤل»، وأنه طعن أحدهم في معدته بينما لم يعرف ما الذي حدث للشخص الآخر، فيما أصيب هو بارتجاج في المخ، وتحطُّم في الضلوع، وثقب في الرئة، وفي «لندن» فُتح جرح رئته أو شيء من هذا القبيل فنُقل إلى المستشفى ثانية، وقال إن الألم من الشناعة بحيث يتعذّر وصفه؛ لذا أراد المزيد والمزيد من مخدر المورفين طوال الوقت، ولطالما كان من الجيد أن يستلقي هناك ويرتحل مع قصص «پو» أخيرًا عند انحسار الألم، حينها أَدركَ أنه يحب القراءة، وقد فوجئ عندما رأى أمينة المكتبة -تلك العجوز ذات الستين ونيّف- تستحضر رتلًا من كتب الزومبي ودواوين القصائد الألمانية القديمة التي تتناول الجثث وكل تلك المواضيع.

سألتُه عن الاعتداء، فأوضح أنه حدث ذات ليلة خارج إحدى محطات القطار، سألتُه عما إذا كان يحمل سكينًا، فأجاب ليس بعد الآن، لكن الوضع مختلف هناك، عليك أن تحمل سكينًا معك في أسپانيا حتى لو لم تشأ، فأسپانيا تعجّ بالعنصريين كما قال، وخرابة كما قلتُ أنا، فواصل «كيكو» قائلًا إن هذا الرجل «پو» كما تعرف هو أيضًا عنصري، فقلتُ له إن الجميع عنصريون، فأنتَ تعلم بِمَ وصفَتْني تلك الفتاة الصغيرة بالباحة، فأجاب متوقفًا عن اللعب ومغلقًا التليفزيون: كلّا، بِمَ وصفتْك؟

قلتُ: بالحلوف، هكذا قالتها: عفوًا أيها الحلوف.

ردَّ «كيكو»: حقًّا؟ اللعنة! إن هذا مريع، فضحكْتُ قائلًا: أليس

كذلك حقًّا!

قال «كيكو»: فعلًا.. أتعلم منذ متى لم أسمع تلك الكلمة؟

قلتُ: ماذا؟ ياه؟ كل هذه المدة؟ أن تقال مباشرة في وجهي هكذا، أقصد أجل، فقد مضى على هذا مدة طويلة، حقًّا؟ أقسم.. يا للشيطان! هل تذكر أول مرة؟ فأنا أذكرها بالتفصيل يا رجل.

قال «كيكو:» كلّا، لا أتذكر.

قلتُ: حسنًا، أنا لا أستطيع تذكر العام تحديدًا، لكنه واحد من مخيّمات كرة القدم مثلًا في عام 88، 89، 90، شيء كهذا؛ لذا حينها كنتَ لنقل في العاشرة أو الحادية عشرة؟

«كيكو»: تبًّا، هذه السن فقط؟

واصلتُ: أقسم أنها أول مرة، وكانت بمخيم لكرة قدم، أنا وأحدهم ممَّن لا أذكر، لعلّه «باسرت» أو غيره، كنّا نعصف بهؤلاء الشباب الأكبر سنًّا نستولي على الكرة منهم وكل هذه الخزعبلات، حين نعتَنا أحدهم أظن اسمه «مانجوسن» أو «مانجس» أو أيًّا ما كان قائلًا: أجلاف ملاعين.، ولمّا لم أسمعها قبلًا، لم أفهمها، لكني سألتُ أحدهم لاحقًا فقال إنها تعني: أجنبي، مهاجر وافد، جنوبي ملوّن وَسِخ، كما تعلم فأنا حتى لم أكن قد سمعتُ ذلك أيضًا حينها، وبالطّبع لم أستطع أن أفوّتها؛ لذا فعندما مررتُ بهذا الشّاب «مانج» أو لعل اسمه «توب» دفعته في صدره أو ربما في معدته، بكل ما أوتيتُ من قوة، وبدون كلمة...

«كيكو»: مختل كليًّا؟

قلتُ: أجل، أجل صامتًا تمامًا، فقط: طاخ.

«كيكو»: ماذا حدث؟

قلتُ: ماذا حدث؟ هو أطول منِّي بقدم تقريبًا، نظر إليَّ ولكمني في وجهي فقطع شفتيّ، فتلقيتُ توبيخًا من المدرّب ولاحقًا من أمي لتورطي في المشاجرات..

كارثة..

شفاه متورمة وإهانة تامة فقط لأني وقفتُ دفاعًا عن نفسي.

«كيكو»: أتعلم لقد التحقتُ بمخيم كهذا ذات مرة، كنتُ في العاشرة تقريبًا، أو ربما في الثانية عشرة كذلك، وربما أكبر قليلًا حين أتى هؤلاء النّازيون الجدد محاولين سحقنا.

قلتُ: ماذا.. بالغون؟

«كيكو»: أجل، أجل لديهم سيّارات وأشياء من هذا القبيل ودرّاجات بخارية، ظلّوا يقودون لوقت متأخر ذات ليلة عندما عمَّ الظلام، فقام قادة المخيم والأولاد الأكبر سنًّا بمطاردتهم، لكنَّنا كنّا قد تغوَّطنا على أنفسنا خوفًا كما تعلم..

قلتُ: طبعًا..

قال «كيكو:» ظننتهم سيعلقوننا على المشانق يا رجل.

قلتُ: هذا مريع يا رجل، أوقاتٌ مريعة.

قال «كيكو:» نعم، فعلًا، مريعة فعلًا.

قلتُ: فكِّرْ في هؤلاء الناس جميعًا الآن، تُرى ماذا يفعلون حاليًا؟ فكِّرْ في الأمر؛ شباب مثلهم يروّعون الأطفال، بأمانة لا أريد أن أعرف، أتمنّى لو أنهم لم يعودوا موجودين بعد الآن.

قال «كيكو:» بلى، لكنّهم على الأرجح موجودون بالأنحاء، بل من المؤكّد أنهم صاروا سياسيين يتولون زمام الأمور على الأرجح الآن..

جلسنا هادئين برهة، قبل أن يخبرني «كيكو» فجأة وبلا أي مقدمات أن له ابنًا بمكان ما غير أنه ممنوع من رؤيته؛ حيث لم تُرد الأم أن يكون له أي علاقة به، ثم أراني صورة لرضيع صغير قائلًا إنها صورة قديمة للغاية؛ فهو في الخامسة الآن، وواصل: أنا لم أره منذ ثلاث سنوات فليس مسموحًا لي برؤيته، سألته: لِمَ؟ فأخبرني أنه لا يعلم السبب، فلم أقل شيئًا بينما شرع «كيكو» يلف چوينت حشيش مواصلًا: إنها مسألة معقدة.

سألتُ: معقدة؟ فلم يُجِب.

قلتُ محاولًا أن أبدو سعيدًا من أجله: تبًّا، لم أعرف أنك صرت أبًا، ودخنَّا معًا حشيشًا نقيًّا أفغانيًّا أسودَ من التاجر «الزَّامبي» جلبناه من «مترو»، سألته: أهو الرجل الذي أحضرنا منه حشيشة «نيويورك ديزل؟» فأجاب: هو عينه، وقد «مزجتني» جدًّا فعلًا فيما قام «كيكو» بتشغيل أغنيات «دي چي سكروو» الذي لم

أستمع إليه قبلًا..

قال «كيكو»: «ستيل دي أر إيه» من ألبوم «فري ستايل كينجز» يا أخي..

لقد دُختُ فالحشيش ثقيل..

لم يستطع أحدنا الكلام أصلًا، بينما أنظر لـ«كيكو» بعينين محمرَّتين معروقتين شبه مغلقتين كأنهما مشققتان بسبب الحشيش.. وعضلات وجهي مرتخية.

قلتُ مصوِّبًا إصبعي إلى جبهتي كأنه سلاح: بوف، تبًّا، أنا «بادحرج» على الأرض يا رجل..

فجأة تناول «كيكو» جهاز التحكم كاتمًا صوت الموسيقى، ناظرًا إليَّ بتعبير متألم فعلًا قبل أن يقول: أنتَ تعرف أن أمي كانت تبيع جانچا أي المخدرات في «قرطبة» لمَّا كنتُ صغيرًا.

لم أُجب، فقد كان الأمر كله غريبًا جدًّا، لم نعتد قطّ على قول «جانچا»، بل إن هذا ما يقوله شباب «الرّاستا»[2] حاولتُ أن أفكر لكن كل شيء كان مشوشًا، ماذا يقصد؟ لم أعرف ماذا أقول، فلساني قد علق مباشرة في سقف حلقي، قلتُ وحسب شاعرًا أني أتلوَّى تمامًا كالموسيقى: هل هذا صحيح؟ مع ذلك تعبر الموجات

2- شباب «الرّاستا»: الشباب السود الچاميكي مثل بوب مارلي بالضفائر الطويلة والقبعات الصوفية وتدخين الحشيش الهندي(جانچا).

خلال جسدي موجِّهة لحمي إلى أسفل تجاه الأرض، إلى أسفل نحو البساط الأزرق الدَّاكن الذي أحكّ أصابع قدمي فيه حيث تتراص فتات رقائق التَّبغ البنِّي وأعمدة الرَّماد الصغيرة التي أسقطتُها، حلقي جاف غير أني نجحتُ في تكوين قدر ضئيل من اللعاب الذي بصقتُه على طرف سبابتي قبل أن أنحني لألمس -بحرص على قدر استطاعتي- ذلك الرماد الذي التصق به لأرفعه من على الأرض، ثم مسحتُ أصبعي في مطفأة السجائر، ونفضتُها في بنطالي، وعندما أعدتُ النظر إلى البساط ثانية وجدتُه على هيئته؛ أزرق داكنًا، برقائق التَّبغ نفسها، وكتل الرَّماد، واللبخات الرَّمادية الأسطوانية؛ ألم أُزلها لتوي؟ لقد سُحِبتُ إلى أسفل مجددًا بينما يدي تواصل حك إصبعي في بنطالي..

شدَّ «كيكو» نفَسًا عميقًا واحولَّت عيناه قائلًا: أُقسم..

قلتُ: ثقيل، وإذ أنظر إليه أراه قد علق في مكان ما، ما زال محوَّلَ العينين وقد تقوَّس حاجباه لأعلى بشدَّة؛ قوسان وخطّان وفم يكرر قول الشيء نفسه ثانية على نحو ميكانيكي ما، كما لو أنه يتدرب على سطور دوره: ماما كانت تبيع جانچا في قرطبة عندما كنت صغيرًا، بينما ترددتِ الكلمات في رأسي؛ ماما.. جانچا.. قرطبة، حينئذ ضحكتُ قائلًا: بحق اللعنة يا «كيكو» أنا لا أعرف أين تقع «قرطبة»، ردَّ ضاحكًا أيضًا: في «الأندلس» أيّها العاهر، ورفع صوت الموسيقى فتدفق صوت جيتار الجهير ثانية بينما نستمع منتشين جدًّا حتى نسينا أنه قد حان وقت لف «چوينت» آخر، ثم

غادرنا للقاء «سووت»، «ديما»، «بيكا»، «سانّا» والباقين؛ «أدي» و«أولجا» و«پوني بوي» و«لايوس».

كانت هذه هي آخر ليلة، ولم نقل قطّ وداعًا.

«سووت».. هكذا فكَّرتُ، «سووت».. لعن الله «سووت».

أشار العازف إلى مبنًى سكني أقل ارتفاعًا وقال شيئًا، نظرتُ إلى أعلى فوجدتُ شخصين يتحركان حول السَّطح، على ارتفاع عشرة أو اثني عشر طابقًا على الأقل، لكن مرتْ عدَّة ثوانٍ قبل أن أدرك -بعيدًا عن النظرة المقتحمة- أن ما يتحدث عنه لا علاقة له بالشخصين، غير أن الملحنة قالت إن «لانجيل» فعلتْ كثيرًا من الأشياء المثيرة للاهتمام أيضًا وإن تلك الأسطوانات التي سجَّلاها معًا جيدة حقًّا.

كما تعلم فإنها أحيانًا ما تجعلني أفكّر في «كوليت ماجني» فعلًا، هل سمعتَ أداءها لـ«أرتود» حيث تصرخ فتصدر شحنة من الضوضاء والعواء وترغي وتزبد؟ رائعة كليًّا فعلًا، ليس لأن «لانجيل» تفعل هذا كله، لكن لأن هناك نغمة؛ كيف لي أن أقولها؟ نغمة مزاج لو أنك تفهم ما أعنيه.

المُلحِّنة تنظر إليّ، وبالحديث عن المزاج كيف يتماشى هذا مع الرُّبع تون؟ فلمّا لم أُجب لثوانٍ أضافتْ: المقصود تورية.

سقط «سووت» ونزلتُ بخفَّة.

***

الطريقة التي تحركتْ بها زهرة نبات الشمع.. تلك الحركات الصغيرة.. تلك الارتجافة.. هذا الاهتزاز الرَّقيق كرجعِ الأوتار المتحركة، جنبًا إلى جنب مع النغمة خفيضة التردد.. تلك الدمدمة، هذا كله دار بخَلدي إذ رأيتُ البرج المشيَّد حديثًا والأشخاص فوق سطحه، مع قضبان السكك الحديدية وباحتها في الخلفية، هذا كله بينما أحاول قول شيء لعازف الجيتار والمُلحِّنة حول «سيلسي» وعملي المتعلق بالرُّبع تون.

سرنا إلى حيث المحطة الرئيسية لنستقل القطار إلى «كوپنهاجن» إلى «فور فرو شيك» وحفل «موسّمان» الموسيقي، وقد دفعتُ درَّاجتي بكلتا يديّ الآن، وعندما عبرنا الطريق نظرتُ حولي وفكَّرتُ لثانية أني لا أستطيع توجيه نفسي والتعرف بسهولة إلى موقعنا كما حسبتُ أن الأبنية المحيطة قد شُيّدتْ حديثًا أيضًا، وكذا السور والمقاعد، فسرنا بمحاذاة القناة، بين المياه والطرق، وعلى المدرجات التي مُدَّتْ حديثًا، فشعرتُ أن الدرَّاجة تتحرك على نحو مختلف؛ أخفّ وأكثر سلاسة، وأن أحذيتنا لا تصدر ضوضاء أو لا تصدر صوتًا على الإطلاق، بينما تساءل عازف الجيتار إن كان لديه آلة خاصة لذلك، فقلتُ: أجل، وإن كنتُ لا أعرف ما إذا كانت خاصة من عدمه، هي آلة تدعى «أونديولا» وهي ضرب من نسخة إيطالية لآلة «كلاڤيولين» على ما أعتقد وتعتبر جذرًا لوجود آلة الأورج.

قالت الملحنة أمرًا عن إمكانية الرُّبع تون، فيما واصل العازف الحديث عن «تولجاهان شوغلو» وعن آلاته الموسيقية المُعدَّة خصوصًا ذات الدّساتين[3] القابلة للتحريك، حيث استمعتُ جزئيًّا كما لو كنتُ نصف ناعس أو شارد الذّهن، تائهًا في

الفكر كما يُقال، ناظرًا إلى رسم الجرافيتي مفكِّرًا مجدّدًا في «سووت» بالطبع، فهو مشرّدٌ ووجهه مضغوط على الأرض.

يتحدث العازف والمُلحِّنة بسرعة، بسرعة حقًّا حتى أني لا أستطيع متابعتهما، فبالكاد أجد وقتًا لفهم الكلمات التي يسبق مغزاها كتلة الحوار بينهما:

تقول المُلحِّنة إن أناسًا كُثرًا قد اختبروا تلحين الرُّبع تون منهم طُلّاب «پولين أوليڤيروس» وهي نفسها فعلت ذلك من قبل، واستدارتْ إليَّ مواصلةً: لقد استمعتْ إلى «سيلسي» إلى حد ما كبير وأجزم بذلك.

يا أخي، لا أستطيع أن أفعل هذا، لا أستطيع قبول المزيد من ذلك..

قاع النهر.. تراكيب كالضفاف الطينية.. السدود.. الغدران.. والقنوات في الدلتا..

وفكّرتُ ثانية؛ نزلتُ بخفة، و«سووت» الذي سمعتُه يقول:

---

3 - الدّساتين: السنّادات الخشبية للأوتار.

بستان الكرز، هكذا وحسب..

نزلتُ بخفة..

ذلك المكان لو أنه مكان..

هو مكان.. هو حركة.. هو حافلة على طرق دائرية..

هو حافلة تتحرك إلى الأمام وحول.. تتأرجح وأنا ألُفُّ جسدي.. أتشبثُ بالمقبض..

الحافلة ترتج.. تهتز..

السائق يعجّل السرعة.. أجسادنا تريد أن تسقط.. للخارج.. للخلف.. وأنا أتشبث بالمقبض.. وأتطلع إلى السقف..

و«ألڤين لوسير»، أهذه المقطوعة للتشيللو والمزهريات؟ هل عزفتها؟ أعني أنها أمر مختلف تمامًا.. فعلًا، لكنها تبدو الشيء نفسه إن لم أكن مخطئًا؟

فكرتُ في «سووت» وفي رسَّام آخر توفِّي مؤخرًا حيث صدمه قطار ركاب؛ فلم يكن من معارفي أو شيء من هذا القبيل، بل قرأتُ عن الأمر كله ورأيتُه يحدث أمامي حين رأيتُ «سووت» مرات ومرات في مخيّلتي حتى على الرغم من عدم حدوث ذلك له على الإطلاق، وحتى على الرغم من معرفتي أنه يعتني بنفسه وأنه حذرٌ، أنا حذرٌ هكذا كان يقول دوما ويردد أنا حذرٌ، غير أنه لا يمكنكَ أبدًا أن تكون حذرًا بالقدر الكافي، ففي هذا الصباح في الساعة الرابعة

توفّي ذلك الرّجل مخلفًا وراءه ملصقًا أخيرًا، لمسة أخيرة ذات لون، كلَّا، قلتُ كلَّا، لكنّي سمعتُ «تشارلز كورتيز» يعزفها، إنها لطيفة أجل، ونظرتُ إلى العجلة الخلفية بالدرَّاجة ملتفتًا.. المتحدث الذي يظهر ويختفي، يظهر ويختفي مع الحركة ساكنًا للغاية ومحبَّبًا كما قلتُ، مؤكدٌ أن هناك ترابطًا حسبما أظن، لكن الاختلافات على الأرجح أكبر على الأقل إن كنتَ تعزف المقطوعات..

ثم شرعتُ أفكّر في نمط التجعيد المطبوع على الكُم بالأبيض والأسود وفي عمل «سيلسي» ذي النِّسب الذهبية؛ أي اختلافات كانت هناك؟ حسابية، هندسية، هارمونية، أليس كل شيء خاضعًا لعلم الرياضيات أو على الأقل للأنماط والتكرار والتعدد؟

لكن «سووت» -هكذا فكرتُ- «سووت» مثلما ناديه باسم شهرته..

فكرتُ في بيته هذا الذي كان بتلك الأرجاء منذ نحو عشرين عامًا حين جلستُ بالحافلة والشمس مشرقة، فيما رأيتُ أثر بقع الدماء على الأحذية وعُقَلِ الأصابع المتورمة وكذلك الغيوم والسماء -تلك البيضاء والزرقاء- كشيء بنيٍّ اخضرَّ واصفرَّ بالعشب في وسط تلك الطرق الدائرية التي كنا نمر بها، وبينما مالتِ الحافلة جُررتُ إلى الجانبين، وقضيتُ وقتي بالتّخوم الجنوبية للمدينة..

ليس بعيدًا.. ليس بعيدًا على الإطلاق من حيث زرع الناس -وربما ما زالوا يزرعون- النعناع والثوم والشَّبت والمقدونس

والفجل والشمندر حلو الجذور في تلك الحياض الصغيرة، وعلى الأرجح ليس ببعيدٍ عن بستان الكرز المسوَّر ذلك الذي لم أره في حياتي قطّ..

إن بستان الكرز قد بيع! هكذا قال «سووت» مثلما نناديه باسم شهرته.. بالرغم من أن اسمه ربما كان غير ذلك، فلطالما أحب أن يقول هاتين الكلمتين: بستان الكرز إذ أتساءل كم يتذكرهما، كم ردّد هاتين الكلمتين حتى النهاية!

لو أنه جلس بمكان ما، كمدمن متشرد وغد لعين نبذه الجميع خاصةً مَن أحبّوه، لو أنه جلس مكرِّرًا الكلمتين على نفسه أو على آخرين، لو أن أي شخص استمع إلى شبح كهذا..

بستان الكرز..

لا أعلم لِمَ؟ غير أني أظنه الوَقع وحسب..

إنه استمتع بقولها.. استمتع بقول بستان الكرز وحسب..

تلذّذ بقول كيرشجارتن

تلذّذ بقول أوركارد، شيري كورسبارسترادجاردن.. وبما منحه ذلك من شيء كوقع: ڤيذنوڤي صاد، أو ليڤادا دي ڤيچيني، شيريزينسكارت، أو ڤيچيني باتشيتشي..

لا أدري، لكن ثمّة أمر بشأن اللغات المختلفة، والأصوات المختلفة، والألفاظ المنغَّمة المنطوقة..

لا أدري، لعله عرف سطرًا أو شيئًا كهذا من المدرسة، لا أدري لِمَ عرف تلك الكلمات..؟

قال: لقد بيع بستان الكرز! فسألت: لِمَن؟ مَن؟ لي! أنا! فقال: اشتريتُه، وقال: مهلًا سيداتي وسادتي إذا سمحتم، إن رأسي مشوش ولا أستطيع التحدّث بشكل صحيح..

ليس بعيدًا.. ليس ببعيدٍ على الإطلاق من جسور طريق السيارات والتّين والسّفرجل ونوافذ المطبخ والجرجير وممرات الغابة؛ حيث بُسُط الدّيبال الكثيفة ما زالت تغطي الأرض..

لستُ أدري لكن يحدث أن تتمايل الحافلة في سيرها بالطرق الدائرية فأتشبث بالمقبض الرمادي، وألف جسدي وأنظر إلى إطار النافذة المخدوش قليلًا.. إلى أعلى حيث الغيوم، البياض أجل، فهي حركة دورانية، غير أنها أكثر من هذا؛ حركة أخرى، قوة طرد مركزية، فنقود في دوائر وربما نقذف للخارج..

أنا في طريقي الذي يدور للخارج.. بعيدًا نحو الخارج وبنفس الهيئة أنا في طريقي إلى الخارج، بعيدًا للخارج.. بعيدًا عن أضواء الشّريط الوامض بالمحطة..

بعيدًا عن كل ما فعلتُ، وبعيدًا عن «ديما» و«هِكس» والهجّامين الصِّغار وهذا كله، إني لأُجرّ إلى الخارج، إلى الجنوب من المدينة حيث عِشتُ بالتّخوم الجنوبية حيث تلتقي المدينة بالحقول، حيث كل شيء يكبُر على نحو ما، أو لعله يصغُر.. أعني كأنكَ تبتعد

بعدسة الزّوم؛ لذا كل شيء يبدو أكبر من حيث أنه يصغُر، هل تفهمني يا «سووت»؟

هكذا، هكذا وحسب، مثل أن تبتعد بعدسة الزّوم فيأخذ كل شيء في الصِّغَر والكِبَر، والكِبَر والصِّغَر، هل تعي ذلك يا «سووت»؟

لقد كنتَ فخورًا بهذا -أو كيف أقولُها؟- لقد راقَكَ في كل الأحوال أن تؤكّد الأصل والمصدر بالرَّغم من حقيقة أن الفخر المعتاد بالموطن لهو أمر مستحيل بالنسبة لنا، دعكَ من الفخر القومي حال تعيّن اهتمامنا؛ فلم يعش أيُّنا ولا والدانا في المكان نفسه لأكثر من سنة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع سنوات على أقصى تقدير، فطالما رحلنا عن كل مكان دومًا، ودومًا كنَّا الوافدين الجدد بمكان ما، ثم ما إن نكفّ عن كوننا الوافدين الجدد، وحين لا نَعُود غرباء بمكان ما أو مجتمع ما، لا ننفكّ نغادر هذا المجتمع وهذا المكان، وهذا الموقع..

والآن تتأرجح الحافلة فيما أُدفَع للخارج وفي دوائر، وفي دوائر وإلى الخارج كما تعرف، وإني أفكّر في «سووت» حيث عادة ما أبدأ في الحديث مع نفسي رافعًا صوتي.. أقف إلى الجوار من نفسي مبتدئًا الحديث، أو أقف أمام نفسي وأبدأ الحوار كما لو أنني «سووت».. كما لو أنني شخص آخر وأشعر بالخجل، غير أني أخلع رداء الخجل محاولًا تجاهل النرجسية..

أبدأ الحديث: أنا «سووت» أروح للأمام والخلف أعضّ على

نواجذي..

أنا «سووت» أمضغ وأتحدث وأنظر مباشرةً في عينيك، أعضّ على نواجذي وأبصق وأفتح فمي فأقول شيئًا..

أتحرّك باستمرار، شاردًا، أتحدث عن أي شيء في العموم؛ عن حفر الرَّمل وعن السَّكاكين، وعن الملابس الوَسِخة البائسة، أتحدّث عن أي شيء حقًّا أو عن أي شيء تقريبًا على أي حال، عن حُلَيّ الفِضّة المسروقة، وعن الجمباز، وعن الحدائق المتضخمة، وعن كيفية عثوري على بضعة كيلوات من المسحوق الأبيض معبَّئةٍ في أكياسٍ بلاستيكية ومغلقة بشريط لاصق بنيّ، حين كنتُ ألهو بين تلك الأجمة الشجرية التي ندعوها الغابة عند بحيرة «تيجال» خلف برج المياه..

هل تذكر يا «كودي» عندما كنتُ في السّابعة أو الثّامنة وهاتفتْ أمي رجال الشرطة وجاءوا وجمعوا الأكياس؟ لم ينطقوا بأي كلمة لكني أجزم أنها كانت «أمفيتامينات».

طبعًا كان لنا أن نبيعها ونحصل على مال وفير، غير أن أمي لم تكن على دراية بمثل تلك الأمور وقتها، وحتى إن عرفتْ بها فلم يكن لها أن تفعلها، بل من الجيد على الأرجح أنها لم تفعل ذلك، ولو علم شخص ما بالأمر لأصبح أقطاب المافيا حينئذ في أعقابنا..

هذه هي نوعية الأمور التي أقولها لنفسي بصوت عالٍ، فأقول: اسمع يا «كودي،» أتفهمني يا «كودي»؟ هكذا كان الأمر حينئذ

حيث لا يوجد الكثير لأخبرك بشأنه.. بشأن تلك السَّاحات.. النواحي الجنوبية من تلك المدن..

الكثير جدًّا، وتقريبًا الكثير للغاية بشأن تلك المناطق في الجنوب حيث تتأجّجُ حرائق الكراهية..

بشأن كل ذلك الرُّكام الذي نشأنا منه..

الكثير للغاية.. أقول يا «كودي».. «كودي».. «كودي».. إن هذا النوع من الدردشة دومًا ما يجعلني أفكر في الجنائز يا «كودي» كما تعلم، دومًا ما يجعلني أفكر في الموتى، دومًا ما يجعلني أسير معهم.. أسير إلى جانبهم كما لو كنتُ بالفعل واحدًا منهم، كما لو أننا في الطريق بعد إلى واحدة أخرى من تلك الجنائز.. وهي كذلك لا شيء هنالك، كما إنها لا تعني شيئًا بعدها، بل إننا حتى لا نعلم مَن ذلك الذي جرى وضعه تحت الأرض.. مَن بالكفن.. مَن هو يا «كودي؟» لا أعرف، وهو كذلك لا شيء، هذا اللاشيء، مجرد خُطًى قليلة، ساق أمام الأخرى، رئات تتنفس لحالها، أعين ترى، وأذن تسمع.. بالضرورة يحيا هذا الجسد وبالضرورة يتحرك بالفعل إلى جنازة أخرى بعد، غير أنها ليست لي وليست لـ«بوني بوي» وليست لـ«لاليك»، وليست لـ«داري»..

كلَّا، فقد غفا هؤلاء فقط، ولو فتحتَ فمك لسال اللعاب كما يحدث عند خلع سِنٍّ..

جنازة تُشدُّ إلى الأرض، وتُغرَقُ في الأرض..

إنها تفنى وحسب.. هذه الجنائز وهؤلاء النَّاس وهذا البؤس، وأنا مجرورٌ إليه، غير أنها ليست جنازتي الخاصة، ليست لـ«شعبان» أو «شعبـلـن»، ليست لـ«يوڤان» أو «چوني»، ليست لـ«سترينج»، ليست لـ«ڤلورا»، ليست لـ«ووتان»، ليست لـ«أحمد» أو «أرِن»، ليست لـ«نِتويت»، ليست لـ«بيني» أو «دانِش»، كلَّا، بل هم فقط غافون، تقع أسماؤهم وينضب منها فمك..

لكن الأمر ليس جنازاتهم، بل هو بشأن -لا أدري ما هو- فأنا أمضي قدمًا وحسب متطلعًا إلى ما يُشبه السَّماء الوردية المزيَّنة بمزامير صدفيّة أو أيًّا كان، أو النجوم الدَّاكنة أو أيًّا ما كانتْ، وهذا كله على غير إرادتي، تلك ليست نواياي بل هي ضد إرادتي وضد نواياي، فهل تعي ما أقوله يا «كودي؟»

إن رغبتي في إغلاق فمي أقوى، فالأصوات الخارجة من فمي المفتوح لا معنى لها، ومن منظور موضوعي أنوي أن ألتزم الصمت بشأن كل شيء لأنّي أعرف أنه لا معنى له، وصدِّقني إن الدَّافع قوي لإبقاء شَرَكي مغلقًا..

الدّافع لالتزام الصَّمت بشأن الجنائز..

الدَّافع للتوقف عن ترديد أسماء مثل «إريك»، و«رودّ»، و«إلنا»، و«سولماز»، و«مارسِن»، أن أدع هذا كلّه يمضي وأخرَّ صامتًا للأبد..

هذا الدَّافع قويٌّ، غير أنه أشبه بما يلي خلع السن، كما تعلم، فمك مليء به وعليه أن يفرغ، فذا -وأنا أعلم- ذاك لأني كنتُ هناك حين

مزَّقتْ «ليلى» لسانها بكلّ يأس..

ابتلاع الدم بتلك الكميات الهائلة ليس مفيدًا للجسم؛ لأن الجسم والمعدة يعجزان عن التصدي لها، إذ إنها كمية ضخمة من الحديد أو شيء من هذا القبيل..

تبدأ في الإحساس به حين توشك على الغثيان.. تشرع في الشعور بالمرض..

الآن فمي مليء به.. بمذاق الحديد وبالأسماء والأمكنة والأحداث والحركات والذكريات والصّور..

إن لديّ فمًا مليئًا باللسان الذي قطعتْه..

لديّ رأس مليء بالدماء، أراه طوال الوقت، تنتابني بشأنه أحلام اليقظة نهارًا وأحلم به ليلًا، فدماغي مملوء به يا «كودي».

لديّ فم مليء بالدّم..

لديّ فم مليء بالثّرى..

لديّ فم يعجّ بك، لي فم مليء بأذنيك وبفمك..

لدي فم يعجّ بشفاهك المُطبَقة التي تتصلّب حين تضغط على شفتيَّ كما لو تودّ أن تعضني..

لديّ فم مملوء بالرُّغاء، أكزّ على أسناني فتندفع الدماء وآكل ثرى يعجّ بالدُّود الذي يربِط نفسه عُقَدًا في حلقي..

ثرًى وحصًى يخمش سقف حلقي، يغرق فيه فمي ويلتوي في تجهم، يعلَقُ خلال الأسنان التي تمضغ فيه وتستهلكه..

لديّ فم يعجّ بالشُّخوص كهذا المُلصق، تُرَى مَن ذا الذي علَّقَه على الحائط عنده إلى جوار ملصقات المطربين «توباك» و«هندريكس» و«ماري» و«كوباين» وغيرهم..

ليس «ڤيل»، أو أيًّا كان اسمه، ليس هو..

فمي مملوء بالثّرى الآن، لا أقصد «ويلي دي» أو أيًّا كان يُدعى، «الجرينلاندي»، فأمّه كانت جليسة أطفال، ليس هو؛ بل هو «إسكيمو» هكذا كنَّا ندعوه..

زحف الأطفال بالأنحاء يصرخون فوق بساط وَسِخ بإحدى الحجرات..

لم يستطع قول حرف «س» -هكذا أظن- ليس الألباني، ماذا كان اسمه؟ يقول الجميع إنه كوير، لكني لا أدري..

ليس ذلك الشاب «چوني»، لا أعرف من أي دولة كان، مكان ما بأفريقيا، ليس هو، إذن مَن هو؟ هيّا يا «كودي» لعله سويدي ما، كما أنها ليست تلك الفتاة التركية أيضًا كما تعرف فقد خمَّنتُ بعد عدة سنوات لاحقًا أنهم ليسوا أتراكًا بالمرة، بل كانوا أرمن مسيحيين أو أشوريين أو سوريين أو شيئًا كهذا، لا أدري..

لكن تخيلْ كل هذه السنوات فيما يثرثر الجميع بالخزعبلات،

حيث اعتدنا أن نمعن في وصم الأتراك بأنهم مغفّلون وكل ذلك، بينما زعم الجميع أنهم أثرياء وأن أهلهم صارمون ويضربونهم، لستُ أدري، فهم يلتحقون بالجامعة غير أنهم لو عجزوا عن ذلك، ستكون لهم مشاريعهم الخاصة.

بعضهم كان كذلك، الكثير من الإيرانيين -لكن لم يكن أي منهم برفقتنا- فكما تعرف الأكثرية هم يوغسلاف، وشيليون، ومجريون، ورومانيون، وألبان، وپولنديون، ليس فنلنديين أو ربما قليل منهم، وعرب من دول مختلفة، وأتراك، وأفغان، وصوماليون، وقليل من الروس، وحفنة من بضعة سويديين، أجل، أجل، بلى سوف أصمت سريعًا فلستُ أريد الحديث عن هذا أيضًا.

إنما أردتُ القول إني بدأتُ أفكر في هذا الشاب وحسب، لو كان هو فعلًا مَن يظهر على ذلك الملصق كما تعرف، ذلك الجندي المحتضَر الذي يُغدَر من الخلف فيقع مسقطًا سلاحه، التُقطتْ صورته هكذا بالضبط في الهواء بمنتصف السّقطة مع تعليق يقول: لماذا؟

ألا تذكر؟ ألا تذكرنا نضحك؟ استلقينا على قفانا ضحكًا، لمَ لديه هذه الصورة؟ اسمه «دينيز» أجل، وكان في دار الرعاية.

اللعنة يمكنني أن أقولها لك غير أن فمي يغرق داخله ويلتوي بالتجهم، عالق في الأسنان التي تقضمه قطعًا وتلتهمه، غير أن تلك الصورة التي أحملها في فمي -الملصق ذا الخلفية البيضاء

والطباعة باللون الأسود- صورة جندي محتضَر ساقط إثر قذيفة ملقيًا سلاحه مصحوبة بتعليق يقول: لماذا؟

أعرف الآن يا رجل، إنها على لساني وفي فمي.

أعلم أننا استمعنا لـ«بوب مارلي» في منزل «دينيز»، فهذا المنزل في فمي، منزل الأطفال نفسه، منزل الجالية الذي كان هناك حيث لديه هذا الملصق فوق رأسه.

لستُ أدري غير أني أذكر جلوسنا هناك نستمع فيما أراني المقالات التي كتبها أخوه واقتطعها هو محتفظًا بها، وأتذكر رؤيتي لكلمتيْ مكبّ نفايات وبشر؛ لذا فقد صرتُ أجد مقالات الصحف تلك بفمي أيضًا، وصار عليّ أن أواصل مضغها بالحروف والصور، عليّ أن أمضغ هذه الصور اللعينة والأحرف اللعينة، وهذه الكلمات اللعينة ليس لأنها تقول مكبّ نفايات وحسب، بل لأنها تقول ما هو أكثر من ذلك، تقول أكثر من ذلك بكثير، فقد كانت هناك كلمات عديدة كثيرة مكتوبة بالأسود على بياض الخلفية، هذه الكلمات هي مكبّ نفايات وبشر، تلك هي الكلمات التي أجدها في فمي يا رجل، تلك هي الكلمات المريعة اللعينة التي أجدها في فمي اللعين المريع يا «كودي»؛ مكبّ نفايات وبشر..

أوَتعرف أن أبي أخبرني أننا قد جئنا الآن إلى الجنة، بينما نشروا في الصحيفة أنها مكبّ نفايات بشرية، وأنها كانت كارثة حين انتقلنا في 1982 إلى الجنة كما أظن، لكنه كان العام 1985 حين نشروا

عن مكبّ النفايات البشرية، فكتبوا أن ضاحية «هولما» صارت مقاطعة كارثية؛ مكبّ نفايات بشرية كما نشروا، فقد أصبحتْ «هولما» ذلك الجزء من المدينة الذي ينقلون إليه تقريبًا كل مَن لديه مشاكل بمباركة «الخدمة الاجتماعية»، وهذا ليس حكمًا قاسيًا لصحيفة «إيڤننج پوست» بشأن كومة خرسانية ما، كلا، بل كتبوا أن هذا هو ما يظنه السكان الذين يعيشون هناك بشأن حيّهم، ثم كتبوا أن صحيفة «إيڤننج پوست» قضتْ أسبوعًا تتجول في أنحاء «هولما» حيث التقينا بالمدمنين والوافدين والشباب الذين يهوون ضرب الناس وكتبوا كذلك أنهم قد التقوا بالمثاليين المحاصرين الذين أرادوا التغيير في «هولما»؛ «المثاليون الذين يأملون أن الوقت ليس متأخرًا جدًّا على ذلك»، كما نشروا، فيما كنا قد بقينا هناك لوهلة قصيرة غير أن الوقت ربما كان متأخرًا كثيرًا بالفعل، بينما آخرون مثل «رودّ» و«إلنا» و«سولماز» و«مارسِن» وأرتال لعينة من الآخرين لم يكونوا قد جاءوا بعد حتى، مع ذلك كان الوقت قد تأخر بالفعل كثيرًا، بل لعله تأخر كثيرًا بالفعل بالرغم من حقيقة أن بعضهم حتى ربما لم يكن قد وُلد بعد كما ترى..

جاءت حينها العناوين الرئيسية على شاكلة حافظوا على السّويد سويدية، ولم يعد هذا وطننا وطعنات في ظهورنا وهوس إشعال الحرائق، وحرائق العشب، كان ذلك ضربًا خاصًّا من الشِّعر، أغنية رتيبة وصاخبة عن طفولتنا، منقوعة في روح العمل.

قصيدة عن حياتنا في العواصم، بل ومن الطراز الجريء، ذات

كلمات على شاكلة عالميْن، وسبعة من كل عشرة وافدين، ومجبرون على الاستيعاب، وحقائق مروِّعة، وإلى أولئك الذين يستطيعون: اهربوا.

إن تلك الصورة التي أحملها في فمي هي صورة لشخوص خطِرة قاتمة حيث التُقطتْ صور سلويت أو صور ظلال بعض المراهقين أمام متجر على النَّاصية..

تلك الصورة؛ صورة السّلويت في الظّل التي أظنني لم أعرف عنها سوى أقل القليل أو لم أعرف عنها شيئًا في حينها حيث لم أكن أحد هؤلاء الفتية الذين تموضعوا أمام عدسة المصوِّر، لم أكن واحدًا من هؤلاء الفتية الذين وقفوا يستعرضون ركلات التايكوندو والمِدَى أو المطاوي أمام مراسل «إيڤننج پوست»، ذلك المراسل الذي يتفجَّر بالشّعر والشِّعر الغنائي والبلاغة والحبر الأسود وروح العمل حتى إن الشِّعر راح ينساب بثقة من فيه كالدم متحرِّرًا من كل عنف..

الدم الذي ينبع من قلب طيب، أجل، ذاك الدم كسِنٍّ قُلعتْ لتوّها غير أنها في فمه، فسال على جهاز نوتپاد الخاص به، ثم سال في المطابع حيث انتشر بين الورق الذي قُطع إلى الشكل المطلوب وجرى تدبيسه بعضه إلى بعض، ثم أُرسل للعالم مجدَّدًا حيث امتصته عقول الناس من خلال فتحات أعينهم وعبر بؤبؤها، كما لو كانوا براغيث؛ براغيث منازل عادية، براغيث بشرية عادية، وكما لو أن قدرتهم على القراءة هي المص، فيما الصحيفة - الورق المطبوعة عليه ذاته - هي الجلد الذي ألصقوا ذواتهم عليه بخطاطيف

صغيرة لكنها قوية على نحو لا يُصدَّق، بينما المحتوى والمعنى والمغزى الفعلي وراءه هو ذلك الشِّعر الدموي الأسود المُنسال من فم المراسل، وبدوره فالدم -من خلال ذلك السلوك الطفيلي، هذا السلوك الطفيلي الجسدي الظاهري- قد شقَّ طريقه خارجًا وإلى الداخل من أجسادهم، خارجًا نحو أطرافهم بفجاجة نفس أسلوب ونظام طفل يطوِّر قدرته على المشي ومهاراته الحركية الكُليّة ومهاراته الحركية الدَّقيقة؛ أي في عينيه أولًا عبر المص، ثم خارجًا في الوجه، ثم لأسفل نحو العنق ثم الذراعين، فلأسفل نحو الجذع، وأخيرًا لأسفل نحو السَّاقين ومنها خارجًا إلى القدمين مباشرة إلى أطراف الأصابع كما يقولون: بامتداد كل الطريق كلّه إلى الخارج وبامتداد الطريق كلّه إلى الأسفل، أو من قمّة الرَّأس إلى أخمص القدمين كما يقال.

حين تحرك النَّاس حينئذ وعندما راحوا لأعمالهم وحين استيقظوا وتناولوا فطورهم وحين تحمّموا وارتدوا ملابسهم وحين غادروا حدود منازلهم المريحة، حسنًا، ظلّ الظلام دومًا رابضًا هناك كما يقال، ثم عندما ألقوا بأنفسهم إلى العالم لاحقًا أحرارًا ممتلئين بالثّقة والشّجاعة وروح العمل، حسنًا، حينها تسرَّب الشِّعر الدمويّ المظلم إلى الجو كغاز غير مرئي بلا رائحة إلى حد ما حتى عاد إلينا لاحقًا فحين تنشقناه، صرنا نحن أيضًا ممتلئون به..

نحن الذين لم نكن لنوجد هنالك مطلقًا حتى، حتى أنا الذي لم أدرِ شيئًا عن المسألة..

أنا الذي لم أكن أحد أولئك المراهقين، أنا الذي كنتُ أقرب لأخ صغير أو جار أو زميل مدرسة لهؤلاء المراهقين، والشخص الذي يخيفونه إذ أسير وعقلي يعجّ بالأفكار الطفولية والأحلام المرحة والآمال الجامحة، ذلك النوع من الأشياء الذي سأبرِحه ضربًا لاحقًا بقسوة أشبه بتلك التي تدرِّب بها قطًّا على استخدام المرحاض.

من ثَمّ صار السلوك الطفيلي الخارجي سلوكًا طفيليًّا داخليًّا، فالشِّعر الدموي القاتم الذي نشأ في قلب سلوكياتنا، ملأ أجسادنا بالفظاظة نفسها التي تحتل بها دودة شريطية حيِّزًا في الجسد؛ فتعيش وتنمو في الأحشاء وتتعايش في غائطنا وتعلق فينا بالخطاطيف والمصاصات.

تفهمني يا «كودي،» إنه ذلك الشيء الذي أحصل عليه في فمي، فأحمل ديدانًا كهذه فيه؛ ديدانٌ ذات خطاطيف ومصصات كتلك، وأمضغها..

لديّ أحشاء في فمي؛ حيث أحمل أحشائي نفسها في فمي، وأظن أني لهذا السبب لم أستطع قطّ أن أجعل الأمر مفهومًا في رأسي؛ لأن أبي أخبرني -كما تعلم- أننا قد أتينا إلى الجنة، وعرفتُ أنها الأرض الأغنى في العالم، غير أنهم نشروا في الصحيفة أنها مكبّ نفايات بشرية ونكبة.

لستُ أدري إذ كان عام 1982 حين انتقلنا إليها حسبما أظن،

غير أنه كان العام 1985 حين كتبوا مكبّ نفايات بشرية، وعليه فأعتقد أن الأمر حتمًا جلل، إذ ما عساك أن تصنع بمكبّ نفايات؟ حسنًا، أنتَ لا تصنع شيئًا، بل تصنع فوضى، هذا كل ما في الأمر..

ثم تضحك على الكبار الذين ينهارون أمامك، وتبكي من الإحباط والشفقة المضللة، ماذا عساي أن أقول؟ العدم والفوضى، وكما قلتُ لم يكن هناك المزيد مما يمكن فعله، لا شيء، فاللاشيء كان شيئًا ما..

أما الأمر الذي كان ذا شأن فعلًا فهو الفوضى، رائحتها كالشَّراب، كبول القطط، كالعرق وكمطفآت السجائر الممتلئة، الأمر الذي كان ذا شأن فعلًا هو أنها تؤلم، تلك الضحكة وحقيقة إدراكك أنها ذاتها ضربٌ من السلاح، فتصير قادرًا على أن تضحك على كل شيء وأن تقول «ليكن ما يكون»، يا زميل وكأني ألقي بالًا! فلا شيء ستفعله بي أسوأ مما ينتظرني كل ليلة عند عودتي لداري.

هي الفوضى وحسب يا زميل، وهذا كل شيء..

أمرٌ جلل، وأنا الآن أفكر به حيث أندهش على الأغلب من عدم ارتكابنا أمورًا أسوأ وحسب، أو أننا لم نضرم النيران في أشياء أكثر، حيث كنا وسطيين كثيرًا؛ نضرم النيران فقط في العشب وفي دار الحضانة وفي تلك السّقيفة الصّغيرة المجاورة للمرآب، وكذا في عدد قليل من السيارات وثمّة دراجة نارية وسقيفة فوق ساحة انتظار السيارات، لكن ليس أبدًا في مدرستنا أو في ديارنا على الرغم

من أننا قد حاولنا بضع مرات، أو أنني لم أبرح «دانٍّ» ضربًا حتى الموت حين قال إننا منقبو قمامة؛ لأنه حتى إن أدرك الجميع أنه مكبّ نفايات بشرية -ذلك المكان أعني- فإنك لم تكن لترغب أن تبدو كمتشرد.

لذا أجل، أوسعت «دانٍّ» ضربًا حين قال إننا منقبو قمامة، وأظننا كنا كذلك فعلًا، كما تعرف للأمانة، لكن هذا لا يهم أو أقصد أنه لم يكن يهم وقتئذ؛ إذ لمْ يتوجَّب أن يقول ذلك، لم يكن ذلك بالشيء الذي يقوله، كما تعلم، إلا أنه أمر صحيح.

يحدث ذلك من وقت لآخر، فتصادف أن أمنا نادتنا قائلة إنها وجدتْ حاوية جديدة، فنزلنا إلى الباحة الخلفية وحللنا دراجاتنا وقدنا نحو صندوق قمامة معدنيّ ممتلئ أو شيء من هذا القبيل بمكان ما في «بلڤوو» أو «كوللادال» أو «جروندال» أو «أرتولمان»؛ حيث يلقي الناس أشياء ليست متوقفة كليًّا، ولم تتداعَ نهائيًّا، ليس تمامًا على أي حال؛ أشياء يمكن مواصلة استعمالها، أشياء يمكن إصلاحها وإعادة تدويرها وتوظيفها واستخدامها بكيفية أو بأخرى، فيما يقفز أحدنا أو اثنان منا أو ثلاثتنا جميعًا -على حسب ما إذا يتعيَّن علينا أن نترك عنصرًا للمراقبة من عدمه- نقفز إلى المستودع فنفرز الخردة والنفايات ونبحث عن الأشياء التي يمكن الاستفادة منها. لكننا خجلنا من هذا الأمر كله المتعلق بمستودع المخلفات البشرية وهذه الخزعبلات بمعدل كل ثانية، وأظنك تفهم ما أعنيه..

أحيانا لا يلفت انتباهنا شيئًا يذكر.. وأحيانًا يحدث العكس، فإن صادف أن وجدنا ما يمكن أن نأخذه معنا للمنزل لنستفيد منه، تعيَّن علينا الشعور بالعار في كل مرة ننظر فيها إلى ذلك الشيء، إذ في كل مرة ندخل فيها الغرفة فنرى مصباحًا أو ستارة أو كرسيًّا أو سجادة كنا ندرك أن تلك الأشياء ومعها المحمصة أو الصينية أو دورق العصير، كلها إنما أتتْ من المكبّ حيث غطسنا لالتقاطها، وأن ذلك يعني حتمًا أننا منقبو قمامة للأبد لا ريب كتلك الأشياء التي لمتُها، والحاجيات التي انتشلتُها مثل ذلك المذياع الذي أخذتُه عند اقتحامنا لدار الحضانة حين سقط «كارلوس» في المنوَر وقفزتُ خلفه فلوى قدمه وجرحتُ يدي منتشلًا المذياع الذي سرقتُه وكذبتُ على أمي قائلًا لها إني وجدته في غرف قمامة بعض العقارات أو بالمكبّ حيث ألقاه أحدهم، إذ يبدو أنهم قد اشتروا غيره جديدًا، إلَّا أن بعض الأحرف المحروقة في البلاستيك الأسود تقول إن المذياع يملكه مجلس البلدية، وإنه يخص المدينة والولاية، غير أني محوتُ الأحرف حرقًا بولاعة مذيبًا البلاستيك إلى بلاستيك لزج تمامًا، ثم خففتُ أحرف عبارة «خاص بالدولة» هذه، ثم قلتُ إني وجدتُه وإن أحدهم قد رماه؛ لأنه على الأرجح قد وضعه على الموقد أو ما شابه، ولستُ أدري ما إذا صدَّقتْني أمي لكن ربما كان الأمر صحيحًا، ثم صار لدينا هذا المذياع لاحقًا في المطبخ لسنوات فوق إفريز النافذة، وقد استخدمتُه؛ هذا المذياع الأسود اللطيف ذو التفاصيل الملونة بالأحمر والأحرف المحترقة التي لم تعد مرئية ولا ملائمة.

وقد استعملتُه كثيراً، فأخذتُه في المساء إلى حجرتي واستمعتُ إلى الإذاعة وإلى برامج الذين جاءوا من عالم آخر؛ حيث أتوا من الجانب الآخر من البحر، الجانب الآخر من المحيط العملاق الذي علمتُ أن بإمكان بعض الأطفال عبوره في الزوارق الصغيرة والمراكب الخشبية الصغيرة المصنوعة من كراسي الاسترخاء والمناضد، والأشرعة المصنوعة من الشراشف والمناشف، وقد أغمضتُ عينيَّ وأنصتُّ، أغمضتُ عينيَّ ورأيتُ أمامي عوالمَ أخرى وحيواتٍ أخرى؛ حيوات الآخرين، حيوات أفضل فيما أستمع إلى برامج ذات أسماء كـ«إلدورادو» و«إنفرنو» و«سول كورنر» و«سلامر»، وقد استمعتُ وفكَّرتُ واستمعتُ وسرعانَ ما تعلَّمتُ التعرف إلى الأصوات التي تعجبني، الأصوات التي بدتْ مختلفة عن تلك التي اعتدتُها، ولكن كذلك الكلمات والأصوات المرتبطة -في نواحٍ مختلفة- بالحياة التي أدركتُها؛ الألم والغضب والعار والكراهية والجنون، على سبيل المثال استطعتُ أن أستمع إلى جودفليش أند سلاير في بيت «إليانورا» لأول مرة، وأيضًا عند تلك النقطة -كما استمعتُ- كأن حياتي قد تحسَّنتْ، كما لو أنها قد صارت أفضل كما ينبغي لها فعلًا وبشكل ملحوظ فقط؛ لأن أحدهم وقف يصرخ هناك في الأستوديو، وي كأن حياتي قد صارت حياة أخرى فيما أستلقي هناك وأذني مصغية للسمّاعات الصغيرة المملوكة للدولة؛ حيث سجّلتُ الأغاني أو البرامج بأكملها كي أستطيع أن أسمعها مرة تلو أخرى، غير أني طوال الوقت أعلم أنها مسروقة وأنني سارق لهذا القرف، والأمر نفسه بالنسبة للمصابيح والشمعدانات

وإطارات الصور، فكل مرة نستعملها نشعر بالخزي.

وفيما نقف هناك في المكب ناظرين حولنا، رأينا أن ثمة حقيبة ملابس قد تمزقتْ وانفتحتْ، فنظرنا نرى ما إذا كانت هذه الملابس تصلح للارتداء وسليمة وتناسبنا، وأنها ليست نتنة أو متسخة بالبول أو الفضلات أو القيء أو العفن، وقد تضاعف الخوف من أن يتم اكتشافنا، فمن ناحية هناك السكان وعمال الصيانة، رجال الشرطة وتلك الخزعبلات، ومن ناحية أخرى هناك معارفنا فضلًا عن خشيتنا من أن نوسم كمنقبي قمامة وهو ما كنَّا عليه.

الرعب من أن نوسم كمُعدَمين وهو ما كنَّا عليه؛ مجرّد حالات اجتماعية، أجل، كأسرة منقبي المكبّ الفقيرة اللعينة التي كنَّاها حقًّا، هذا هو ما كنَّا عليه بدقَّة؛ حالات اجتماعية فقيرة تجوب المكبّات بحثًا عن أشياء مقبولة لنضعها في منازلنا، وأشياء مقبولة نرتديها على أجسامنا، حيث واصلنا كمنقبي مكبّ حتى بدأتْ دوريات رجال الأمن تجوب هذه الخزعبلات وشَرع النَّاس الذين يلقون الأشياء التي تنفعنا يُحكِمون غلق قمامتهم؛ لأنها تخصُّهم، ولأنهم قد تعلموا فن فصل ملكِكَ عن ملكي كما يقولها الخنازير، بل وإحكامها بأقفال صلبة جيّدة مصنوعة من الصُّلب المقوَّى مع تلك النتوء ما يعني أنها عسيرة الفتح، حتى إنكَ تعجز عن الاختيار من بين تلك المقتنيات الصغيرة التي أحملها معي؛ مقتنيات صنعتُها من تلك الأشياء الأشبه بمفاتيح تُفتح بها عُلب السردين، وعُلب اللحم المعلَّب أو أيًّا ما يدعونها.. ذكِّرْني.. طعام.. مفاتيح..

مقتنيات.. خنازير.. ضباط.. علب.. ألومنيوم.. خزعبلات يا زميل، كل شيء يدور..

أعني، انتظر قليلًا، فليغفر لي الناس الطيِّبون فإن رأسي يدور، ولا أستطيع التحدث بشكل صحيح؛ إذ لديَّ شيء في فمي، لديَّ فم يعجّ بالطعام، والدَّم والخنزير، وأنف «دانٍّ» اللَّعين أسفل قبضتي وخناقي، وعيناه.. عيناه الخنزيريتان تحدِّقان وتُبديان أنّه إنّما سحب ما قد قاله؛ وما ردّده بشأننا كمنقبي مكبّات ولقَّاطين، وهو ما كنّاه، غير أني هدَّدتُه على أي حال وأسقطتُه أرضًا وجلستُ فوقه وانهلتُ عليه ببضع لكمات، عاقدًا يديَّ حول عنقه فجحظتْ عيناه كخنزير أو عِجل صغير، أو لُقيْمة لحم شهيّة، وكذا خنزير آخر انتهيتُ منه حين قال عن أبي إنه «خمورجي» وهو كذلك فعلًا، لكنْ شفتاه ما تزال تحمل أثرًا ثخينًا لإبهامي، ومن ثمّ أبقاهما مُطبقتين بشأن ذلك الأمر، وهو أمر لا أبغي تذكّره طوالَ الوقت، تمامًا الخنزير الصغير، ولستُ أريد الحديث بشأنه حتّى، أعني أن الجميع يعرف بشأن كل شيء، فالكُلّ هنا قد سمع فعلًا بالأمر، لستُ أدري يا «كودي».. لستُ أدري لِمَ أُعيد الحديث عن المسألة برمّتها ثانية؟ مرارًا وتكرارًا مجدّدًا، هذه الفوضى مرارًا وتكرارًا، هذه الخزعبلات البائسة، هذه الأسطوانة المشروخة المملة على نحو قاتل، لستُ أدري يا «كودي»، لستُ أدري بحقّ اللّعنة، بل إني أفضّل أن أتجاهله وأن أكون شخصًا آخر ذا فمٍ مختلف ليست به خنازير لعينة، بلا ذلك المذاق، بلا تلك الكلمات، فالأمر بلا معنًى تمامًا ومملّ للغاية ولستُ أعبأ حتى؛ إذ لِمَ عليَّ الاكتراث؟ من يهتم،

تبًّا يا «كودي»، اعذرْني، لا أدري فالأمر على غير إرادتي، صدّقني، هذا هو ما أعرفه أنها ليستْ نواياي بل ضد إرادتي وضد نواياي كما قلتُ.

أجل، إن الرغبة في غلق فمي أكبر وأقوى دائمًا؛ فالأصوات التي تخرج من فمي لا علاقة لها بأي شيء، إذ لا شيء حقيقي، لا شيء أكثر من أحشاء مليئة بالخزعبلات والخنازير الملاعين، وأنا أدرك ذلك وأتوق إلى السلام، وإلى الهرب من وقْع صوتي شخصيًّا، وإلى الخروج من رأسي الخنزيري الملطّخ بالخزعبلات، صدِّقْني يا زميل، فالحاجة ملحّة لإغلاق فمي مرة وحيدة وللأبد، غير أن الوضع كأني أعجز عن هذا، لا أستطيع.

فالأمر يحدث هكذا وحسب، فهو ينفرج كمؤخرة انتُهكتْ تمامًا، ومن ثمّ يتسرَّب هذا الخراء خارجًا، ليمتلئ فمي به كلّه مجدّدًا؛ بالأسماء والأماكن، بالأحداث والمواقف، بالذّكريات والصّور، فلديّ فم يعجّ بالصور والكلمات القبيحة، وأستطيع الشعور به، وبكيفية وقوفي هكذا بفم مفتوح كالأبله، بينما رأسي مملوء بالدّم اللّعين.

يا عيني يا حرام..

إنني حقًّا أستطيع أن أراه طوال الوقت؛ إذ تنتابني بشأنه أحلام اليقظة نهارًا، وتراودني بشأنه الأحلام ليلًا، فلديّ عقل مملوء به يا «كودي»، إن فمي كله يعجّ بالدم، يعجّ بالثّرى، يعجّ بالأسماء.

إن فمي مليء بكَ، فمي مليء بأذنيكَ ومليء بفمكَ، وفمي مليء

بشفتيكَ المطبَقتين الصُّلبتين إذ تضغطان على شفتيّ تقريبًا كقضيب؛ قضيب ذي أسنان.

إن فمي مليء بوجهِكَ حيث أقتاتُ الثَّرى المليء بالدّيدان التي تربط نفسها في عقَد بحلقي.. ثرى وحصى يخدش سقف حلقي وتغرق فيه وجنتاي، فيما يلتوي فمي قضمًا وهضمًا له.

إن فمي يعجّ بالشخوص والحروف والكلمات والصّور التي نظرتُ إليها بتلك الصُّحف قبل أن أستدير محاولًا بيعها، ويعجّ كذلك بتلك المنشورات الإعلانية التي وزّعتُها حينما حاولتُ أن أكون صبيًّا صغيرًا أمينًا، أو قدّيسًا صغيرًا شريفًا بلا حاجة للاكتراث بشأن دم الشّرطي الخنزير والقمامة والثَّرى عندما كنتُ أعمل، عندما اعتقدتُ بدون فهم أن ذاك هو ما آمنتُ به لو أنّني حتّى آمنتُ بأي شيء على الإطلاق، حيث عجزتُ عن التفكير طالما أن كل شيء بدهيّ، بيِّن، مُفترَض، أجل تمامًا؛ مُفترَض، غير أني اعتقدتُ كما تعرف أن هناك مَخرَجًا بسيطًا من كلّ هذه الخزعبلات الذي انتهيتُ إليه، الذي انتهينا جميعًا إليه.. هبطنا إليه.. سقطنا فيه.. أُلقينا فيه.. أُكرهنا.. ضُغطنا وقُذفنا إلى أسفله، بينما رُحتُ -في الثانية عشرة- أتجوّل موزِّعًا الإعلانات التي لا أتذكّر موضوعها، فلم يعد أيُّها موجودًا بعد، لا الشركات ولا المحال ولا الشعارات ولا العبارات الترويجية ولا أيّ من هذه الكلمات أو الصّور، لا شيء على الإطلاق من كل هذه الأمور التي طالعتُها وقرأتُها مرارًا وتكرارًا؛ الأمور التي دأبتْ على مضايقتي كثيرًا، الأمور التي ملأتْني

وشكَّلتْنني.

لا شيء؛ فلا يبقى لا كلمة واحدة ولا صورة واحدة، ولا لون ولا حرف واحد وحيد، هو فقط الشّعور بالضِّيق.. رائحة الصحف والإحساس بملمسها.

فقط عقلي المليء وجسدي المتشكِّل وحسب، العقل نفسه والجسد نفسه الذي راح يبيع الصحف متعرِّقًا مثل مهووس صغير، حيث استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أدركَ أنه كليًّا بلا معنى، وأنه من الأفضل أن تبيع الحشيش أو المشروبات الكحولية منزلية الصّنع للمدمنين؛ لأنك لا تتكسّب إلا ما يقرب العدم كمقابل البضاعة المشروعة، لا شيء لعين، بينما أنا هناك أغدو كالمغفل بتلك الصّحف على ذراعي اليسرى، قارعًا أجراس الأبواب قائلًا: أهلًا وسهلا، أو نهار سعيد، أو مساء الخير؛ هل تودّ شراء عدد اليوم من صحيفة «إيڤننج پوست»؟

صحيفة «إيڤننج پوست» اللعينة نفسها التي استضافتِ الشباب الأكبر سنًّا الذين صاروا الآن أكبر وأكثر انغماسًا حتّى في أمور أكثر سوداوية، هؤلاء لم يكونوا ليدعوا أنفسهم يظهرون في لقاء صحفي مع ملاعين (قالها لوفاتز بالمجرية) من الصَّحيفة، وحتمًا لم يكونوا ليجري تصويرهم من قِبل مصوِّر مغرور (قالها مالاكاس بالفلپينية).

فلو حفظت صور هؤلاء على كاميرا، لكان ذلك على كاميرا مراقبة

تلتقط ظلالهم السلويت بينما يحاولون اقتحام مركز البريد أو ما شابهه؛ ذلك الضرب من المنشآت التي كانت بعدها موجودة في تلك الآونة، قبل أن يتخلوا عن الأمر برمته ويغلقوا هذه الخزعبلات تمامًا، كيلا يصبح أي شيء أقل من ذلك، أي لا شيء أكثر من ذلك.

لكن ها أنا ذا على أي حال متوجهٌ لبيع اللعين، قائلًا: أهلًا، أو نهار سعيد، أو مساء الخير، أو حتى عدد اليوم من صحيفة «إيڤننج پوست»؟ وحسب، وأتذكر أن ثمن النسخة ست كرونات أتحصّل منها على كرونة واحدة حسبما أظن ولستُ أمزح، مجرد كرونة واحدة مقيتة يا رجل، بينما لم أكن أسعى خلف المئات كما يفعل الفتية هذه الأيام أو كما يتفاخرون هذه الأيام، غير أن عملة عشر كرونات الذهبية كانت جديدة، وأحيانًا ما أنال بعضها، فيقول البعض احتفظ بالباقي، كما تعرف.

من ثمَّ أدركتُ مبكّرًا جدًّا أنه من العبث أن أسعى كمتسوِّل لعين وراء كرونة هنا أو هناك، فمن الصعب جدًّا بيع ذلك النَّصب من الخزعبلات الذي يبدو كالبلاغة والشِّعر أيضًا، لكنكَ تعلم كيف يسير الأمر؛ يسرق أحدهم صحيفة ما ذاتَ يوم، حيث اعتادوا على رمي رُزَم منها في القمامة إلى جوار ممرّ إعادة التدوير، بينما يتعيّن عليكَ أن تتصّل وتبلغ عن سرقتها، من ثمَّ يزيلون مديونيتك؛ لذلك أخبرتُهم عن اختفاء ثلاث صحف، بينما قمتُ ببيعها جانيًا مئة بالمئة من أرباحها بالطَّبع، ثم فعلتُها مرارًا وتكرارًا، وطبعًا يعرف الجميع أن اللصوص والمهاجرين وحسب هم من يعيشون هناك،

هكذا جرى تكييف المسألة، من ثم المزيد إلى جيبي، مئة بالمئة تمامًا.

لكن كما تعرف، أدركوا سريعًا جدًّا أن ثمة أمرًا غير صائب، فصُرفتُ من الخدمة بطريقة أو بأخرى.

أتذكّر جلوسي هناك متوتِّرًا بجوار الهاتف، فالهواتف الأولى كانت بأزرار للنغمة أو أيًّا ما تدعوها، بلاستيكية بأسلاك ملتفّة، حيث عليكَ أن تتصل وتضغط ثم تضغط فيصفّر ويصفّر، ولطالما تساءلتُ طوال الوقت عما سيفعلونه لو ضبطوها معي، غير أنه لم يحدث شيء سوى أن تمّ فصلي وحسب، فتعيّن عليّ البدء من الصفر بلا قرش واحد في جيبي.

حينها قمتُ بتوزيع المنشورات الإعلانية؛ حيث عليك الجلوس هناك ليلة تلوَ ليلة لتنظيم الملاحق الإعلانية، فتساعدني أمي وأختي أحيانًا، ثم أصعد وأهبط دَرَج السُّلم كالأحمق بأصابع ممزّقة من جروح حواف الورق ومن صناديق الخطابات اللعينة تلك التي طالما مزَّقتْ أطراف أناملي كلَّما وضعتُ يدي داخلها، ولم أقبض مقابلها أي خزعبلات أيضًا، لكن على الأقل كانت أذناي تتلقى الموسيقى، تلك التي سجّلتُها من الإذاعة بمساعدة ذاكَ المذياع المسروق؛ الرَّاديو الأسود الأثير ذو التفاصيل الحمراء، وقد جعلتْني هذه الموسيقى أظنّ -وكنتُ غبيًّا- أن الأمر جيدٌ تمامًا، وكأنه لم يكن من الأفضل أن أجلس في مكان هادئ أو أن أذهب للمشي في مكان ما مستمعًا لتلك الموسيقى نفسها بدلًا من الرَّكض صعودًا وهبوطًا على ذلك الدَّرج كأحمق لعين، بل إن هذا حتى لم

يكن أسوأ جزء، ولا يدنو من ذلك حتّى، فالأسوأ هو ترتيب الملاحق الإعلانية؛ حيث يوجد منها نحو عشرة منشورات مختلفة ينبغي وضعها جميعًا داخل المنشور الأكبر، وهو يوم الجمعة كما تعرف بينما أنتَ قابع أمام التليفزيون ترتّب الإعلانات كأحمق، متهرِّبًا من المدرسة من أجل هذه الخزعبلات، لكنها على أي حال كانت مجرّد حصص دراسة اللّغة الأم، ولم نكن لنقم فيها بأي شيء في كل الأحوال.

هكذا تعيّن عليّ الجلوس أمام التليفزيون اللَّعين وترتيب الملاحق الإعلانية، أمي تشاهد «أوپرا»، أو أنها تشاهد حلقات «الجريء والجميلة»، أو قد يعرضون «كيو ڤي سي» كما تعلم، على الرَّأس وُضعتْ سمَّاعتي الأذن، ثم ها هي ليلة السَّبت ونحن نحشو الملاحق الإعلانية أمام التليفزيون، أفكّر أني سأنسلّ -أقسم يا أمي- في أي وقت الآن فأنا بحاجة إلى أن أتمشى حتى ركن الوجبات السَّريعة الآن وأن ألتقي «رودّ» وأشرع مباشرةً في التدخين كي أهدّئ نفسي.

حتى تلك النقطة لم أكن حتى قد بدأتُ أفكّر في الشَّباب الأكبر سنًّا بسياراتهم الـ«بي إم دبليو» و«المرسيدس» وصفقاتهم ومهرّبيهم؛ إذ ما زال السَّبت والأحد يتواليان دومًا، وقد حان الوقت للانطلاق لتنفيذ طلبات التوصيل، صعودًا وهبوطًا كالأحمق، وقد امتلكوني تمامًا كمرمطون أو كقضيب رخو ضئيل، أو كالهواء، أتفهم ما أعنيه يا «كودي»؟

إنها تلك الأشياء التي أحوزها بفمي، وبما أني أتحدّث عن

الوظائف، فهناك أمر واحد وحسب عليّ قوله يا «كودي» أتسمعني؟

كان هناك تلك المرة حين كنتُ أصفّ السّيارة فيها هنا بالشَّارع، وقد وجدتُ مكانًا بجوار سيارة طراز «أودي» بيضاء برَّاقة هناك، فشرعتُ في الرجوع خلفًا بخفّة في حركة واحدة، وبمجرد أن فتحتُ الباب لأهمّ بالخروج من السيارة، رأيتُ شيئًا، شيئًا كبيرًا يقود خلفي؛ لذا فقد بقيتُ واقفًا هناك ساحبًا الباب خلفي إلى منتصف المسافة متطلّعًا إلى مقعد الرّكاب في ذلك الميني باص، فرأيتُ رجلًا شاحبًا في العشرينيات من عمره ضاحكًا وفمه يزبد، استغرق الميني باص ثانيتين قبل أن يمر إلى جواري، غير أن صورة الذهول الهذياني لهذا الرجل؛ حيث وجنتاه وذقنه ترغي باللعاب علقتْ برأسي وجعلتْني أغوص في مقعدي، إذ قفزتْ ذكرتان متزامنتان في الوقت ذاته، كانتا ذكرتين من زمنين مختلفين في حياتي، وقد لاحتا معًا، تراصتا بعضهما إلى جوار بعض كمثل انكشاف مزدوج في تلك اللحظة الواحدة نفسها.

في واحدة منهما أقبع في مقعد الركاب بشاحنة صغيرة، يقودها رجل يرأس شركة تُورّد وتبيع الأزهار إلى بائعي الزّهور؛ حيث أعمل في تلك الورشة إلى جانب اثنين من البولنديين وألباني، نفرغ حمولة الورد والزهور الواردة من كينيا مثلًا؛ إذ تأتي معبأة في صناديق ضخمة، فنعيد تعبئتها في حزَم من خمس أو عشر للواحدة، أو في باقات خاصة استعدادًا لإجازة منتصف الصّيف على سبيل المثال، ونضعها في دلاء مملوءة بالماء مع بطاقات ورقية

صغيرة خاصة بتغذية الزهور وما إلى ذلك.

إنه مال سائل في اليد، العمل رتيب وتقريبًا دومًا هناك أوڤرتايم بما أن ربّ العمل مدمن شغل -كما يقولون- ويطالب الجميع بالعمل بالقدر نفسه الذي يعمل به هو شخصيًّا، الاختلاف فقط أننا نظل واقفين طوال اليوم أمام طاولة العمل، ما عدا ثلاثين دقيقة مخصّصة للغداء وفترات راحة قصيرة من هذا الكدح، بينما هو جالس في مكتبه لساعات طويلة متموضع بحيث يرى كل ما نفعله، إذ يختفي على فترات منتظمة لفِعل خزعبلات ما أو غيره.

«ستيج» أو «هِلجِه» أو شيء ما كهذا -لا يمكنني التذكّر- متقلّبون؛ فبعض الأحيان ودودون وكرماء وأحيانًا كثيرو الشَّكوى ومتجّهمون.

عليكَ الاستئذان من أجل استخدام المرحاض؛ لذا فها نحن في أحد الأيام نجلس في هذه الشّاحنة الصّغيرة التي استأجرها «هِلجِستيج» من «هِرتز» مثلًا أو شيء ما، من أجل نقل بعض البضاعة إلى منزل أجداده الذي انتقل إليه أبوه للتّو، وقد طلب منّي -وأنا وافقت طبعًا- شريطة دفع الأجرة نفسها التي أتلقاها في الورشة، ها نحن نجلس في الشّاحنة إذ يبدأ في الثرثرة عن المهاجرين الشباب ذوي السيَّارات الفارهة، إذ يُمكنه أن يؤكّد -باستثناءات قليلة جدًّا- أنهم مجرمون، فيما أنا مذهول وغير واثق إلى أي مدى ما يقوله موجّه إليّ، ليس لأني أملك سيّارة -إذ لم يكن لديّ رخصة حتّى حينها- لكن كما تعرف فلم أكن قد عملتُ لديه إلّا نحو أسبوعين

فقط، ومن ثم أدركتُ بالفعل أنه وغد، حتّى أني في مرّات عِدّة فعلًا أردتُ حقًّا أن أطلب منه أن يغلق فمه وحسب، وهو ما عجزتُ عن فعله بالطّبع إذ أحتاج إلى المال لدفع إيجار شقّة استأجرتُها طوال الصّيف (لا أعرف بعدها أين سأقيم)، ثم مررنا بحادث بسيط؛ اصطدمتْ فيه سيارة بأخرى من الخلف في إشارة حمراء، وإذ بـ«هلجِسيجِّه» يقول: «آه يا صغيري، إنه خطؤكَ أنتَ وحدَك دون سواك، حين تصطدم بأحدهم من الخلف مهما كانتْ تعليلاتكَ الصَّغيرة ناجحة».. أجل، تلكَ كانت إحدى الذّكريات.

لا أعلم لِمَ لاحتْ لي عبارة «تعليلاتكَ الصَّغيرة ناجحة» تلك لتوّها الآن؟

أمَّا الذّكرى الأخرى فهي تتعلّق بي وأنا عائد إلى المنزل من وظيفة غسيل الصّحون بأحد المطاعم تلك، والوقت متأخر فيما لديّ ذلكَ الطَّعم بفمي، وإذ بي أجد «إيريك» -شريكي في السَّكن- مستلقيًا على الأريكة أمام التّلفاز غائبًا عن الوعي تمامًا بسبب تعاطي «الكيتامين»، بينما بدأ فمه يرغي والزَّبد يسيل من زوايا فمه نحو الأسفل إلى صدره النَّحيل الأمرد إلى حيث يتجمّع في بركة صغيرة، صرتُ لوهلة هلِعًا إذ أحاول أن أتبيّن ما إذا كانت هذه نوبة جرعة زائدة خطيرة، وعلى طاولة القهوة هناك قطعة من الورق بها كوم كبير من «الصَّنف».

بدأ «إيريك» مؤخّرًا في بيع «الكيت» ليبقى قادرًا على السَّداد فيما يتعلق بالمال -إن جاز التعبير- منذ أن فقد وظيفته، فهو

يشتريه سائلًا في زجاجة ويطبخه في كسرولة من التيفال، نتحدث لبرهة فأقول له ألّا يتعاطى المزيد اليوم، وأُبعد اللفافة ملقيًا إليه بمحرمة، فيحاول مسح فمه وصدره، غير أنه ينشر اللّعاب خارجًا، من ثمّ أجلس معه لوهلة لأرى كيف هي أحواله التي يبدو أنها جيدة، لكن ما الذي أعرفه أنا بحق الجحيم.. أدخّن چوينت لأغيظه قليلًا، فقد ناقشنا ذلك قبلًا؛ أي مخاطر أن تجد نفسكَ فجأة مع كميات ضخمة من البودرة إذ ستنتهي كما في فيلم «سكارفيس» كما قلتُ ثم دعوناه لفترة بـ«توني مونتانا»، وقد كان «إيريك» مقتنعًا تمامًا أنه من السّهل مقاومة إغراء استنشاق الكمية كلها لأنه احتاج إلى المال، فأقول: «إلى أي مدى لعين أنتَ غبي؟» فيبتسم في سعادة، من ثم يفيض كيلي وأتركه تقريبًا آملًا أن يختنق بقيئه نفسه، ثم أذهب إلى غرفة النوم وأستلقي على سريري مستمعًا إلى أغاني المطربين والفرق الغنائية مثل: «دريكسيا»، أو» فيلوفوبيا،» أو» ثينجس فول أپارت»، أو مثل «دي چي كراش»، أو «توشينوري كوندو» أسطوانة «كاي أوكو» حسبما أظن؛ حيث كنتُ مهووسًا بها تمامًا في تلك المرحلة (وأتذكر لمَّا استمع أبي إلى إحدى أغنيات تلك الأسطوانة، ضحكَ بازدراء كأنه يقول: مَن ذا الذي يعزف وكأنه «مايلز ديڤيز»؟)، أو لعلّه «كاكوساي» الذي كان له ذاكَ التراك الذي أظن اسمه «كريمسون» مع تلك المقدّمة الموسيقية القصيرة لـ«هارولد بَدّ» من مقطوعة «بسم الله الرحمن الرحيم» التي لا أعرف معناها، ولم أعرف أن «كراش» أو «هيديكاي إيشاي» -كما يُدعى حقيقةً- كان مجرمًا عتيدًا في شبابه حتّى إنه كان فردًا من

عصابات مافيا «الياكوزا» اليابانية غير أني اعتدتُ أن أستمع إلى «البقاء للأصلح» في طريقي إلى العمل دون أن أعرف ماذا أقول عن هذا الضّرب من الداروينية الاجتماعية مثل التراك الذي يحمل الاسم نفسه لدويتو الهيپ هوپ «موب ديپ»، أو مثل الجزء الثاني من «شوك وَنز»؛ سنرّقصكَ الروك في وجهك، وسنطعن مخكَ بعظمة أنفك» مع أن مغني الراپ الأمريكي «سي إل سموذ» مقزز للغاية فيه، أو ذلك التراك لمغني الراپ «تراچيدي قذّافي» المعروف أيضًا بـ«إنتليچنت هوودلَم أي السفَّاح الذّكي» كما تعرف، (ممّا يجعلني أفكّر في «كيلر مايك» وأغنيته: أنا عصبجي صغير، أنا مش مثقّف شرير، وأنا قارئ كتاب، وأنا زعيم عصابة) الذي يقول في ڤيديو كليپ:

بالنسبة لي مفيش حب برَّة بالمرَّة،

فاهم الكلام؟... كلُّه،

كُّله دِلوقت بقى زي الروبوت...

زَي الزّومبي...

مفيش حب برَّة بالمرَّة...

دي فلسفتي عن المستقبل،

زَيْ ما باحسِب حيكون شيء مرعب،

زَيْ مانتَ فاهم،

لازِم تكون جاهز لازِم،

زي مانت فاهم...

لو ماحاولتِش تبقى جاهز،

خِّليك هاي وعالي ورُوح،

فاهم كلامي... وسيبها تيجي وتروح.

دي حاجة مش مهمة،

هو ده رأيي في بكرة وهمُّه...

لم نفعل أقل أو أكثر من ذلك: انتشينا ورُحنا إذ لم نكن مستعدين فعلًا لأي شيء بالمرّة، صحيح يا «كودي»، صحيح يا رجل، وأجل.. اشتغلنا واشتغلنا بالطبع، اشتغلنا وأحيانًا سرقنا قليلًا أو لعلّه كثيرًا جدًّا بالأحرى، ضربنا الجرعات قليلًا ليس كثيرًا، بل قليلًا وحسب، صحيح، ونمنا كثيرًا أيضًا، نمنا أيامًا بأكملها أحيانًا، ووجدنا أنه من الصّعب حقًّا أن نستيقظ في الصَّباح إذ لم أستيقظ فعلًا قبل الواحدة، حيث عانيتُ تقريبًا دومًا من التوتّر الشَّديد في الصباح ما يتطلّب سيجارة حشيش مع القهوة ليهدأ التوتّر قليلًا، ثم بوسعك أن تستلقي هناك وحسب متكاسلًا في الفِراش لبرهة لتقرأ مجلة أو كتاب، أو تغط قليلًا، أو تشاهد بعض الأفلام الإباحية أو تمارس الاستمناء ثم تسقط في النوم ثانية، تستفيق لتدخل في حالات مزاجية غريبة، وحالات تنويم مغناطيسي كما

يسمّونها حتى لتشعر بالفشل وتتمنّى الموت فتغط في النّوم ثانية.

غير أنه في بعض الأحيان قد تأتي بعدة حلول عظيمة لكل صنوف المشاكل؛ مثل كيفية مواصلة الحياة وعدم مواصلة الاضطرار للعمل غالبًا، وكذا النوم والسّرقة والخزعبلات التي استمرت بدلًا من ذلك، بل أصبح هناك المزيد والمزيد منه، هذا هو ما بدا عليه الأمر على أي حال، الوقت يمر فيما أضيّعه وحسب.

لم أكن غبيًّا، أعلم هذا وفكّرتُ فيه طوال الوقت.

أعني لو أنكَ استمعتَ إلى خزعبلات البقاء للأصلح هذا في الوقت نفسه الذي تكون ضائعًا فيه تمامًا وصايعًا، أقصد أنك تستشعره طوال الوقت فلستَ رئيس عصابة، لستَ ملكًا لأي شيء، لستَ فارسًا ولستَ نينجا ولا ناجيًا كما تعرف، وقد فكّرتُ في هذا طوال الوقت بينما أقف منتظرًا الحافلة، أو متّجهًا لناحية ما أو أخرى؛ وإذ أنتظر انتهاء الوردية، وإذ أعمل لستِّ ساعات متواصلة في أحد مواقع البناء من أجل بعض الفكّة الزّهيدة التي لا تلبث أن تتبخر؛ إذ أشرب أو أدخّن بها في أمسية واحدة، لكنكَ تعرف أن الأمر الوحيد الأسوأ هو ألّا يكون هناك شغل أصلًا، ولا مال أصلًا؛ لذا أجل، هاكَ قد عملتَ، بينما ما زلتُ لديّ المذاق نفسه في فمي؛ مذاق الغبار والقهوة والكدح وربّ عمل مزعج، مذاق الكمامات المستعمَلة المتعرّقة، مذاق الشّغل ومذاق الشيء ذاته طوال الوقت مرارًا وتكرارًا، للأمام وللخلف، يدور ويدور، فهذا هو ما أحصل عليه بفمي، أمتار عديدة من أمعاء وخراء لا أريد الحديث بشأنه،

لا أريد حتى التفكير فيه، افهمني، لا أريده بداخلي، ولا في حلقي أو على لساني أو بفمي، غير أني في كل مرة أفتح فمي، ينسال خارجًا.

فماذا عساي أن أفعل إذ أفتح فمي لأقول شيئًا مختلفًا كليّةً أو كي أتنفّس حتّى، فينساب هذا الخراء خارجًا، كل هذه الأشياء تنهمر خارجة، كل شيء ينسكب إلى الخارج؛ الرّموز والشّخوص والحروف والأرقام والصّور والأفلام والقصص التراچيدية والظّريفة كتلكَ التي تخص صبيين يسيران ذات يوم حيث تركا منزلهما وسلكا طريقهما في هذا العالم الكبير الشّاسع كما يقولون، ثم حدث الآتي:

كان يوم السّبت إذ هما جالسان على أحد المقاعد بجوار كشك ما، خلفهما مدرسة وبضع أجمات وطريق دائرية وبعض المنازل وباحة انتظار تصطف فيها السيارات في صفوف برّاقة، كان لدى الصبيين شغل وقد تشاركا علبة صودا وقطعة سنيكرز وأخذا يتحدّثان بغموض عن الأشياء التي يهتمّان لها؛ وعن الحياة والموسيقى وبعض أغلفة الألبومات الغنائية وعن الجماجم وأشياء قليلة أخرى، ثم اقتربتْ سيارة وخرج منها رجل يسألهما ما إن أرادا أو إن يرغبا في العمل حسبما قال، أو لتتكسّبا بعض المال كما قال، فسألاه عمّا سيفعلان، فأجابهما توزيع بعض المنشورات الدَّعائية لصالح مؤسسته الإنشائية:

- توجّها إلى الأحياء الثّرية واحشرا بعض الإعلانات في صناديق البريد.

- فسألاه: كم سيجنيان؟

- خمسمائة، تتشاركانها.

- بالطبع سنفعل.

وقد فكّرا أن هذا مال كثير، فدلفا إلى السيّارة وقاد بهما نحو الأحياء الثّرية، وحصل كل منهما على رزمة، وأخذ كل منهما جانبًا وشرعا يضعان الإعلانات في صناديق البريد بينما هو يقود زاحفًا ببطء خلفهما، بعد برهة فرغا من المنشورات الدّعائية، ليقول عامل البناء: ياه، علينا أن نحضر المزيد إذ يبدو مع ذلك أني قد تركتُ المنشورات في المنزل، سأستغرق دقيقة وحسب كما قال، بعدها ستحصلان على مالكما.

- يقول الصّبيان: اتفقنا، لكن يجدر بكَ أن تُسرع فحينها نحصل على المال.

تنطلق السيّارة إلى منزله ويقول لهما: يمكنكما التّدخين في السيّارة لو أردتما، ثم ها هم يصلون لاحقًا، المنزل ضخم بجوار أحد الحقول، فيدخل عامل البناء ليأتي برُزم المنشورات الإعلانية، فيما هما يبقيان بالسيّارة يدخّنان ويبحثان في صندوق التّابلوه عن شيء يسرقانه، لكن ما من شيء سوى إيصالات وقلم وبعض شرائط الموسيقى السيئة، يعود عامل البناء ومعه كومتان يضعهما في صندوق السيّارة ويجلس في مقعد السائق قائلًا: تمام، فلننطلق، لكنَّه لاحقًا يقول شيئًا عن السيّارة، فيسألهما ما إذا كانا

يستطيعان القيادة، فقالا: لا..

- يسأل: هل تودّان التجربة؟

- نعم بالطبع، هكذا فكّرا، مجيبين: هل يمكننا ذلك؟

- نعم، ليس صعبًا، يستغرق الأمر قليلًا لتعرفا الدوّاسات، لكن يمكنني تولّي أمرها، بوسعكما أن تجلسا أمامي، لتتولّيا عجلة القيادة، وأنا سأتولّى الدوّاسات.

- فقالا: أجل.

- واحدٌ أوّلًا، فليس هناك متّسع كافٍ.

- يقول الصّبي: أليس بإمكانكَ إرجاع المقعد أبعد قليلًا.

- يقول عامل البناء: هذا أقصى ما يمكن إبعاده، فانتهى الأمر بالصَّبي جالسًا فوق ركبتيّ الرجل.

- تمام، قُد إذن.

فقاد ببطء، بينما الصَّبي ممسكٌ بعجلة القيادة بكلتا يديه.

- عند وجهة السَّاعة الثانية إلا عشرة ضاحكًا، وهو ينظر للخلف إلى الصَّبي الثَّاني، انتبه للطَّريق.

عامل البناء مسيطرٌ على الدوّاسات وعلى أسفل عجلة القيادة بيد واحدة، ويزيد السُّرعة عند وجهة الساعة السادسة، فيلفّ عجلة

القيادة قليلًا إلى أسفل نحو الاتّجاه المطلوب، متخليًّا عرَضًا عن عجلة القيادة تاركًا يده تستقر هناك على قضيب الصَّبي، ويده الأخرى على فخذه، ويزيد السُّرعة أكثر قليلًا، والصَّبي منتبه للطّريق وللخطوط والحُفر، فانحرف قليلًا من اليسار إلى اليمين، فضحكَ الفتى في المقعد الخلفي، وواصلوا الحديث عن القيادة بينما تمضي السَّيارة مسرعةً على الطريق الخالي، وعامل البناء يحرِّكُ يده للأمام والخلف على قضيب الصَّبي، هذا هو ما فعله، وقد يحرِّك جسد الصَّبي كلّه حتى إنه يضغطه مقابل أسفل خصره ومقابل قضيبه شخصيًّا.

شعر الصَّبي بذلك كلّه بضرب من الدهشة الغامضة، يد عامل البناء تتحرّك للأمام وللخلف ولأعلى ولأسفل قضيبه، لم يكن الخوف هو ما شعر به الصَّبي، بل عدم ارتياح مقلق بالأحرى، وأخذ يراقب الطريق مفكِّرًا في طريقة قيادته للسيارة، أو هل كان يفعل حقًّا؟ هكذا فكَّر. أحيانًا ما كان عامل البناء يترك عجلة القيادة ويريح كلتا يديه على حِجر الصَّبي، بين فخذيه، معدِّلًا وضع جسد الصَّبي ثانيةً رافعًا ثم تاركًا إيَّاه محرِّكًا يده على قضيبه ثانيةً.

لم يكن الخوف مصدر الريبة، عدم التأكد مما إذا كان يتخيَّل هذا كله وحسب، وما إذا كان يستمتع بذلك على نحو ما.

مضتِ السّيارة قُدُمًا، الحُفَر، الحقول، المنازل المنعزلة، اليدان على الفتى، هذا هو كل شيء قبل أن يتوقفوا.

الآن إنه دور الصَّبي الثَّاني، بينما لم يقلِ الأوَّل شيئًا.

تحدَّثوا عن القيادة.. ثم يتكرر الأمر ذاته مع الصَّبي الثَّاني. قادوا دون أن يعرفوا أين كانوا، مرَّتْ ساعة وأكثر منذ أن أحضروا تلك الصَّناديق.

قال عامل البناء: أتعلمان أمرًا؟ قد أصبح الوقت متأخرًا، يمكنكما أن تُكملا باقي العمل المرة القادمة، ويمكنكما أن تأخذا المال، سائلًا ما إن كان عليه أن يوصلهما إلى المنزل، على أساس أن الظلام قد يحلّ عليهما، فأخبراه أين يقيما كي يوصلهما وقد حصلا على ورقة بخمسمائة كرونة، وعلى رقم هاتفه كذلك حال أن أرادا المزيد من العمل، فأنتَ لا تعلم متى تحتاج القليل من المال، وأخذ يضحك.

إن كان ثمة أمر وحيد صحيح في هذا العالم فهو أنكَ دومًا بحاجة لبعض العملة في جيبكَ كيلا تبول عليكَ الكلاب، هذا هو ما أخذتُ أفكِّر فيه بينما أقف هناك، شاعرًا بالقذارة والضَّعف تحت أضواء الشارع العالية عند زاوية الانعطاف ذلكَ المساء عند باحة انتظار السيارات، فقط قبيل أن يلوح المرج والحقول الشاسعة عند المنعطف؛ حيث أوصلنا قبيل ساعات قليلة تحت أنوار الشارع في ضوء الغبشة، متنشّقًا الدخان بينما طفَتْ سحابته بالأعلى تجاه الضوء؛ حيث أخذتْ تكبر وتكبر حتى صار من المستحيل تمامًا لهذه السحابة أن تكون بداخل جسدي للتوّ أو في رئتيّ من ثمّ صعدتْ إلى حلقي ومنه خرجتْ عبر فمي، متّجهةً صوب الضوء،

وأظن أن ذلك هو ما لديّ في فمي الآن.. هذا الدَّرس، وهذه الحقيقة: أنه ما لم يكن لديكَ مال، فلا يمكنكَ شراء شيء، أما لو لديكَ القليل من المال.. القليل من البنكنوت.. القليل من الأخضر.. بضعة نقود، فحتمًا يمكنكَ الحصول على أي شيء تريده، أتفهمني يا رجل؟ أتفهم ما أعنيه يا «كودي»؟ أتسمع ما أقول؟

فكرتُ عندما نظر عازف الجيتار إليّ؛ حيث أدرتُ وجهي في محاولة للتركيز على وجهه وعلى عينيه، لكن تعرف أنه أعجبني هذا حقًّا، هكذا قال، فكرة أن «أوكارولان» لم يرسل وداعًا للحياة وللعالم بل للموسيقى وحسب، فالتقطتُ نفسًا عميقًا وسمعتُ الملحّنة تقول:

- أجل، ولكن ما الذي يعنيه هذا؟ أعني اعتقاده أنه سيعجز عن ممارسة الموسيقى بعد موته؟

حاولتُ فهم ما يتحدّثان عنه، ولاحظتُ أن القناة تعجّ بالقمامة التي تقفز على السّطح: أكياس بلاستيكية، زجاجات، عصا معدنية لامعة طولها متر، فيما تهادى قاربا كاياك على وجه المياه..

بينما واصلتْ: أم أن الأمر يتعلق باستمرارية الحياة بعد الموت بحسب التعبير؟

- قال عازف الجيتار: حسنًا، لم أفهم ماذا يقصد حقًّا أو كيف تخيّل المسألة كلها حتى، فقلتُ: لا، وكنتُ على وشك قول أمر ما بخصوص رباعية «سيلسي» الوترية غير أن الكلمات علقتْ في

حلقي ثانية، وبعد ثوانٍ قالت الملحِّنة شيئًا حول أن الرياضيات مثيرة للاهتمام، وقالت شيئًا كذلك عن رعبها من الهندسة، لكنّي لم أُنصت حيث كنتُ أفكّر في «سووت» مجدّدًا، فما زلتُ أفكّر في «سووت» وذلك المكان الذي نويتُ قصده، الذي فررتُ منه في الطرق الدائرية، في الحافلة حيث تلك الحركة التي استمرّتْ واستمرّتْ بي وبدوني.

الفصل الثالث

طوال النّهار وبينما أتدرّب على مقطوعة «سيلسي» -رباعيته الوترية الرّابعة على التّحديد- واصلتُ ملاحظة زهرة نبات الشمع التي تفتّحتْ خلال اللّيل.. وللدقة فصلت تمامًا بتأمل البراعم البيضاء والوردية التي تدلّتْ في شكل عناقيد فصارتْ تُشبه أعينًا صغيرة ضئيلة تتابعني؛ كجمهور صغير من نوع مغاير من الكائنات، فكّرتُ لاحقًا في الظّهيرة حين وقفتُ بجوار القناة وبجوار طريق الحصى بين مركز البوليس وممر المياه منتظرًا العازف والملحّنة، فقد انتويتُ قصدَ «كوپنهاجن» معهما من أجل الاستماع إلى عازف الأورغون الألماني «كريستوف ماريا موسّمان» في كاتدرائية «فور فرو كيرك»؛ حيث سيعزف «موسّمان» مقطوعات

لـ«بِرت» و«كيچ»، وكذا «إن نومين لوسيز» لـ«سيلسي» بنفسه، المقطوعة التي بدت قطعًا باهرة على الأورغون الكنسي، أعلم ذلك من الخبرة لأني استمعتُ إلى «كيڤن بوير» يعزفها، فقد بدا من الجليّ تمامًا أنها في نفس منزلة أفضل أعمال «ميسيان» و«باخ» على الأورغون، على الأقل كما كنتُ أؤكّد حينها.

لكن في ذلك الصّباح، لم أتداول أيًّا من هذه الأفكار، حيث برغم كل البروڤات النَّاجحة، جرى إعادة ضبط إعداداتي تمامًا فأُفرغتُ من الكلمات والمفاهيم، وحُرِّرتُ من الأفكار والذّكريات والرّغبات، ومع ذلك كنتُ في قبضة بعض حركة جاذبية مركزية في الطريق نحو شيء بارز ما، فنظرتُ إلى النّوتة الموسيقية أمامي وتنفّستُ، يتحرك قفصي الصّدري ورئتاي وذراعاي، يتحركُ مرفقاي وأناملي، صار الصّوتُ جسمًا من لحمٍ حيّ، أغلقتُ عينيّ ولم أَعُد نفسي بعدها.

نقترب الآن من المحطة الرّئيسية، فقال العازف شيئًا عن الوقت؛ إذ وقعتْ عيناه على ساعة هناك فوق البرج كما يُفترض، فقال إن لدينا متّسعًا من الوقت في النهاية مفترضًا أن القطار لم يتأخّر، فقلتُ إن الأمر غالبًا سيكون بخير في الوقت نفسه الذي فكّرتُ أنه عليّ أن أطلب من الملحّنة إعادة ما قالتْه عن الهندسة منذ دقيقة، كما أردتُ أن أخبرهم عن رباعية «سيلسي» الوترية الرّابعة التي كنتُ واثقًا من أنه لا العازف ولا الملحّنة على تلك المعرفة الوثيقة بها، وبعيدًا عن أي أمور أخرى أردتُ العودة إليها (على سبيل المثال السكورداتورا وعلاقتها بالنِّسبة الذّهبية) فإن أكثر ما أردتُ

قوله إثارة للاهتمام هو كتابة النّوتة، فالمقطوعة مكتوبة بتلك الطّريقة التي يصبح فيها لكل وتر سلم موسيقي خاص به في المجمل كما لو أنها مؤلَّفة لستّ عشرة آلة وليس لآلات الرّباعية الأربع، وكما لو كنتُ أنا -الذي عادة ما أكون مسئولًا عن آلة واحدة ومع سجل عريض نسبيًّا- بتُّ الآن أعزف أربع آلات بدتْ كأنها أفقر في النغم وفي القدرة على التعبير كأدوات منفردة، غير أنها معًا تنجح على نحو ما في تشكيل شيء مختلف، وهو ما أردتُ مناقشته مع العازف والملحّنة؛ فكرة أنها كانت أكثر من مجرّد تشيلو، وهو ما يعني أننا كنَّا شيئًا آخر بخلاف رباعي وتري بافتراض أن الأمر نفسه ينسحب على سائر آلات الرباعية، لكن ما هو؟ ولِمَ؟ وكيف يتناسب ذلك الشيء مع شخصية المقطوعة حثيثة الارتقاء والانحدار والارتجاف، ومع ذلك الشَّد والجذب بين الرّصانة والطّيش، وبين الترقّي والتهاوي؟

إن عزف المقطوعة في المجمل بدا كما لو أنه سقوطٌ إلى أعلى، إنما أردتُ أن أسأل الملحّنة هل يبدو هذا معقولًا؟ ما الذي قالته عن الهندسة؟ لم أكن قادرًا على تذكّر كلماتها، وبدلًا من ذلك رحتُ أفكّر في «سووت» كما لو أنه واقفٌ أمامي، متأرجح بالأعلى من فوقي كضرب من هيئةٍ بلا شكل، كشيء متعذَّرٌ فهمه، كضوء غير مرئي، فأسمعه يقول بلا صوت ملفوظ، أجل بلا صوت: وهكذا أنا لا أعلم يا «كودي»، لِمَ؟ يموت جندي إذ يسقط برصاصة.. لا شيء غريب بشأن هذا، أليس كذلك؟ فهذا ما يفعله الجنود، يموتون.. يسقطون.. يلقون أسلحتهم، فيلتقط أحدهم تلك اللحظة بداخل

فيلم، لحظة منتصف السّقطة.. السقوط في الهواء، يلتقط أحدهم صورة فتتحوّل إلى لافتة وتشق طريقها إلى العالم، ثم ها نحن لاحقًا بعد بضع سنوات نجلس تحت هذه الصورة، فيُخرج «دنزو» سيجارة ويُشعل التَّبغ فتشرع في التّفكير؛ أخيرًا بعض سلام وهدوء، أخيرًا بعض راحة كما يقولون.. أخيرًا إجلال وملاذ وحرم.. هذا النّوع من الأشياء الذي تأتي «الجوزة» به، وكما تعلم فقد أخبرني والدي أن هذه هي الجنّة ليعرف بعد ثلاثين سنة لاحقًا أن المسألة كلها طالما كانت أكذوبة.. كذبة حتى إنه ندم على الانتقال برمّته.. الهجرة، كما يقولها الهجرة، ففي ذهنه الخاص كما تعرف، هو لم يكن وافدًا قطّ، ليس وافدًا لعينًا، بل مهاجرًا يا رجل.. مغتربًا يا زميل، ويقول إنه يندم على كل هذه الثلاثين سنة التي قضاها في الاغتراب.. يأسف عليها، وكما تعرف فقد أراد إذن طلب المغفرة على كل شيء حيث صار الوقت فعلًا متأخّرًا جدًّا.

لكن كما تعرف، كنّا نجلس هناك تحت اللّافتة ذات الجندي المُحتضَر؛ حيث تبادلنا «الجوزة» بحرص، وفيما بعد تقيَّأتُ ثانيةً وفقًا لـ«دنزو» -هذا اسمه- فقد كان هو هذا الشّخص، ولكن لِمَ؟

ضحكنا، أتذكر؟

جيتار الجهير المزدوج بفرقة «ميتاليكا» للهيڤي ميتال، بعض العطل في الڤيديو، آه، لا أعلم، فليس ثمّة عدالة، لا أستطيع أن أحيا، ولا أستطيع أن أموت، عالق في ذاتي، رعب مطلق، بينما أمي تشاهد «أوپرا» أو تشاهد «الجريء والجميلة» كما تعرف، أعلِمتَ

أن «أولجا» انتقلت إلى «كازخستان»؟ لكنّكَ تعرف أنها سرعان ما سقطتْ على الحدود الرّوسية، عملتْ بالدَّعارة في الشوارع في «نوڤوكوتسنسك» كما يقولون، وراحت تتعاطى مخدّرات «سپيد» و«هورس»، أعلم ذلك لأنّي كلّمتُها بعد شهرين من رحيلها، غير أن الأمر هدأ قليلًا فتردَّدتْ شائعات أنها تتعاطى «كروكودايل»، في هذه الحال سيدفن ما بقي من جسدها المستنفَذ قريبًا جدًّا.

لكنّي أقسم أني أقصد ذلك الرجل، تعرفه؛ «أندِن»، هذا الشَّاب الذي كان يتصرّف باعتباره «الفتوّة» في الحيّ، هذا الذي نعتُّه بالزنجي فنعتني بالمرمطون وبالشاذ عندما كنا نتشاجر إذ هذا ما اعتدنا أن نقوله عندما كنّا أطفالًا، لكنّه ليس هو.. ليس «دنزو».. ليس هو إذ أعتقد أنه كان حيًّا، وهو ليس «نيكو».. كنّا ندعوه «نيكو» لأن اسمه «نيكولاس»..

لقد مات.. ماذا.. منذ عشر؟.. منذ عشر سنوات مضتْ بالفعل؟

مات أمام التليفزيون حيث وجدتْه أمه، أتعلم ذلك؟

مات أمام التليفزيون حين توقّف قلبه عن النّبض أو شيء كهذا، فتوقّف عن التنفّس ومات مختنقًا بقيئه.

لستُ أدري ما الذي يحدث حين تضرب الكثير من جرعات الـ«هورس»، لكن أمّه وجدته ميتًا بجرعة زائدة وهو يشاهد التليفزيون، غير أني دائمًا ما أفكّر في الكهرباء الإستاتيكية للتليفزيون وفي لحظة دخول أمه الغرفة عليه لتجده ميتًا.. هذا

الشّاب الذي اعتدتُ اللعب معه ذات مرة..

أقصد أنه بوسعكَ هنا أن تسأل نفسكَ لِمَ؟ افهمني، فهو لم يكن جنديًّا، أو ليكن، لعلّه كذلك، أقصد ما الحرب؟

أظنّها تتعلق بالعثور على العصابة الكبرى.

فقد فضّل «أربن» أن يتوجّه إلى «كوسوڤو» على أن يمكث هنا مع توتره وقلقه، لو تتذكّر في وقت كنّا نفكّر كيف بحق اللّعنة فعل ذلك؟

لكن اليوم بات جليًّا تمامًا لِمَ لم يكن عليه أن يذهب إلى هناك؟ فهم يذهبون اليوم إلى أماكن أحدث حيث تكون العصابات الكبرى، تلك الأماكن المفتوحة لهم دائمًا مهما كانت الأحوال، أعني أنهم بالكاد يمكنهم الانضمام إلى الشُّرطة أو الجيش، فقد فات الوقت على هذا، غير أني لستُ أدري إذ ما الذي أعرفه أنا، فهذه المسألة لا علاقة لها بـ«نيكو» كذلك إذ كان مجرّد سكّير عادي، كما لا يمكنني أن أعرف لمَ فكّرتُ في الكهرباء الإستاتيكية للتليفزيون كذلك، إذ لو كان يشاهده لكان الجهاز يعمل على الأرجح، حيث إن موته لن يجعل الجهاز يتوقّف وحسب، أعني أن كل شيء مستمر حسبما أظنّ؛ فالحياة تستمر والتلفاز يستمر والإعلانات تستمر والأخبار تستمر، والمسلسلات والأفلام وبرامج الثّرثرة، وبرامج الكوميديا والإثارة والبرامج الإنسانية وبرامج الشُّرطة، بينما عند لحظة ما، دخلتْ أمّه الغرفة ورأتِ ابنها جثَّة هامدةً ومن ثَم رفعتْ رأسه

-وحتمًا تعلم كيف يكون الرَّأس الميّت باردًا وثقيلًا حتى ليَزِن طنًّا لعينًا يا زميل- وضربتْه عليه وعلى صدره وأيقظته عن قصد جاذبةً الجثَّة محاولةً بفشل أن تستنهض ثمّة حياة من ابنها، إلّا أن عُمره ولّى، انتهى وقد رأتْ حياته تحلّ وترحل، فهو ذاتَ لحظة لم يكن موجودًا، بينما حينها كان ملء السَّمع والبصر، والآن ها هو لم يعد كذلك، تمامًا كما كان سائر الحياة مستمرًّا بينما من العسير على هذه النّقطة أن تستحوذ على ذهنك.

أعلم هذا وأنا آسف يا «كودي» اعذرني، فلستُ أريد الحديث عن ذلك، فالأمر يصير سخيفًا وأشعر بالإحراج ولا أريد التفكير فيه.. لا أريد رسم تلك الصّور لأني أعلم كيف يكون ردّ فعل النّاس لدى رؤيتها، كما فعلنا حين جلسنا في غرفة «دنزو» بمنزله تحت هذا الملصق كأن نتساءل لِمَ؟ فعليكَ وحسب أن تخلع عنها الحنق، عليكَ أن تضحك منها، إذ عليك أن تكون وكأنّكَ تتساءل ثم؟ سكّير يموت، وجندي يموت، ووافد لصّ يتلقّى رصاصة خلف أذنه، ورصاصة في البطن، ورصاصة في القلب، وماذا بعد؟ صدّقني لا أريد التذكّر، فلو لي الخيار، إذن لأبقيتُ فمي مغلقًا ومضيتُ قدُمًا، غير أني لا أستطيع إذ إن عينيّ تسبحان فيه، كما أنه يزأر في أذنيّ وفمي كله يعجّ به حقًّا.. بجسده.. بجسده الطّفولي، وبحقيقة أننا كنّا أطفالًا، وأننا كنّا نلهو كما درجنا كصغار حيث نسير بينما نتحدّث كالمعتاد كما يفعل الأطفال وحسب، تنزّهنا، تحدّثنا، فكّرنا، لعبنا، ثم هكذا الكهرباء الإستاتيكية، ثم الرأس الثَّقيل البارد، وشخوص نظر أمه، غير أني لا أعلم ما الأمر، فأبوه مات

جرّاء جرعة زائدة أيضًا حسبما أظن.

«نيكو» كما دعوته وعاش في «مولڤانجن» حيث عدنا إلى بيته وشاهدنا فيلمًا ما لـ«بروس لي» ومقتطفات من أفلام النينچا القديمة. دومًا ما تفوّه بالكثير من الخزعبلات كشفرة لغة فيما بيننا، وهكذا فقد اعتدنا أن نقول «أخذتُ حضنًا» كما كنّا نقولها، كذبنا وتباهينا وتلاعبنا إذ يميل دومًا إلى أن يُبدي أنه الأكبر والأقوى حتى كطفل، أجل، أظن أن والده قد تعاطى جرعة زائدة أيضًا قبلًا عندما كان «نيكو» صغيرًا، لكنّي لستُ أدري فقد اتصل بي لاحقًا أيضًا لمّا كبرنا قبل نحو عام من وفاته، والأمر كما قلتُ حيث تضحك من أمور كتلك.. من أناس مثله، إذ لا أتذكّر ماذا أراد، لم أشأ التكلّم معه وحسب، فقد كان مثيرًا؛ يا له من حضنٍ! فقد مات وبات الأمر جليًّا؛ ما من وعي ذاتي، ما من احترام، اعتداد مبالغ فيه بالنَّفس؛ لذلك فهذا ليس هو، فهو ميت ومدفون بالفعل بينما لم أكن هناك، لستُ أدري، لعلّه شخص ما من العائلة، كم قد يكون؟ في حوالي العشرين؟ ما زال بعده أخ من عدّة نواح، مثلك صحيح خيّو، صحيح يا «كودي». يا أخي، فلتقلْ لي أن أُغلق فمي الآن، أريد أن أُغلق فمي، أن أسدّ هذه الفتحة، أن أجعلها تختفي وتضمحل في الضَّباب كما يقولون، ضباب آخر غير أني أراه طوال الوقت، كأن عينيّ تسبحان فيه، كأن عينيّ مصنوعتان منه، فهو في رأسي كمرشِّح، كنوتة موسيقية على الأورغون، كغشاء، لا أدري، لستُ حقًّا أدري مَن هو المسجّى بالنّعش في حجرة الحرق، غير أنها ليستْ «كارو» بأي حال.

لقد أنجزتْ أشهر الحكم واستفاقتْ لنفسها، وصار لها حياة جديدة وتركتْ «ڤلاد» وحياة التعاطي القذرة معه.

كما أنه ليس «صلاح الدِّين» وصحبه؛ فهم ما زالوا أحياء، ما زالوا يتعاطون المخدرات، أجل فأنا رأيتُهم بأمّ عيني.

كما أنه ليس «روني» ولا «نهاد» ولا «سعيد»، حيث يعيش جميعهم حياة سويدية طبيعية بما بها من معاشات ومنازل إجازات صيفية.

وهي ليستْ «تِندرا» كما اعتادت أن تدعو نفسها، فهي ما زالتْ حيَّة أيضًا، ربّما تكون قد أنهكتْ نفسها تمامًا، أجل، غير أنها ما زالت تعيش، وللأمانة، فذلك على الأرجح ما قد تقوله عنّي أيضًا، أليس كذلك يا «كودي»؟، أليس هذا ما قد يتبدّى إذ تفتح فمكَ لتتحدّث عن صديقك؟.. رفيقك.. أخيك..

ستقول كلَّا، ليس «سووت» هذه المرّة، فهو ما زال حيًّا كما يقولون، إنه حي؛ مشرَّد ومريض ذهانيّ مدمن أغلب الوقت لكنّه ما زال حيًّا.. حِملٌ من هراء حول بساتين الكَرز... إلخ.. إلخ.. إلخ سرعان ما أتجاوزه؛ إذ إنكَ دومًا ما تتفوّه بالكثير من الخزعبلات اللّعينة، أليس الأمر هكذا يا «كودي»؟ أليس ذلك ما تقوله؟ ليس «سووت»، لا، لا فهو حيّ، هلكَ تعبًا لكنّه حي، وكما تعلم فقد جرَّبنا التقبيل كالشّواذ حين كنّا صغارًا، أجل تمامًا لمّا كنّا صغارًا احتسينا الرَّم ودخّنا الحشيش ودخّنا القنّب والماريجوانا كأخوين،

وتداعبنا كصِبية أجلاف شواذ فيما لم ننطق أي كلمة عن هذا لأي شخص، أبقينا الأمر دفينًا كصِبية شواذ، كأخوة في الأسرار، كما تسكّعنا مع فتيات تركيات مثيرات خارج المسبح؛ أذكر أن إحداهنّ تدعى «أيسِن»، أما الأخرى فلستُ أدري؛ لعلّ اسمها يبدأ بحرف التّاء أو شيء كهذا على ما أعتقد، لكننا كنّا حينئذ أخوة، صحيح يا خيّو؛ شباب البانك والهارد روك الأشقياء وصبية وأطفال صغار يتدلّى المخاط من أنوفهم لديهم واجبات ثقيلة ومعهم الحشيش وأقلام الماركر الملوّنة في حقائب الخصر أو الكتف الخاصة بهم، نتجوّل ليلًا بمطاوي قرن الغزال والخناجر في شوارع وأحياء «رييربان» و«ألتونا» و«كاروڤييرتال»، صحيح يا زميلي، اقتحمنا البيوت وسرقنا لمّا كنّا صغارًا، وحضرنا الحفلات في «دي فابريك»، و«جروسه فرايهايت»، و«ماركت هال»، و«ستروتبيكر»، ورأينا «فوجاتسي»، و«سيبرس هيل»، و«سيك أڤ إت أول»، و«سترايف»، و«أنسين»، ورقصنا الرّوك بجنون مدخّنين الحشيش غارقين في العرق والدّماء والبصاق، كحيوانات صغيرة في سباقات أدرنالين، مسألة حثالة البيض كلها تلك عدوانية لعينة؛ صبية صغار نابتو اللّحى والشّوارب غارقون للآذان في العك الأمريكي؛ حيث شاهدنا الأفلام ورأينا الأسطوانات، وتضاربنا هنا وتقافزنا على النطّاطات هناك؛ مجرد ضحية أخرى يا فتى بأنوفنا الدّامية المتجلّطة، لكن دماء مَن تلك أيّها الفتى؟ أليس ذلك ما تقوله يا «كودي»؟

جلسنا هناك في وقت متأخر من الليل نشاهد الڤيديو تلو الڤيديو: «ميول انتحارية»، و«حرب داخل رأسي»، وكذا «سي ڤوياتسي» أو

«الجنود الكلاب»، ثم لاحقًا أغنيتهم عن الأمواس أيضًا؛ الأمواس على الجسد، الأمواس في الجسد، بينما أبوانا اللذان قد قطعا ذراعيهما -يا لهما من شقيقين- وأمّه التي قالتْ إنّها سمعتْ أن ذلك هو أحلى شيء إذ يُستنزَف جسمكَ من الدّم وتُستنفَذ الحياة، فهذا أفضل من أحسن مخدّر، حتى إنه أحسن من مخدّر الكراك وأحسن من مخدّر سبيدبول، ثم سألنا: ماذا يحدث؟

الأمر مثل أن تنهض وتغرق في الوقت نفسه، فقهقهنا وضحكنا وشربنا الشّاي المثلّج النّاعم وارتحلنا قليلًا إلى البحر، وأتذكّر ذلك الشّاب الذي لم يسبق له أن رأى البحر قبلًا؛ حيث ذهب إلى «هيليجولاند» فسرق بعض من زجاجات المشروبات الرّوحية من المتجر وخبّأها في كوّة أسفل الدّرَج بالمعديّة، فلنفرغها حتى الثّمالة مقهقهين كالبلهاء، إن السّويد لم توجد، ولتغرق الدّنمارك، أمّا ألمانيا فنحن نحبّك، يوغسلافيا تحترق والمستقبل لأوروبا، وأطفال أوروبا الشّرقية يمارسون جنس المؤخرة بالألعاب الجنسية المزدوجة الملوّنة، أحلامهم الغضّة الفيّاضة تتدفّق كمحض خزعبلات، ما الذي يحدث يا رجل؟ كم يمكن للحياة أن تكون قاسية حقًّا إن توخّينا الأمانة! وكم هو رقيق أن تموت بنفس يدكَ! كم وحسب.. كم يتعيّن عليكَ التّركيز! أجل.. أجل، لقد أُفسِد الأمر تمامًا وكان إفساده في حد ذاته مطمحًا؛ لذلك فقد توجّهنا إلى «بامبول» نطوف بين سيّارات الكاراڤان العَفِنة وبين الوحل وألواح الخشب والقمامة والدّخان وألسنة النيران المشتعلة في البراميل الكبيرة الصَّدئة، وفي عربات التسوّق، وفي الخِرق، وفي عبارات الشّجار والأعلام.

قال كلٌّ منّا للآخر إنّها كانت أناركية للبلهاء، حتى إنّنا الأطفال -كما قلنا- بدأنا نقرأ لـ«باكونين» و«جولدمان»، بينما هؤلاء الشّباب وفتياتهم بلهاء مئة بالمئة، قال كلٌّ منّا للآخر فيما نتعاطى إنهم فتية متخلّفون، كنّا نقولها كلٌّ منّا للآخر في الظّلام إذ نتصنّع أوضاع «مانيكان» بلا أرجل مغطّى بالملصقات والبطاقات، فطرقنا باب منزل تاجر المخدّرات حيث يجلس الخنزير الأناركي السّمين يشاهد فيلمًا.. فيلمًا أمريكيًّا معتوهًا، بينما درّاجته الثّمينة معلّقة على الجدار نظيفة وجميلة في جحر الخراء هذا، بينما ثمّة طُربة وزنها حوالي أونصة أو أكثر من المخدّرات على طاولة القهوة، قلنا بالألمانية: ما الذي حصل يا زميل، ماذا تريدون؟ قالها الأناركي القبيح، كان بحوزتنا عشرون ماركًا ألمانيًّا؛ فقال «سووت» نريد مخدّرات بقيمة عشرين ماركًا، فضحك منّا الأناركي الكبير نصير الحرية بما يغطي جسده من أوشام تتكلّف أكثر من نصف راتب سنوي قائلًا: عشرون؟ أيّها الصبية الملاعين، أنا حتى لا يمكنني النّهوض اللعين مقابل هذه العشرين.

فوقفنا هناك وحسب نفكّر ونحسبها، ثم اعتلينا الفِراش حيث كسرنا رقبة زجاجة جعة على رأس هذا الدّاعر الأناركي الثّوري الصّغير، وأخرجنا سكّينًا رفعها «سووت» على بُعد بوصتين من رأس الأناركي الشّاحب، ووقفنا على هذه الحال هنيهة دون أن يحدث شيء عدا ضربات قلبي التي تدق بعنف لعين، بينما واصل الرجل الأناركي الثوري الكبير السخرية منّا متفوّهًا بخزعبلات كثيرة على غرار أن نذهب للجحيم أو أن يلعن أمهاتنا أو أننا عيال

المخاط يغرق أنوفهم، غير أن هذا كله كان رائعًا؛ حيث تبيّن أنه خائف إذ نهض في النهاية عن مؤخرته، وقطع لنا حوالي ربع قرش حشيش، ولم يجرؤ على فعل شيء لمّا لم نعطه العشرين التي كانت معنا، إلّا أننا على الرّغم من ذلك لم نخاطر بالانصراف بالطُّربة كلها، قلنا وحسب هكذا يسير الأمر أيّها الواطي الكسول، وانصرفنا باصقين على بابه، ثم جرينا بأسرع ما يمكننا متجاوزين كل الكاراڤانات وجميع الأشرار العفنين ذوي القمصان المطبوع عليها عبارة: باد ريليجين، أي «ديانة سيئة»، وآباؤهم الأثرياء في «باڤاريا»، ومن ثم تعذّر علينا العودة للشراء من هناك مجدّدًا لأشهر عديدة، لكن الأمر لم يشكّل أي فارق؛ إذ وجدنا مصدرًا جديدًا وهكذا دواليك.

هل هكذا يكون الأمر يا «كودي»؟ حيث إنّكَ تقول فعلًا إنه صحيح، فقد بدأنا القراءة والحديث عن الكتب، أجل هذا صحيح، فعندما كنّا أصغر سنًّا أنا و«سووت» تكلّمنا عن «كافكا» بمفرداتنا كنشء مساطيل، وعن «التحوّلات» حيث دخّنّا الجوزة وتقيّأتُ في غرفته كلّها حتّى إننا اضطُررنا لاقتطاع جزء من البساط جرّاء هذا، وتسكّعنا وقمنا بعمليات السّطو في شارع «لايتسشتراسه» أو أيًّا ما كان بحق الجحيم، وكذلك لدى أحد رفاق «سووت» الذي قلّد «سنوپ» طوال الوقت اللّعين بينما احتضنتُ مقعد المرحاض ورحتُ أتقيّأ وأتقيّأ وأتقيّأ حتى اندفعتِ العصارة الصّفراء ثخينة بينما استمرّتْ معدتي في التمزّق دون أن تُخرج المزيد، فيما كان «سنوپ» هو «سنوپ دوجي دوج» في الخلفية، وكل هذه

الخزعبلات المملة للغاية، لكنه نوع الأشياء الذي تقوله، صحيح يا «كودي»؟ أليس كذلك؟

غير أنّي لستُ أدري، فالأمر ليس أننّا لم نحاول يا «كودي»، صحيح، أعني أنني قد توجّهتُ فعلًا لهذه المقابلة الأخيرة بكل صفو نيّة كما يقولون من أجل أن ألتحق بهذا الكورس حتى أحصل على تلك الوظيفة كسائق شاحنة؛ حيث سألوا أطنانًا من الأسئلة، وقد أجبتُ قائلًا تلك الكلمات: ولدتُ في پراغ، وكنتُ أعرف أن وجوههم ستشرق قائلين: أوه، هي جميلة جدًّا، وأعلم تلك الصّور الذّهنية ذات التعليقات على غرار: «جسر تشارلز»، و«روكو»، و«أرت نوڤوو»، وصدّقني يا «كودي» صدّقني، أنا أعرف كل هذه الأمور، فأعلم بشأن «أرت نوڤوو» وكل تلك الخزعبلات، أو على الأقل أعرف عنها بقدرهم، فقد مارستُ رسم الجرافيتي طوال عمري، صحيح، و«فرّيت» الكتب إذ جلستُ في المكتبة فلستُ غليظ المخ، وأعلم من أين أتيتُ، وأعلم ما رأوه؛ إذ رأوا القلعة تضاء ليلًا، كما رأوا الأبراج المذهبة تمتد إلى عنان السّماء، تمتد إلى أعلى، كل شيء يمتد إلى أعلى كأعمال ورق الشّجر الفنّية لـ«موتشا»، مُستدقّة ورشيقة أكثر وأكثر كأجساد «شيبل»، كل شيء يهفو إلى أن يسمو ويضوي في السّما كشيء بهيٍّ وإلهيّ تقريبًا غير أنه يُبقي ثقله ويأسه «الكافكاوي» المسجّل كعلامة تجارية بالطّبع، ولعلّهم قرأوا لـ«هرابال» أيضًا، فيستحضرون الآن ثمّة منزلًا ساحرًا سكّيرًا يترنّح فوق حصى «ستارموك» مرنّمًا أسرارًا لضروب من موسيقى الچاز التّجارية المعارضة، كشيء خربان ومتداعٍ على نحو

ساحر وحسب، أو كعازف غجري ضائع لعين أو شيء من هذا القبيل، لكن كما تعرف أردتُ أن أقول لهم إنني لستُ من هناك، وأن هذا كله لا علاقة له بي مطلقًا، فكما تعرف أردتُ أن أقول إن ذلك هناك فوق، هناك حيث يعيش صنّاع القرار، لكنّي لم أفعل، فكما تعرف لقد جئتُ من أماكن لا يأتي منها صنّاع القرار أبدًا، غير أني لم أذكر هذا أيضًا، فأنا أتيتُ من «هيي» -ولم أذكر ذلك رغم أنه كان يتعيّن عليّ أن أفعل- وتلك أيضًا في پراغ فلتذهب إلى منزلك لتبحث عنها على جوجل، لقد أتيتُ من «يتسني ميستو» من «يتساك»، من المحطة الأخيرة، دومًا المحطة الأخيرة، فلتعد للمنزل وتبحث عنها على جوجل بدلًا من ذلك، لكني لم أذكر هذا برغم أنه كان علي أن أفعل.

لا تفكّر في الموسيقار الكلاسيكي «بيدريتش سميتانا»، بل فكّر في فرقة الشوارع «پينيري ستريكا هومبويي»، لا تفكّر حتى في فرقة «پلاستيك پيپول» أو «دي چي307» أو حتى في بعض هراء السبعينيات المشابه؛ لذلك لمّا كان أجدادنا يمسحون لهم مؤخراتهم محافظين على أفواههم مغلقة، بينما أمهاتنا يشقين في البيت ويبحثن عن آبائنا الذين راحوا يختبئون في الحانات خلف اللِّحى والشَّعر الطّويل والثقافات المضادة للمجتمع، فكّر أكثر في «كايوتس»، و«پراغو يونيون» و«نازي ڤيك»، و«دي فك تو»، كما تعلم مجرد تدخين حشيش بلا مستقبل، أنتَ تفهمني ولكنّك لا تفهمني إذ لم أذكر هذا، وبدلًا من ذلك أجبتُهم بنعم إنها جميلة، وقد كانت كذلك فعلًا على نحو ما حتّى وإن كانت قبيحة، لو أنّكَ

تفهم ما أعنيه لكنّكَ لا تفهم أو أنا لا أعلم، لعلّها ليستْ جميلة أو لعلّي لا أعلم إذ ربّما ليستْ بهذا الجمال، أقصد الأبنية والشّوارع والخُضرة والخزعبلات لكنّي أشير إلى سائر الأمور الأخرى أيضًا.

أحبّ الخروج إلى الشّارع باكرًا في نهار الخريف، أو ثمّة شيء ما على الأقل صغير.. صغير.. ولو نزرٌ يسير من ذلك، برغم من توتّركَ طبعًا لأنَّكَ في طريقكَ إلى شغلكَ الخرائي -هذا إن كنتَ محظوظًا- أو لعلّكَ في طريقكَ لتلقّي طعنة مفك في رأسكَ؛ على حسب هنا! لكن ما زال هناك شيء صغير.. نزرٌ يسير منه.. شيء أحبّه تمامًا إذ أسير وحدي في الصَّباح؛ لعلها البرودة بعض الشيء أو الضَّبابية أو الطقس النَّدي أو أيًّا ما كان، فهو أوّل الخريف ومنتصف أيلول إذ أخذ ورق الشِّجر يتساقط لتوّه مستقرًّا على الأرض، وقد خرجتُ إلى الشارع كي أرى من فوري حفنة من الملثّمين يتقارعون بمواسيرهم المعدنية وألواحهم الخشبية.. ثرثرتهم رطبة پولندية أو حادة ليتوانية، ثم يأتي حرامي نحاس «أهتم» مستقلًّا درَاجته النَّارية ومعه صندوق العِدّة ومذياعه الصّغير الذي يعمل بالطّاقة الشّمسية، وقد أكل الإدمان جسمه، بينما ما زالت تلكَ اليدان اللتان تحملان القضبان المعدنية قويتين ومشدودة العضل كما لو أنه قد خرج لتوّه من بين تلك القطع الأثرية ذات طابع الواقعية الاجتماعية التي شيّدها آباؤنا الأوائل باسم البروليتاريا وباسم كفاحنا، تتلاقى نظراتُ أعيننا؛ إذ أسير متجاوزًا «الكوافيرة» التي تدخّن سيجارتها الأولى لهذا اليوم أمام صالونها متمنيًا لها يومًا سعيدًا فتفعل الشيء نفسه، ثم أسير مبتعدًا قليلًا حتى أصل إلى

أول الميدان؛ حيث بدأ السكّيرون والمدمنون بالفعل يومهم!

تضحكُ واحدةٌ منهم وتبتسم وتقول: صباح الخير فأردّ بالمثل عليها وعلى رفيقها الذي يسير متخلِّفًا عنها بنحو متر يجرّ درّاجة ذات إطار مثقوب ويقول بصوتٍ أجشّ: مساء الخير، فأهز رأسي لتلكَ النّكتة الرّديئة، لكنّي بصورة ما سعيد لسعادتهما، كما مررتُ ببائع كشك يفضّ بضاعته في الميدان بينما واصلتُ السّير، فكما تعرف أنا أسير هكذا وحسب إلى شارع آخر حيث أرى بعض المراهقين يدخّنون ويحتسون مشروبات الطّاقة ملقين بفوارغ علب المشروب المعدنية على الرّصيف، يأتي رجلان سيرًا من الخرابات التي يبيتان فيها تحت لفائف المشمّع التي تغطّي ألواح پاليتات التحميل وينحني أحدهما ليلتقط واحدة من ثمر «عنب الدّيب» ويحملها ليزنها بين راحته ناظرًا إليها قبل أن يلقيها ثانية عاليًا فوق الشّجرة.. إلى أعلى أغصان الشَّجرة حيث تستقر هناك كما لو أنّها ملاك لعين أو شيء كهذا.. شيطان ربّما إذ لا أعرف الفارق.. يعيد إلقاءها إلى الشّجرة.. إلى غلافها.. إلى عرجونها.. إلى فرعها.. إلى جذعها.. وإلى أسفل حيث جحيمها الأرضي وإلى لبّها المشتعل.. فأغلق عينيّ وأفتحهما ثانية فأرى بعض الكلاب تشمشم وتبول، وأطفالاً يبكون إذ لا يبغون الذّهاب إلى المدرسة، الأمر مثل أني أرى. حقًّا أرى هذه الخزعبلات كلّه وكلّ هذه الحركة، أتفهمني يا «كودي»؟ أيمكنكَ استيعاب هذا كلّه؟ لستُ أدري يا «كودي» لكن هذا حيث يتضّح كل شيء بالنّسبة لي.. يتّضح جدًّا حتى ليتناسب كل شيء مع بعضه يا «كودي» أليس كذلك يا «كودي»؟ لعلّ ذلك

هو الأمر.. لعلّ ذلك هو سبب كون البلد جميلة للغاية كما يقولون، لعلّه هذا هو القاسم المشترك؛ حقيقة إننا جميعًا نسير في الاتّجاه ذاته على نحو ما.. وأننا ننتظر الحافلة ذاتها.. ونصعد الحافلة عينها إذ نجلس هناك.. نقف على الدَّرَج بعضنا خلف بعض لنتّجه إلى أسفل نحو الأنفاق.. نجلس في المترو متقابلين كلّ منّا في وجه الآخر لا نتحدّث ولكن نتبادل النّظرات والطَّاقات، نلمس الأشياء ذاتها ونتنفّس الهواء ذاته؛ نفَس داخل وآخر خارج.. داخل وخارج طوال الوقت مرارًا وتكرارًا، لستُ أدري إذ من المؤكّد أن الوضع قاسٍ وقبيح وخربان وتالف وانتهكته المخدّرات، غير أنه ما زال من الجيد العودة للديار، وهذا ما أقصده أنه ما زال من الجيد أن ترى أصدقاءكَ وأخواتِكَ وإخوانَكَ، وأنه ما زال من الجميل أن تشهد شجارهم كل يوم وكل ليلة، هذا جميل كما يقولون، وهكذا نعم، أنتَ على صواب فهذا جميل، أنتَ على صواب برغم أنّكَ لا تعلم ما تتحدّث عنه إذ ليس لديكَ أي فكرة لعينة أنّني لم أذكر لهم شيئًا بالطّبع حيث كان يتعيّن عليّ، صحيح يا «كودي»؟

فتقول أنتَ: أجل.. أجل اهدأ يا «سووت» ونقهقه، فتقول: أجل، أنتَ على حق بشأن هذا يا رجل، إذ كان يتوجّب عليكَ أن تقول ذلك فلِمَ لم تقله؟ فأقول إني لا أعلم وأكزّ على أسناني شاعرًا بالحصى وبمذاق الدّم، وشاعرًا بسريان مادة تي إتش سي وهي المادة الفعالة بمخدّر الحشيش باصقًا الرُّغاء الذي يتجمّع تحت لساني بكثرة ومشيرًا إلى رأسي مردّدًا اسم ألبوم فريق «براغو يونيون»؛ «ديزورينت اكسپريس» يا رجل وانتظروا سيداتي وسادتي، عذرًا

إن رأسي غارق في الضباب ولا أستطيع التحدّث، وها نحن هنا ثانية مع كل خزعبلات بستان الكرز اللعين ما يجعلكَ تتعجّب أي نوع من البساتين اللعينة هو، أي نوع من الكرز نتكلّم عنه هنا، من أين هو فأنا لا أعلم، ثم أصنع ذلك الشيء بأسناني مجدّدًا وأقول: لطالما غِرتُ من أولئِكَ الذين لا ينتهي بهم الحال إلى نبذ أبويهم، أقصد أولئكَ الذين يقدرون على احترام أبويهم، ولا أعني لأنهم ورثوا عنهم منزلًا صيفيًّا أو شيئًا من هذا القبيل، بل لأنهم كما تعرف أمناء وشرفاء وكادحون ومتنوّرون ومكافحون كما تفهم، ولأكون صادقًا ينتمون للطبقة المتوسّطة التي تربّتْ جيّدًا، فهذا هو ما نتحدّث عنه كما تعرف؛ الوافدون الذين لو لم يهاجروا، لتنازلوا عن المنازل الصّيفية في وصاياهم لو أنّكَ تفهمني، فالفضل إذن لأمي التي علّمتْني أن أكافح وأغسل أسناني، و.. أه، الفضل لكَ يا أبي فقد علَّمتَني كل شيء عن محرّكات الاحتراق والفلسفة وعلَّمتَني ماذا يعني أن أكون فخورًا، كما علَّمتَ أختي أن تدافع عن نفسها، وعلَّمتَ أخي أن يتداركَ سُكره وعنفه وترهاته.

يقول «سووت» -إذ أراه أمامي- أتفهمني يا «كودي»؟

«سووت» الذي أفكّر في شقيقته «ڤاستي» التي ندعوها «شيري» أي كرز على اسم الفاكهة، أو ندعوها «نينَه» إذ لستُ متأكدًا لكن لم يكن لاسمها أي علاقة ببساتين «سووت»، ما من ثمّة علاقة مطلقًا لكنّها كانتْ شقيقته التي أفكّر كيف رحتُ لبيتها حيث المطبخ فوضوي تمامًا لكنّها لم تعد تبكي، فقط بدتْ قاسية وشاعرة

بالمرارة حيث نظَّفتِ المكان وراءه بينما الأطفال لدى أحد الجيران، فقلتُ: من خرَّب أبواب الخزانات والصّحون والأكواب؟ فقالتْ «شيري»: أنتَ تعلم مَن؟

إنه «سووت» أخي وشقيقي، لحمي ودمي، حيث كل شيء تقريبًا مشترك بيننا؛ طفولتنا، وكل تلك الذّكريات؛ نصف حياتينا وأكثر من هذا، والآن؟ ماذا الآن؟

هو مختل نفسيًّا ومشرّد وسكّير مع أقراص العقاقير تلك ولعلّه أكثر من ذلك؛ مجنون پارانويا لعين تمامًا، بينما أنا لستُ مثله، فعلى الأقل أنا أعتني بنفسي، الأطفال كذلك لا يشبهونه في شيء مطلقًا، وليس من بيننا نحن إخوته من يشبهه أبدًا في قلة احترامه لنفسه، بل نحن نكافح كل يوم من أجل أن نعتني بأنفسنا وببعضنا، ثم مَن يعتني به؟ لا أحد، ولا هو نفسه حتّى، تلك هي المسألة التي لا يمكن لأيٍّ مَن كان أن «يتنيّل» يتعامل معها، كلّنا نشعر بالسّوء غير أنه ما من أحد يمكنه أن «يتنيّل» يتصرّف! كما أوضحتْ «شيري» التي ساعدتُها فقلتُ: أعلم، فقد قاطعتُه أيضًا، فقد انفجرنا في مواجهة بعضنا وتطوّر الأمر لعراك تقريبًا، ألم يخبركِ؟ إنه خائر القوى لكن حاول الهجوم عليّ، كان الوقت ليلًا عند محطة الوقود في شارع «فلدشتراسه» لدى مدخل محطة المترو؛ حيث اشترينا بعض الجعة وحصلنا على بعض من اللحم البقري، ولا أذكر السبب إلّا أنّي كنتُ ممسكًا بيده إذ حاول أن يهاجمني، كما أذكر أني عانيتُ من الغضب حتى الإغلاق فكدتُ أقتله بيدي

العاريتين -أُدرك هذا- لذا فقد أطبقتُ على يديه، لم أستطع أن أرى سواه.. وجهه ابن العاهرة اللعين، لقد دخل كما لو أنه سيضربني، أمسكتُ بخناقه بشدّة، بشدّة حقًّا، كنتُ أؤلمه حتى إنه بدأ يئن، فقلتُ إن حاول أن يؤذيني مرة أخرى فسأُجهز عليه فعلًا ثم أفلتُّه، وكما تعرف فالمسألة أن أبي وقف هناك على بعدٍ يراقب، لم يفعل أي شيء بل أخذ يضحك بعصبية، متصرّفًا بحنكة محتسيًا الجعة، لكن بعد ذلك أخذ «سووت» يردّد بلا احتكاك: سأقتله. غريب للغاية إذ أخذ يُظهر ساعديه للجميع وبهما الكدمات، وطبعًا كنتُ قابضًا عليه بشدّة، فكما قلتُ لقد ظللتُ مطبقًا عليه بشدّة بدلًا من ضربه حتى الموت.

كدمات داكنة جدًّا أقرب للسّواد، بينما ما فعلتُه هو لمصلحته إذ اتّخذتُ التصرّف الأفضل له كما يقولون فيما طفق هو ينتحب وينتحب، بينما أبي الذي رأى الأمر كلّه لم يقل شيئًا، إذ كل ما ذكره هو أنه علينا التوقّف عن العراك والتشاحن فيما بيننا، غير أني لم أتحدّث إلى «سووت» لمدّة بعد ذلك، من هنا فقد نأيتُ بنفسي عنه أيضًا بسبب المشاجرة، وكذلك بسبب اتّصاله بي في منتصف اللّيل، لم أشأ الإنصات بينما قالت «شيري»: أعلم، وأنا أيضًا كذلك لأنه سرقني، ولأنه أتى إلى هنا بعنفه، وأتى إلى هنا بعاهراته، ولم أشأ للأطفال أن يروا هذا، فليس عليهم أن يروا هذا القرف، ليس في هذه السّن أو على الأقل ليس أكثر ممّا رأوه بالفعل، وليس بقدر ما رأينا، فأنتَ تفهمني إذ قد سأمتُ هذا كله؛ تهيؤات «سووت» الذّهانية، وأكاذيبه واعتداءاته، واتّهاماته وسبابه ووساخته، وعلى

الأغلب لم أُرِده أن يرتكب أمرًا ما معهم ليس لأني أعتقد أنه قد يفعلها لكنّكَ لن تعرف أبدًا.

قلتُ: كلَّا، إنَّكَ لا تعرف أبدًا، كلَّا، معه لن تعرفَ أبدًا بل من المستحيل أن تعرف إذ عليكَ أن تأمل وحسب.. أن تتمنّى وتنتظر، فمن المستحيل أن تتأكّد لأن المسألة على حسب، حيث قالت «شيري» إن الأمر كله على حسب، أي على حسب ما يتعاطاه أو لا يواظب على تعاطيه وما ينتشي به، وعلى حسب من يتشاحن معه إذ ثمّة مشاحنة دومًا، فقلتُ مؤمِّنًا: دومًا، وكلّها يتعذّر حلّها إذ إنّه دومًا بحاجة إليهم، وأنا لا أريد أن أكون مثل طبيبه النَّفسي أو غيره لكنّكَ تفهم، فأضافتْ: كلّا، فلستُ أريد أن أبدو مثل طبيبه النَّفسي اللّعين أو غيره أيضًا، إذ لم يكن لديه طبيب البتَّة، فالأمر ليس بهذه السّهولة اللعينة، أعني الذّهاب إلى طبيب نفسي، صدَّقني فهو لم يكن ليرتّبها سوى مرّتين أو ثلاث، أمَّا أن يأخذ الأمر بجدّية فيفعل شيئًا حيال مشكلاته؟ فانسَ الأمر! غير أنّه كما تعرف تلك الصّراعات لا يمكن حلّها بل إنّه طالما كان بحاجة إليها لأن إدراكه للواقع يختلف تمامًا عن إدراك الآخرين له، بل أُقسم أن عقله محترق تمامًا يا رجل إذ ظلّ يحشوه بهذه العقاقير الكيميائية كل يوم وعلى نحو متكرّر كثيرًا منذ أن كان في الثانية أو الثّالثة عشرة، لم نكن نحيا في العالم ذاته، فكيف يمكننا حتّى إن نتوافق والحال هكذا؟ ما من ثمّة سبيل لمعرفة هذا، فإن حضر لرؤية الأطفال مثلًا، لابدّ من التساؤل: هل معه سكّين اليوم؟ أو رذاذ الفلفل؟ كيف تتعايشين معه؟ كيف تُنجحين الأمر؟ أنا لا أفعل! لم أعد

أفعل! ليس أكثر من ذلك كما تعرف.

قلتُ: كما تعرفين، الشيء المريض هو أني أحيانًا ما أفكّر أنه ما من حلّ لهؤلاء النّاس سوى أنه يتعيّن علينا فعلًا إبادتهم لمصلحة الجميع، فلا يتسبّبون في المزيد من المعاناة لا لأنفسهم ولا للآخرين صِدقًا، حيث لا يتعيّن عليهم إنجاب المزيد من الأطفال، وليس علينا أن نراهم أثناء ذهابنا للعمل أو المدرسة فيما يتسكّعون بأقراص العقاقير ومشروبات «ألكوبوب» الرّوحية المنكّهة الخفيفة جارّين عربات الأطفال، فقالت «شيري»: صدقًا؟ فقلتُ: أقسم، فالأمر كلّه سقيم تمامًا إذ أُقسم أن هذا ما أعتقده؛ لو أن هؤلاء يختفون وحسب فلا يتعيّن عليّ أن أشاهدهم، غير أنه ليست تلكَ هي القضية بل هو مجرد دافع، ضرب من آلية عقلية أو أيًّا كان ما تدعينه، شيء مثل.. -لا أدري- رد فعل ربّما، تفهمينني طبعًا، لكن بمجرّد أن أشرع في التفكير قليلًا، ينتهي الأمر كما تعرفين، غير أن ما أعنيه هو أشبه بي -لو فكّرتُ- أعني عندما تكون قيَمي مختلفة فعلًا تمامًا أو أيًّا ما كان، وكذلك آرائي مختلفة تمامًا فإنّي أفكّر على نحو مختلف، فكما تعرفين لن أفعل مطلقًا شيئًا كهذا، صحيح أنها مجرّد فكرة وإحساس ورد فعل تجاه شيء ما.. تجاههم.. تجاه أسلوبهم في الاستيلاء على حياتي نوعًا، صحيح.. رد فعل تجاه تهديدهم، غير أني أقصد.. ما أعنيه هو أنه إن كان هذا ما أظنّه أنا فما الذي قد يظنّه كل ضبّاط الشّرطة؟ وكل مَن عساه لديه ما يخسره، كل مَن قد يستطيع أن يتصرّف فعلًا من تلقاء تفكيره، أتفهمينني؟ ألا تفكّرين هكذا أبدًا؟

قالت «شيري»: أقصد أنَّكَ لا يمكن أن تفكّر هكذا، فقلتُ: أعلم، غير أن الأمر ليس بوسعي، فقالت «شيري»: فلتحاول، وسمعتُ الملحِّنة تقول: مثل ما يقارب سبع ساعات من پيانو مضبوط جيِّدًا أو معزوفة لـ«رايلي» مقام سي ذات فواصل زمنية صافية كما تعلم؛ شيء من هذا القبيل، من مكان ناءٍ للغاية، ولاحظتُ بزاوية عيني أن هناك حافلةً صفراء تتّجه نحونا بأقصى سرعة، فخطوتُ إلى الجانب قليلًا، وأعتقد أنها حركة متعمَّدة وانعكاسية في الوقت نفسه، أو أن الباعث أتى من خط ما بين التعمّد ورد الفعل المنعكس والوعي، لو أن ثمّة خطًّا كهذا موجودًا أصلًا.

يقول عازف الجيتار: لا أعرف، بيْد أن الأمر أمريكي لعين للغاية أَتعلمُ ما أعنيه؟ إذ لم يكن لشخص كـ«چوليوس إيستمان» فرصة قطّ، قالت الملحّنة: بالضَّبط، ولِمَ تعتقد الحالة كانت هكذا؟ لِمَ جرى امتداح البعض حتّى العبادة فيما عانى آخرون التشرّد والإذلال قبل أن يموتوا كنكرة؟

وبدلًا من الرّد على الملحّنة، أسمع نفسي أقول: لكنّكَ تعرف «سووت»، وذلك لأنّني عليّ دومًا الدفاع عنه، عليّ دومًا أن أقول ثمّة أمر لطيف عن «سووت»، دائمًا ما أحاول أن أجد زاوية إيجابية، دائمًا ما أحاول الوقوف إلى جانبه على الرّغم من أنه ربّما لا يستحق وعلى الرّغم من كونه متشرّدًا جلفًا وسِخًا حسبما سمعتُ «ڤاستي» تقول ذات مرة لصديق عبر الهاتف، لكن كما تعرف لا ألبث أن أقول: فكّر في الأمر، فهو لم يكن دومًا هكذا؛ إذ لمَّا كنَّا صغارًا كان ذكيًّا

ومنتبهًا للأشياء كأي طفل، بشكل ما أنتَ تريد أن تنضج وتتعلّم، لكنّه كان صغيرًا جدًّا على بدء التعاطي إذ دمَّره ذلك. أفترض أن أبويكَ قد غرقا تمامًا في ضياعهما اللعين كما أقول، فكيف عليه أن يتأقلم إذن، إن الأمر ليس بهذه البساطة إذ عليه في مرحلة ما أن يتحمّل مسئولية تصرفّاته الشَّخصية، أي أن الأمر سيرتدّ عليه في مرحلة ما، وها أنا أشيح بيدي منفعلًا في ذهني على الأُقل شارعًا في التحرّك على نحو مختلف كما لو كنتُ في جسد داخلي ما. أعلم.. أعلم فقد أوشكتُ على ضربه حتّى النّخاع، ذلك الوغد الصَّغير، غير أنه لا يستطيع أن يفعل كل ما يشعر به هكذا وحسب ويتصرّف كيفما يتراءى له بلا احترام، لكن أوَتعرف؟ أعتقد كان هذا كله ليختلف، صحيح لماذا لم يكن مختلفًا؟ ولكن كيف.. كيف.. لا أدري، فكما تعلم لم تبدأ المسألة هكذا بل كان الأمر مختلفًا قبل أن يصل إلى هذا الحد؛ إلى حيث أستمر في الحديث أكثر فأكثر ومرارًا وتكرارًا.. كلام وكلام وكلام إلى أن أنتهي إلى مسألة بستان الكرز تلك، وكما تعرف بوسعي وحسب سماع صوت «سووت» مردِّدًا بستان الكرز إلخ.. إلخ.. إلخ هل أنتَ بطيء الفهم يا صاح؟ تبًّا، إنه يضحك، إن صوت ضحكته يشبه الصوت الأجش لمطرب الراپ الأمريكي «توپاك شكور»، توقّف.. توقّف بحق اللّعنة وحسب، لقد اكتفيتُ من الإصغاء إلى قرفك! إن صوتكَ يؤلم عقلي، افهمني..

قالت «شيري»: قُضي الأمر، لقد انتهى بالفعل، فات الأوان كثيرًا ولا يمكنكَ أن تفكّر هكذا، حسنًا، في هذه الحالة كل شيء أفضل كما هو، وليس في الإمكان أبدع ممّا كان، لن يصير الوضع أوضح

أو أسهل، غير أني أفعلها -كما تعرفين- أفعلها وحسب؛ إذ أسير مارًّا بهذا الميدان كل يوم.. كل صباح.. كل مساء.. كل يوم في الأسبوع وغالبًا في العطلات الأسبوعية أيضًا، وأراهم في كل مرّة، لا أعرف أسماءهم لكنّي أتعرّف وجوههم؛ «يوجو» العجوز ذو ذيل الحصان، وتعرفين تلك المرأة البولندية الهتماء، والتّركي النّحيل ذا العينين المنتفختين، ومطرب الهارد روك الضّاحك دائمًا، ثم مروّجَي المخدّرات المحدودان؛ هذان التوأمان، مِن أين؟ لاتينيان أم عربيان؟ لا أعلم غير أنهما دومًا يرتديان بذلة أديداس رياضية، أراهما تقريبًا كل يوم، إذ يظهران بمجرّد أن يلقي بهما سكن الشّباب خارجًا، فأفكّر فيه بل ولعلّي حتّى أفتقده..

ثم ماذا بعد؟ ماذا تقصد؟ أعني وهو كذلك، فما الخلاصة، ما المغزى، ما هو؟ أتقصد أنّنا لكنَّا نحن مكانهم؟ ولكنتُ أنا مكانه؟ حتمًا تلك هي الحقيقة التي ليس لها أن تكون أكثر ابتذالًا! هذا حقيقي، فهو المكان الذي قُدِّر لي بينما فررتُ أنا منه، مسألة «على وشْك يبان» تلك.. المخدّرات.. الجريمة.. الموت.. أوقات التعاطي.. الفُرُش والأرائك الوسِخة.. مساكن الشّباب.. عنابر الأمراض النّفسية.. ساحات المقابر والعشش كلها.. تلك الحياة وذلك الموت.. هذا كله حقيقي، لكن ما الذي يعنيه؟ ماذا تعتقد أنتَ أنه يعني؟ أكيد.. أجل.. أنت على حق، هي ليستْ ضربًا من بوح النّاجين من الذّنب، لو كان هذا ما تظنّه.

ما أشعر به فقط هو الشفقة جزئيًّا والتعاطف والتفهّم، كما أني

كذلك أريد أن أحطّم وجوههم فهم يثيرون اشمئزازي. هل سبق لكَ أن رأيتَ قبلًا شخصًا يعاني انهيارًا عصبيًّا؟ أو أوشكَ عليه؟ الضَّعف.. سوائل الجسد.. البجاحة.. الفقر الرّوحي والثقافي، كم أنه مثير للشفقة؟ وكم هو سخيف؟ أتقول كُره الذّات؟ تريد أن تكون طبيبًا نفسيًّا هاويًا، وهو كذلك ربما قليلًا، هناك حد.. إنه الحد الذي تراه، هو الخط الفاصل بين الإنسان والحيوان، لكنّي في الواقع أعتقد أنه من الغريب للغاية أنه لم يتراءَ لأحدهم أن يتخلّص منهم وحسب؛ إذ إنهم لا يُجْدُون أيَّ نفع؛ أولئك الفقراء.. أولئك الذين لا حاجة للمصانع بهم، والذين لا حاجة لخطوط الإنتاج بهم، ولا حاجة لهم في نظام الرّعاية أو كوقود للحرب أو كبغيّ بالمواخير، لمَ لم يهيكل أحدهم ذلك في منظومة؟ إبادة منظّمة للأرواح غير الضَّرورية، تلك المستهلكة أو غير الصالحة للاستعمال، نزحهم كالصَّرف، إذ لماذا ليس هناك معسكر إبادة لهم؟ أنا لا أفهم! حتّى إنني واتتني هذه الأفكار، حتّى أنا التي لربما كنتُ واحدة منهم، فكما أقول إنه مكان.. -وسأقولها مرارًا وتكرارًا حتّى يتّضح المعنى ويتبلور، وحتّى تتبلور الأهمية الحقيقية خلف هذه الكلمات، وحتّى يصاغ ما هو مسكوت عنه، وبكل وسيلة لا يمكن وصفها حتى الآن، سأكررها- وأجل سأقولها مجدّدًا إنّه المكان الذي قُدِّر لي، بينما فررتُ منه حتّى لو كنتُ قد فكّرتُ أنه من الأفضل التخلّص منهم بالطريقة التي يتعامل بها النّاس مع الأشياء التي لا يجدون لها فائدة، وبالطريقة التي يتعامل بها النّاس مع الحيوانات التي لم يعد منها جدوى، فما يقوله النّاس

حقيقي؛ فكل ما يمكنكَ فعله للحيوان: لجرذ أو لكلب أو لقرد، فما يمكنكَ فعله لحيوان يمكنكَ فعله للإنسان أيضًا، فمسألة أن الحياة البشرية في حد ذاتها لها قيمة هي أمر سخيف، سخيف في هذا السّياق وشاذ وأحمق ويكاد يكون مقزِّزًا، إنه هراء تام، فأي شيء تستطيع فعله لفأر، تستطيع فعله كذلك لإنسان، وأنتَ بوسعكَ أن تفعل أي شيء للفأر، ولذلك فعندما أسير عبر الميدان كل صباح وكل مساء وفي العطلات وبين حين وآخر وحدي أو مع أصدقائي وعندما أراهم وأرى وجوههم وأتعرفها بدون أن أعرف أسماءهم برغم أني أعرف وجوههم وأجسادهم، وفي كل مرة بعينها أفكّر في هذا كلّه، وفي حياتهم، وفي لماذا لم يخطر ببال أي شخص أن يتخلّص منهم، أو بالأحرى لماذا لم يفعل أحدهم هذا الأمر حتّى الآن؟ فهذه الأفكار موجودة في رأسي وفي رؤوسهم بلا شك، إذ إن الانتحار كذلك حلّ بالطّبع، فالجنازة أوفر من كل هذه الرّعاية، وكل تلك المصحّات، وكل تلك المبادرات الشُّرَطية، وبناء كل تلك السجون وصيانتها و.. و.. و.. كلّ تلك الرّعاية المسكِّنة بلا نهاية. كلّ ما يمكنكَ فعله للحيوان، يمكنكَ أيضًا فعله للبشر، أجل فأنا أثق أنه سيحدث كما تقول «شيري»، وأثق أننا سنراه ذات يوم إذ تضيف في ألم.

يقول المصوّر «رييس» لمجموعة من فاعلي الخير: قد تُظهر الصّور شارعًا يبدو غير لافت للنظر تمامًا بالنّسبة إليكم، ولكنّه واحة حقيقية في صحرائهم، إنه محاط من كل اتّجاه بأكوام من التراب مكدّسة بكثافة، وبطَنينِ جيل شاب حقير بائس، غير أن رصيفه

خالٍ نسبيًّا من أولئكَ الأطفال الذين ليس لهم مكان يلعبون فيه سوى الشّارع ممّا يترك انطباعًا بأنه على الأحرى مهجور؛ حيث يسير هناك عدد قليل للغاية من المارَّة، أجل فما يمكنكَ فعله لجرذ تستطيع فعله للبشر، وأنتَ بمقدوركَ أن تفعل ما تشاء بجرذ، أجل يا «كودي» كما قال «سووت» هكذا ينبغي للأمر أن يكون؛ إذ سرعان ما سنموت كالجرذان غرقى وراحلين لنصبح شيئًا آخر، ضائعين، أجل راحلين، فالعالم.. والحياة.. ومثل هذه المفاهيم لم تعد مهمة بعد، وكذا الأرض؛ ذلك الجزء اليابس البعيد عن المياه؛ القارّات والأمّة ومناظر الطّبيعة والمدينة والمقاطعة والبناية والحجرة والفِراش، والغسيل غير المغسول وصدأ المقلاة، والخبز البايت، وذوبان الزّبد، وفِراش المرض، والمَرض..

إنه اللّيل، سأدوّن بضعة أسطر ثم بضعة أُخَر هي الأخيرة بعد ساعة لاحقًا، المكان هو عين كل شيء، أمّا الموت فهو اللّامكانية بالنسبة لنا.. الأثيرية.. نحن المحاصرون، نحن العاجزون عن استعمال مواهبنا، اليأس والحزن والوحدة والأرق تخلق فضاءاتٍ جديدة وجيوبًا من الوقت ذات ضوء متفرِّد وأصوات متفرّدة، أمّا عن كيفية ظهورها فتعتمد على محلّ معيشتك، إذ إن كل شيء يعتمد على أين تعيش، فـ«سووت» يستيقظ حين يكون الجميع نيامًا والعكس بالعكس، إن «سووت» هو انعكاس لشيء ما.. انعكاس.. كائن معكوس من الدّاخل إلى الخارج.. عُمق داخلي على السَّطح .. الخارج بداخله؛ إذ ثمّة عالم كامل هناك، عالم من ردود الفعل والتأثيرات والعواقب، ويقول «سووت» إن الانتحار ليس

خيارًا بديلًا.

لـ«سووت» موقعه أمام النّافذة.. أمام أضواء الشّارع وفوقها، وهو لا يُشبه أيّ شيء؛ لا الصّور ولا الأفلام ولا الكتب ولا الألعاب ولا أيًّا من أروقة الخيال العلمي الأبيض ولا أيّ هراء قاتم كاللّيل ولا أغاني الرّوك الرّومانسية ولا أغاني هجاء الهيپ هوپ ذات نغمات الجهير المندفعة من نوادي الجنوب الأمريكي، إنه فعلًا لا يشبه أي شيء، فحتّى أنا نفسي لا أُشبه نفسي إذ أنظر لذاتي كما لو من الخارج أو من المستقبل؛ فكّرتُ فيما بعد أنه قد تعيّن عليّ أن أعرف أن ثمّة خطبًا سيقع ذاكَ اليوم، وأنه كان عليّ أن أستشعر حدوثه، ألمْ تكن تلك هي الحال؟ ألمْ يكن كل شيء في ذلك الصّباح غارقًا في دعابة بلهاء جيّدة؟ ألم يكن هناك شيء جميل وألطف وخيّر تقريبًا بشأن السّماء آخر النّهار، وبشأن واجهات الأبنية التي تظهر عابرة خارج الحافلة بل وحول صخب المحطّة الرّئيسية كله، وبشأن النّاس على المقاهي ورزم الصّحف والشوكولا، وبشأن ثِقل خطوط السّكة الحديدية والمناظر الطبيعية -الطّاغية المتواضعة بالقدر نفسه- والتي تراءتْ منزلقة عبر نافذة القطار، بشأن المشروبات الخفيفة والقهوة وفطائر القرفة والبوص والمنازل والحقول، بشأن نص هزلي (كأن يتطلع أحدهم إلى نشوات ماجنة)، بشأن طائر بدا أنه يشدو لي وحدي، تلك الحسّية في المعيشة كنُدب رقيقة والجسد الذي تَواجَه بهذا الحب، أجل، كعنوان.. كرسالة حب، لِمَ لا؟ فما تكتَّم قبلًا تكشَّف الآن في النّور إذ تدفّق هذا النّور كثيفًا ملحًّا فوق الأشياء والموجودات وفوق العالم بعُمره وحجمه الهائل حتّى إن

مجرّد لمحة مجرّدة منه، مجرد لمحة مجرّدة لمحدودات جزء ضئيل من هذا كلّه، من نسيج الأبدية الذي لا يمكن تسميته، من تلكَ السّحابة اللامحدودة من عدم المعرفة، جعلتْني أغرق في الحب في مكان ما هناك، وفي ثمّة صياغات كهذه وبتأثير الحب وسذاجته. في هذه المرحلة كان ينبغي لي أن أفكّر أنه ثمّة أمر على وشك الحدوث.. أمر سيؤلم حيث إنّي سأتألّم، ففي ظُلمة عصرنا وفي كون مستديم التمدّد حيث تتزايد المسافة التي تبعدُنا عن أشدّ المجرّات نأيًا حتّى يستحيل أن يصلنا ضوؤها، فإن مهمتنا في الظُّلمة هي أن نصبح واعين بهذا النّور الذي يحاول الوصول إلينا برغم أنه يعجز، تلكَ هي مهمتنا حين تتساقط زخّات المطر على الأرض فجرًا إذ نتسمّع صوتها المكتوم يخرّ في المكنونات الطّرية اللّينة بالأخاديد، في طائر محتال يحلّق فوق سطح الأرض تمامًا مقلِّدًا بكاء طفل، فيهدأ المطر إذ يتكثّف النّور ويصفو الهواء وينجلي، وتضوي بِرَك الماء الصَّغيرة قبل أن تغوص في الأرض، وتطلّ الحيوانات، ومن بينها حيوان الإنسان، إذ يبدو حيوان الإنسان مختالًا.

تقول لأبنائها الباكين: هنا، كلوا وعيشوا، وتضمّهم إلى جسدها، هم لا يعلمون كيف، لكنّهم سرعان ما يتعلّمون بل سيتعلّمون بسرعة حيث سيجدون طرائقهم، فيتعلّمون وينتشرون وينظر كلّ منهم إلى الآخر قائلين: نحن أحياء ثم يموتون فيدفن بعضهم بعضًا وتكبر المدن، إنهم يقولون: نحن نحيا هنا في قلب المدينة، بقرب الميادين والمتنزّهات والمروج والحقول، لقد عشنا طويلًا بالحقول، وبوسعكَ أن ترى ذلك في أجسادنا، في جلودنا؛ إذ نجلس

لنشهد اللّيل ونُفصح عمّا رأيناه، حيث شهدنا قدوم المطر، وعشنا مع الدواب، فرأيناها تُعلَف وتموت فأكلناها ودفنّاها ومنحناها أسماء، وعشنا مع الماكينات فزيَّتناها وأصلحناها، وإذ امتلكنا أسماءَ فقد صرخنا بها وناديا عليها ليلًا ونهارًا حيث أضرمنا النّيران وتوسَّلنا: فليلفّني اللّيل، والآن نجلس في الشّرفات ونطالع التّلال والحقول المشتعلة، نجلس ونحتسي الخمر ونستمع إلى الإذاعة ونطالع هذه الطّيور المحتالة التي تقلّد صراخ الأطفال، بينما ما زلنا نُضرم النيران، ونتجرّع الخمر قائلين: «جمجمة» إذ هكذا تُدعى الفتاة في لغة البدو، فحدود هيكلها العظمي جليّة في ملامحها البالية، فتخبرنا الجمجمة إذن، ذاتَ مرّة اصطحبتُ أبنائي معي من مدينة إلى أخرى في أقفاص وفي حاويات، وقد دوّنتُ على أقفيتهم أسماءهم وتواريخ ميلادهم، بمقبرة جماعية من أيّام الحرب العالمية الأولى رأيتُ الأسماء مختلطة، هناك رأيتُ كل شيء مختلطًا، كانتِ الجمجمة هي جدّتي الكبرى التي جاءتْ من الجانب الشّرقي واعتادتْ أن تقول إنها رأتْ نجمًا قانيًا في السّماء ليلة وُلدتُ، بينما تحدّثتْ أسرتي عن الأمر كثيرًا في صِغري، وعمّا قد يعنيه هذا وعمّا قد تقصده جدّتي الكبرى حقًّا بالنّجم، لم يكن قبل سنواتٍ عِدّةٍ لاحقة أن توفّيتْ جدّتي الكبرى بينما أخطو نحو سني نضج رجولتي حين تلاشى الجانب الشَّرقي كله، أو هو على الأقل جانبها هي الشّرقي، عندما أُزيل الجدار الخارجي فأصبح الجانب الشَّرقي تحت إمرة الحاكم الجديد، لم نشرع قبل ذلك الحين أن نسأل أنفسنا ما الذي عنتْه بالقاني إذ بدا جليًّا الآن

أن عتمة الجانب الشَّرقي وعتمة جدّتي الكبرى ليستا كعتمتنا.

قبيل وفاتِها قالت هي -أي الجمجمة- اسمُكَ يا «كودي» يذكّرني كيف اعتدتُ أن أحملَ جمجمة وجدتُها في كنيسةِ قديمة.. حملتُها من مدينة إلى أخرى فقد نقلوا القبور ونبشوا هياكل عمرها مئة عام، ودوّنوا على الجماجم أسماء وتواريخ ميلاد الرّاحلين، واعتدتُ أن أركّز بصري مطرِقةً إلى أسفل نحو الأرض وإلى عقباتِ طريقي وإلى الحُفر والمطبَّات بأسفلت الطريق التي رأيتُ فيها شيئًا من الدَّلالة إذ طُليتِ المطبَّاتُ والمنحنيات بالورد وبعبارات «لا تنسَاني» وبالقرنفل وزهر البورسلين، وذاكَ ما قالتْه جدّتي الكبرى إذ هي الآن مثل جمجمة برأسي، كدماغ مليء بالأسماء والتّواريخ والزّهور، بهذه الطّريقة لربما تواصل بعض نواحي مشهد عالم الجانب الشّرقي البقاء. أنا الآن بلا وزن أتأمّل عبر السَّقيفة المفتوحة إلى السّماء فأرى أسراب الطّير المغرّد تحلّق بالجوار، طيور تنهض في الغسق قبل أن تقطع الظّلمة الطرق السَّانحة أمامها، وأتذكّر مشاهد الانتحار في ساحات الأبراج السكنية الخضراء في طفولتي، وقاعة المرايا السّحرية، وطالما أثار ذلك جنوني، لكن ما الذي عساه أثار جنوني؟ ثراء التنوع أم العكس؟ هذا وحده أم الحقيقة المتجانسة؟ الشيء الذي أثار جنوني.. الشيء الذي أخرجني من طفولتي صراحةً ومن كينونتي السّاذجة ومن فطنتي هو الإدراك الذي جاء أوّلًا مُسهبًا ومستترًا ولا يمكن إيضاحه، قبل أن يتحول إلى مكاشفة ثم ضرب من الخبرة والفهم المصاغ جسديًّا وفكريًّا؛ إدراك أن بعض الحيوات لا تستحق أن تُعاش، إدراك أن تلك الكذبة

مهيمنة وأنه ما من أحدٍ بإمكانه فعل شيء حيالها.

الصّور تومض وثمَّة شيء ما يلمع، إذ في صِغري عاش طفل صغير ذو أربعة أعوام في الطّابق الأرضي ببيت على الجهة المقابلة من شارعنا، سأسميه «أنطونيو» -بالطّبع كان اسمه غير ذلك- فهذا الضَّرب من الطرائف به بالضّرورة دومًا درجة من الاستحالة؛ لذا يتعذّر عليّ أن أخبركَ باسمه الحقيقي، المهم، ذاتَ مرة رأيتُ «أنطونيو» يتناول فِلّ البوليسترين (الفلّين)، يقف هناك أحيانًا يبول من نافذة غرفة نومه مرتديًا حذاء رعاة البقر شديد الضَّخامة وقد اعتاد أن يردّد أنه قد اغتصب شقيقته، فإن وقعتْ مشاجرة بالحي -يحدث هذا غالبًا طالما أن «أنطونيو» موجود- فإنّه يسعى لإخافة خصومه متوعّدًا إيّاهم قائلًا: «ستَرون»؛ لأن أباه يعمل بالسّجن. أحد زملاء فصلي -فلندعه «أولوف» بالرغم من أنه أيضًا له اسم آخر لا يمكن ذكره كذلك- يسكن أعلى «أنطونيو» بطابقين، ولأنه قصير وهزيل جدًّا اعتاد النّاس بالمنطقة هناك أن ينادوا اسمه مسبوقًا بكلمة «ليتل» أي الصَّغير، ولذلك فلنقل إن اسمه «ليتل أُول»، لم تقع عيناي قطّ على والد «ليتل أول»، ولستُ أدري لعلّه يعمل مع والد «أنطونيو»، لكن أمّه كذلك كانتْ قصيرة جدًّا ونحيلة، ومدمنة بلا عمل، لا أعرف ما الذي تعاطتْه إذ لم أكن ملاصقًا لها إلى هذا الحدّ، لكن ذاتَ مرّة وإذ رُحتُ لدار «ليتل أول» لنلعب على الكومبيوتر لعبة پونج، وجدتُ الشَّقة وقد خلتْ كلها من الأثاث، فدخلنا المطبخ الذي فاحتْ رائحته الوضيعة، وفي منتصف الأرضية حيث مكان طاولة المطبخ المعتاد سابقًا وُضعتْ عبوة

أكياس قمامة سوداء ضخمة، ما أتذكّره هو أنّها كانتْ ممتلئة عن آخرها غير أنّي لا أستطيع تذكّر محتوياتها مهما حاولتُ، وكذلك لا أستطيع تذكّر ما إذا كنَّا استطعنا معرفة ما حدث للأثاث، لكنّي أظنّه على الأرجح في حيازة المُحضَرين المكلّفين بجمع الأشياء التي يمكن توجيهها نحو استخدامات أفضل من وجهة نظر الدّولة، أو لعلّها أمّه وقد باعتْ كلَّ شيء يمكن بيعه بُغية الحصول على المال من أجل أمر أكثر أهمية حينئذٍ.

لا أعلمُ وكأنّ ذاكرتي قد توقّفتْ هكذا وحسب، ثمّة ما يتوقّف في المطبخ إذ تنغلق الغرفة من حولنا؛ طفلان في حوالي العاشرة أمام كيس قمامة أسود ذي محتويات مُبهمة يصلُ إلى ذقنيهما، صورة تومض للحظة ثم ماذا بعد؟ تكشف النّقاب عن مغزاها؟ لا تُشاهَد ثانيةً؟ أيُمكن الإمساك بالماضي حقًّا هكذا؟ كيف يُمكنكَ توفيق هذا التقلّب مع ضخامة واستمرارية تلكَ التّجربة؟ وما الحقيقي في تلكَ اللّحظة المفصلية؟ حقيقة مَن وتاريخ مَن؟ فأنا لا أدري؛ إذ إن جُلَّ ما أعلمه هو أنّي مُقيَّد بها وأن هناك دومًا المزيد ممّا يُمكن أن يُقال حولها، دومًا هناك المزيد حتّى عندما يكون الأمر هادئًا، وتمرّ الأيّام.. بل تسقط الأيّام ببطء كلفائف بتلات ناعمة.. أسابيع.. شهور.. سنون، فنكبر أكثر وينسى كلّ منّا الآخر، وتبهت خطوط وجوهنا، ونتذكَر أشياء أخرى بالكامل، فكل شيء يبدّل أطواره مرارًا وتكرارًا، فنجهل في النّهاية ما الصّواب وما الخطأ، وأين بدأ شيء وانتهى آخر أو ما علاقة أمر بآخر؛ أيُّ أفكار تخصّ السّلطة والحريّة لها علاقة بهذا الانفجار العظيم بتلك الغرفة،

أفكار حول الشّدّ والجذب بين الإمكانية والضّرورة، أو بتلك الصّورة المتبدّلة لحذاء رعاة البقر الذي يخصّ «أنطونيو» وفُتات الفلّين بزاوية فمه، إنّها أكثر من مجرّد صور إذ أُكرِه ذاتي على الكتابة، إنّها أكثر من مجرّد كلمات بل هناك المزيد دومًا، فوراء كل صوت جوقة، ووميض من الأجساد لو أنصتُّ لسمعتُ الصوت ينحت في الجدران، فأرى تجمّع الرّجال عبر النّافذة المؤمَّنة بقفل بارز، وعشرات الشّباب يتعاونون على إزالة الأسلاك الشّائكة قبل عودة الشّرطة.

أتذكّر كون الطّقس جميلًا في الفجر وفي الغسق، كما أتخيّل العنف الشنيع كل يوم تقريبًا، وأنّني قد أقتل شرطيًّا خنزيرًا بيديّ العاريتين، أو أقتل رجلًا عدوًّا لي، حتى إني أتصوّره أحيانًا يشبهني، ينقلوننا عبر الأنفاق التي تعطّلتْ أضواؤها في سيارة مسروقة طراز «رينو» جديدة بحالة الفابريكة، بينما أفكّر في الجبال ذات اللون الأزرق المعدني خلف حدائق الورد وفي الجُزر الصَّغيرة البادية عند نور الفجر والحقول البور الممتدّة، وعلى حين غِرّة وبلا أي مقدّمات أتذكّر فجأة ضوءًا هائلًا غامضًا، ولو ثمّة شيء واحد تعلّمتُه فهو الحذر من تسمية الزّمن والمجتمع بأسمائها الحقيقية، وأن تشقّ طريقكَ كأنّكَ في حلم رديء دون التلفّتِ يمينًا أو يسارًا وشفاهكَ مطبَقة على نفسها وعيناكَ في وسط رأسك، أوه، وكما يقول «هوميروس»: اجبُرني في اللّيل وأحِطني بالنّار المقدّسة، فهل هذه صلاة؟ هل «سووت» مَن يُصلّي؟ فلتدعْني أخرّ ضحية طوال الوقت لكن بيدِكَ وحدكَ، أجل، كان يصلّي في المساء مستلقيًا

في الفراش، والسَّقف والضّوء البارد من النافذة بمحاذاته، يداه مضمومتان على صدره، أجل، حتّى تلك فعلها مثل الطفل: أبانا الذي في السماوات؛ هذه تقريبًا مزحة، فلترحمني يا الله، بالزّنزانة، هكذا توفي «سووت».

أجل، بالضّبط وهذا يتّضح تحديدًا في «أنتيفونا ناخ هيلدرجارد فون بينجن»، إذ قال عازف الجيتار عند تلك النّقطة في نبرة نصر نوعًا ما لم تدخل رأسي إذ فاتني غالبًا أمر جوهري في حجّته غير أنه أمر متعلّق بالفرق بين نوتتَيْ بوردوون وأوستيناتو، وفي عين تلك اللحظة نفسها، سمعنا دويًّا قويًّا خلفنا، وصوتًا معدنيًّا غريبًا حادًّا نوعًا لكنّه طريٌّ سميكٌ ومجهول المصدر كذلك، عرفتُ ماهيته دون فهم حقيقي واستدرتُ فأدركتُ حينها أني سمعتُ صوت فرملة؛ احتكاك مكابح أو انزلاق إطارات عبر الأسفلت أو شيء كهذا، فضلًا عن ضرب من صوت هسيس وتنفيس كذلك، ورأيتُ حافلة تعترض نهر الطّريق وأمام تلك الحافلة شخص ودرّاجة، كلٌّ ملتفّ حول الآخر، يتعذّر إيضاح ما كنتُ أنظر إليه خلف واحدة من الإطارات الأمامية، وكأن عقلي عجز عن فهم الصّورة واستيعابها.. سمعتُ صوت نشيج ورأيتُ امرأة في معطف برتقالي تُهرع نحو الجثّة للنَّجدة حسبما أفترض، رأيتُها تلتف حول الجزء الأمامي من الحافلة وتنحني لكنّها أجفلتْ وكأنّ قوة خفيَّة قد جذبتْها أو أعادتْ تموضعها فأشاحتْ بصرها ووجهها عمّا رأتْه تحت الحافلة، واهتزّتْ يداها وارتعشتْ بطريقة غير مألوفة وغريبة أمام وجهها، فارتأيتُ أن نقترب دون أن ألحظ أني قد

وضعتُ درّاجتي جانبًا مستندة إلى قضبان الجسر حيث انتقلتُ إلى موقع الحادث الذي قد جذب نحو عشرات الأشخاص، ومن بينهم سائق الحافلة الذي راح يهرول أمامًا وخلفًا وقد رأيتُ وجهه.. ذلك الوجه الرّمادي المُنهك المستنزَف مع القميص الأبيض قصير الأكمام ورابطة العنق الحمراء، بينما شاهدتُ أشخاصًا عِدّة يتّجهون نحو الضّحية ويخرجون هواتفهم؛ لذا فقد توقّفتُ إذ أدركتُ أن عازف الجيتار والملحّنة يقفان إلى جواري، لا بد أنها كانت مسافة نحو أربعة أو خمسة أمتار من العجلة الأمامية للحافلة، لم أستطع منع نفسي من النّظر إذ أرى الآن السّترة السّوداء وقلنسوتها السّوداء والدّم وشيئًا ما أبيض يبرز خارجًا من بين الملابس الممزّقة وأجزاء الدرّاجة فأشحتُ ببصري، إذ فكّرت أنه هو، إنه هو، السكّير، إنه هو، شبه ميت.

زهرة نبات الشمع؟ هل حقًّا زهور البورسلين هو ما فكّرتُ فيه إذ أقف بجوار القناة مستندًا إلى ظهر الواجهة المتناسقة لقسم الشرطة؟ ألمْ تكن براعم الكرز؟ ألمْ أرها على إفريز النافذة؟ أهي كذلك، أم أنها في الفناء بالحديقة لدى السّياج؟ أكانت كذلك؟ أم أنّها كانت بالمتنزّه بجوار الجسر؟ أجل في المياه المتماوجة الهادئة السّاكنة. قال العازف بعد برهة: يجب أن نذهب، لستُ أدري كم من الوقت قد مرّ لكنّه كافٍ كي ينتابنا الإدراك التّام أنّه ما من شيء بوسعنا فعله، ما من شيء على الإطلاق، حيث شاهدنا المسعفين يأتون للتعامل مع الجثة، بينما يعتني شخص آخر بالسّائق وقد أوشكتُ أكثر من مرّة على أن أفتح فمي لأتفوّه بشيء أو لأقول إني

قد التقيتُ هذا الشَّاب قبلًا عند القناة لدى قسم الشّرطة، بل منذ هنيهة صغيرة مضتْ فقط قبل مجيئكم غير أني لسبب ما عجزتُ عن فعلها، فلم أعلم من أين أبدأ، أو من أي نهاية، أو من أي انطباع حسّي، والآن بات العازف صامتًا أيضًا بينما لم تقل الملحّنة سوى يا للمسيح، يا للجحيم اللّعين، وردّدتْها عدّة مرّات، ثم سرنا نحو المحطة الرّئيسية فابتعنا تذاكرنا وهبطنا بالسلّم الكهربائي إلى أرصفة القطارات وانجرفنا للأسفل، فشعرتُ أنّي بحاجة للصراخ كي أصبح مفهومًا برغم أن العازف والملحِّنة يقفان إلى جواري، قريبًا للغاية، حتّى إن بوسعي سماع أنفاسهما وهفهفة وحفيف ملابسهما.

فكّرتُ مرّات عديدة أن الأمر هكذا؛ لا إراديًّا لا أكثر ولا أقل من دون أن أعرف حتّى ما قد يعنيه، هكذا هو الأمر، هذه حياتي التي ينبغي لها أن تكون بهذه الصّراحة والاستبدادية الشّديدة، مات السّكير وأنا وحدي من بقي، لاحقًا وفيما ما زلتُ على السلّم الكهربائي المتّجه للأسفل وللأسفل وللأسفل، طفقتُ أفكّر أن المسألة بلهاء وأن أفكاري بلهاء وأنني أبله، فاستقللنا القطار في صمت بينما أخرج العازف هاتفه وأخذ يعبث به، فنظرتُ إلى الملحّنة التي أغلقتْ عينيها كأنّها تدلّكهما إذ أخذتْ تفرك جفنيها بأصابعها، فانتهزتُ الفرصة لأرجع رأسي للخلف مغلقًا عينيّ كذلك، واستقرّت يداي على حِجري فيما انزلق القطار عبر «أوريصاند»، نزلنا عند «نورپورت» وأخذنا نتجوَل حتى وصلنا الكاتدرائية، فذكر العازف شيئًا عن حادثة سيّارة تورّط فيها

حيث هرب الجميع ناجين بأنفسهم، وأظهرتْ لنا الملحّنة ندبة حازتْها جرَّاء حادث تصادم سيّارة تقلّها بأحد حواجز الطّريق، وصلنا الكنيسة ودفعنا رسم الدّخول وجلسنا تمامًا في المقدّمة على يدكَ اليسرى وكلّ منّا لديه نسخة برنامج الحفل في يده، ثم دلف «كريستوف ماريّا موسّمان» وكنتُ لأغازله بمجرّد أن جلس إلى النّوتة، تلفتُّ حولي ناظرًا إلى الأورغون وقد شرع يعزف مقطوعة «پارت» «أنّوم پير أنّوم»، ثم بدا كلّ شيء يتهيّأ لخاتمته مليئًا بالثّقل والخفّة حيث تتمدّد القاعة وتنكمش كما لو أنّها تتنفّس فتنفّستُ معها، وبعد أقل من ثوانٍ من بدء اهتزازات الوتر القويّة أطلقتُ أنفاسي، قبل أن أبقي رئتيّ خاليتين لباقي الدّقيقة التي تواصل فيها عزف هذا المقطع، ثم لمّا انحسر هذا المدّ أخذتُ نفسًا صاخبًا وعميقًا وبدا صاخبًا أكثر في الكنيسة كما لو أنّي تحت الماء أصارع من أجل الطّفو على سطحه حيث الأكسيچين فيما كان الصّمت والسّكون على أشدّه، وما إن بدأ عزف أولى تلك النّوتات الدّقيقة الخفيفة الواهنة العابثة حتى شرعتُ في التّفكير في «سووت» وفي تلك الليلة الأخيرة، وفيما فعلتُه وفيما كنتُه، وفي «كيكو» و«راونا»، وفي تلك الحافلة على الطرق الدائرية، وتلك الحركة الدائرية وقوى الطرد المركزي التي دفعتْني خارجًا تجاه كل شيء كقوى شيطانية، كان من المفترض أن نخرج و«نقضيها» -كما اعتدنا أن نقول- فاستمتعنا في منزل «كيكو» وواصلنا لاحقًا لنلتقي بـ«ديما» و«بيكي» و«أرجو» و«صايما» و«فرناندة»، لا أعرف مَن أيضًا، ربما «هانسن» أو «زولتان» أو «ڤديم» حيث كنّا متّجهين إلى

منزل «إلسا ڤي» لنأتي ببعض الهراء ونقضي لها شغلانة سريعة، فتركنا واحدًا هناك مباشرة واضطررنا للانتظار ساعة على الأقل قبل أن تدعنا ندخل حيث بدا أن أمورًا كثيرة تجري عندها وأن أشخاصًا كثيرين يمرون عليها، فأعطتنا العِدّة وانطلقنا لنبحث عن البلغاري «سلوڤاك».

قبلها بعدة ليال، كنت أجلس في سيارة «أربن» المازدا 323 الرّديئة التي عليها حظر قيادة، منتظرًا «هانسن» الذي كان يهرول في الأنحاء محاولًا بيع قطع شوكولا من نوع «ناين» التي جلبها من «كريستيانيا» بينما المذياع يبث أغنية جديدة لأحد مطربي الراپ الجدد، إذ قال «أربن» لـ«كيكو» -الذي جلس هناك يومئ ويتمايل مع الأغنية- إنه يكره هؤلاء العصبجية الملاعين على حد تعبيره، ويكره هذا الأسلوب البلطجي بالكامل مستنكِرًا: ما هذا حتى؟ وأخذ يردّد إحدى أغانيهم:

«إيه انت في ايه هناك، جدع ماسك الكرباج»

ثم أخذ يقلدهم ساخرًا:

«الشاشة بتلوّن والراجل بيموّن يللا نفك بسرعة نفك»

مضيفًا بتعبيرات كالبلهاء:

«بدلة بتلات شرايط وعضوي مصحصح جامد،

الكلام يضحك يا زنجي،

ده الكوكايين خدني خلّاني مهيبر»

فضحكنا على ما يفعله. قلت: لأن عضوهم هائج، لكنه كان جادًّا إذ قال: تبًّا، أُقسم أنّي أكرههم بشدّة، اللعنة، أعني أن تحيا تلك الحياة فعلًا أمر -وأنا لا أعترض-، والتباهي والثّرثرة عنها بتلك الطريقة وخداع الصِّبية للظنّ بأن الأمور كلها رائعة و«ملعلطة» أمر آخر، فهذه محض خزعبلات لا يا رجل، بل هو انحطاط تام بلا مزاح، فارتأى «كيكو» أن عليه أن يهدأ قليلًا قائلًا إنها مجرّد موسيقى، غير أن «أربن» قال إنها أكثر من ذلك، بل هي التّرويج لأسلوب حياة بعينه وأنه بالنسبة لأيٍّ ممّن رأوا هذا النمط من المعيشة فإن تسعين بالمئة منها قلق، فقلتُ إن كلّ ما ذكره هو أنه من الأفضل أن تحيا تلك الحياة بدلًا من أن تغنّي الرَّاپ عنها، فعاد «أربن» ليقول: لكن ليس هذا ما قصدتُه، فأنتَ نفسكَ تعلم أن تسعين بالمئة منها فوضى، فقال «كيكو»: مهلًا، ما الذي تثرثر بشأنه، كذا بالمئة وكيت بالمئة كما لو أنّكَ تعمل في بنك أو شيء كهذا، بالطّبع يمكن لهذه الحياة أن تكون محفوفة بالقلق، لكن فلتعترف أن بها أوقاتًا هادئة كذلك إذ مَن ليكترث لو لم يكن بها بريق و«لعلطة»، غير أن «آبّه» أصرّ قائلًا: اسمع يا رجل، صدّقني إنها تتشكّل من تسعين بالمئة من الهلع إذ تعجز عن النّوم طوال الليل فيما رفاقكَ.. إخوانك قد يطعنونكَ في ظهركَ في أي وقت هكذا وبلا سبب، بل ليس حتى من أجل المال، ليس من أجل كريم تفتيح البشرة حتى يا رجل بل بلا سبب، فقط لأنهم خائفون ومنهكون أيضًا وعليهم أن يلعبوا اللّعبة اللعينة لوجه الله، «توني مونتانا»

هذا وذاك وثرثرة البلطجة اللعينة تلك التي لا يمكنني حتّى الاستماع إليها، فهل سبق لأي شخص مطلقًا أن شاهد الفيلم كله، ألا يعلمون نهايته، فقلتُ: أتظنّ أنّك تقتلني بالرّصاص؟ سأتلقى رصاصاتكَ اللّعينة! بينما استلقى «كيكو» على قفاه من الضّحك قائلًا لـ«أربن» إنه ينبغي أن يصبح سياسيًّا أو أن يعمل في منظّمة «أنقذوا الطّفل» أو شيء كهذا، ألا تفهم أن الموسيقى فن يا زميل، فما تقوله ليس صحيحًا، آلاف الأشخاص سيخبرونكَ كم أن تلك الحياة سيئة، فيغنّون الرّاپ عن القلق والانتحار حتّى «بيجي» والكثيرون فعلوا، لكن أتعلم أن عليهم أن يكونوا أقوياء وواقعيين في الوقت نفسه، كما تعلم ينبغي أن يلقوا احترام الشّارع، ففتح «أربن» النّافذة وبصق قائلًا: حقيقي، فلتذهب يلعن أمّك، هذا حقيقي، ثم جذب قميصه وأرانا النُّدوب تحت ذراعه، غير أني لا أغدو أتصرّف كقرد لعين، فابتسم «كيكو» قائلًا: نعم، نعم يا صاح فأنتَ قوي لكنّكَ لستَ عصبجيًّا، بل أنتَ مجرّد لصّ محدود النّشاط يا رجل، لصّ دراجات، أنتَ تشيخ حتّى إن صبيًّا في الرّابعة عشرة ليسرقك، ولا تُسئ فهم ما أقوله لكن مَن ذا الذي قد يغنّي الرَّاب عن أمرٍ كهذا وعن كونك متوتّرًا قلقًا وفقيرًا وعاطلًا ومدمن كيمياء وفاشلًا ضمن الفشلة؟ فاهمني يا زميلي، أعني فلتنظر إلى سيارتكَ وحسب يا رجل، أليستْ بالضّبط إعلانًا عن نمط حياتك؟ استشاط «أبّه» غضبًا وقال إنه بإمكاننا الخروج منها لو أنها حقيرة هكذا.

وإذ ظننتُ أنهما على وشك الشّجار فعلًا، التفتَ «هانسن» قائلًا إن الرّجل يأبى الدّفع، وإننا أيضًا مراقبون الآن على الأرجح إذ إن

الأبله اللّعين نسي أن يحذّرنا، و... مفاجأة.. مفاجأة.. لقد أوقفنا الضبّاط الخنازير بعد ثلاث دقائق لاحقًا إذ أوقفونا في طابور عند الحضانة تمامًا أمام الأطفال والعاملين الذين أخذوا جميعًا يحدّقون بينما يجري تفتيشنا ذاتيًّا وتفتيش السيّارة المازدا التي احتجزوها برغم أنه ما من أحدٍ فينا يحمل أي شيء فاضطروا إلى إطلاق سراحنا، فاتّصلنا بـ«ديما» الذي جاء بعد حوالي نصف ساعة وأقلّنا إلى المنزل حيث كنتُ آخر مَن أوصله، فعرفتُ حينها لم ظلّ «أربن» حانقًا؟ إذ إن أباه قد حُكم عليه بثمانية عشر شهرًا عقوبة واعتقدتُ أنه عليّ أن أُسرّيَ عنه، فاتصلتُ به قائلًا: يا صاحبي، لقد أحضرتُ زجاجة «بكاردي» فهل ترغب أن أتيكَ ببعض الكوكايين لنتعاطى القليل استيو كوبانو أي بالطريقة الكوبي؟ فضحك منّي وقال: لا تكن أخرق، فقلتُ: ماذا؟ فقال إنه لا يريد إزعاجًا حيث «سيضرب» بعض أقراص مخدر البنزو ويشاهد فيلمًا أو شيئًا كهذا استيو كوبانو أيضًا، أنتَ بطيء الفهم تمامًا يا رجل.

بعد ساعتين لاحقًا، اتّصل «هانسن» إذ باع قطع «شوكولا ناين» وجاء وقت القبض يا زميل، فهل أنتَ معنا بالجولة التالية؟ بينما لم أكن أرغب في المزيد حقًّا، غير أنّي فكّرتُ في المرة الأولى التي ذهبنا فيها إلى «كريستيانيا» لشراء البضاعة وقد جاء الجميع كلّهم باستثناء «ماركو» الذي ارتعب تمامًا قائلًا إننا سيُقبض علينا، وإن لم يُقبض علينا فسنصاب بأحد تلك الأسلحة الكبيرة، فقلنا له إن عملك كـ«ناضورجي» يساوي المزيد من المال لنا يا رجل،

ثم جرى كل شيء على ما يرام بلا مشاكل على الإطلاق واستطعنا أن نجني المزيد -ليس الكثير- لكن كما تعلم أكثر قليلًا بينما كان عليه أن يعمل بكل تلك الوظائف المختلفة الرّسمية منها وغير الرّسمية وغير الشّرعية، لكنّه ظل مع ذلك فقيراً يحاول أن ينجز صفوفه الدّراسية وما إلى ذلك، وفي النهاية توجّه إلى نادٍ ما ليفرّج عن نفسه، لكن الجوزة «ماركة سايكوباونسر» التي يتعاطاها بدأتْ تجرّه إلى المشاكل حتى سقط «ماركو» وحُكم عليه بخمسة أو ستة أشهر للتعدّي الجسيم، فذهبتُ لرؤيته في أسبوعه الأول، فقال إنه قد ندم على رد الاعتداء كلّه، فالأمر كان غير ذي جدوى، فدومًا ما تفهم الأمر خطأ بغضّ النّظر.

ثم فجأة وعلى حين غرّة، أقف أمام «إلسا» مجدّدًا والفريق كله خلفي هذه المرّة، تقول ناظرةً إلى عينيّ مباشرةً بينما تتفرّس في الوجوه التي تحيط بي: ما الأمر، لقد أحضرتَ أصدقاءكَ هذه المرّة؟ ويقهقه «ديما» بجرأة: وجوه جديدة، طالما أنهم حلال، أعطيتُ «إلسا» النقود فاستعادتْ وجه النَّمِرة ملقيةً نظرة على ورق المال وطوته ثم دسّته في جيبها، أمدّ يدي بينما يقهقه الآخرون أيضًا وأقول شكرًا بسرعة قبل أن تعطيني أي شيء، فتردّ إذ تأخذ يدي في راحتها: ولك بالمثل، فلتستمتع بحكمة.

أضع الحقائب واللّفائف التي طواها الصِّبية لها جانبًا، ثم تُخرج هي الحقيبة الكبيرة وحقيبة ظهر زرقاء داكنة وتسلِّمهما معًا. تقول: اعطِ هذا لـ«سلوڤاك» وسيسلّمكَ النّقود، فكن حذرًا

واخرج في دقيقة من ذلك الطريق الذي سلكه الآخرون للتّو مشيرةً إلى الباب بالخلف، أقول: شكرًا، فتستدير وتبتسم: نعم، لقد قلتَ هذا بالفعل، استرخِ فالأمر على ما يرام.

لديها ندبة على ذراعها ومطبوع على قميصها عبارة: موت محتوم، نخرج فندخل النّادي مجدّدًا عبر باب يحرسه رجل ضخم للغاية، قصّة شعره تشبه قصّة شعر الملاكم الروسي «أيڤان دراجو» في سلسلة أفلام روكي الأمريكية، يرتدي قميص پولو أسود وسلسلة ذهبية ثمينة فوقه، تسألني «بيكا»: أتريد شيئًا تشربه؟ فأجيب: لا، شكرًا، فتخبرني عن ذلك الرجل الذي حاول لعب دور البطل، تقول: حضر ومعه نقود قليلة وأرادني أن أخرج معه في موعد على العشاء، فذهبنا إلى مكان ما يشبه زاوية لبيع الفلافل لكنّها أرقى قليلًا وتقدّم الأطعمة الإيرانية؛ فتناولنا الأرز الجميل الذي أحبَّه، ثم قال إنّه سيعتني بي حيث وعدني أن يكون كل شيء رسميًّا كما تعرف قائلًا: سأحميكِ وأنّي في وجوده معي لن أتعرّض لأي أذى، ولقد شعرتُ بالاشمئزاز للأمانة، فنظرتُ إليه وسحبتُ شوكة الطّعام وطعنتُ بها نفسي في الذّراع فأحدثتُ بها أربعة ثقوب عميقة للغاية، جلسنا هكذا وحسب لبرهة بينما بدا عليه الألم واليأس تقريبًا فيما شعرتُ بالوحدة لكلينا على ما أعتقد، فحاول استكمال بقية طعامه في حين تناولتُ بعض المشروب ووضعتُ فوطة الطعام على ذراعي قائلة إنه عليّ العودة إلى المنزل وتطهير الجرح، فسألني ما إن كان بمقدوره أن يأتي معي، فشعرتُ كما لو سأغرز الشوكة في عينه غير أني أجبتُ بـ طبعًا وحسب بدلًا من

ذلك، ضحكنا على الرّجل، ونهضتُ.

- سأذهب للتبوّل.

- انتظرني، فأنا أكره الأضواء البنفسجية.

من الغريب أنها ظنّتْنا من الشّرطة، لا يمكن أنها ظنّتْ ذلك بحق اللعنة.

- كيف حالكَ يا «كودي»؟

- أنا بخير، أنا بخير، لديكَ دماء على عقلة أصبعكَ، بل على عقلات أصابعكَ، وهي تقطر.

- اللعنة، لم ألحظ.

- أسف، ماذا حدث؟

- لا شيء، هل تقاطر أيٌّ منها عليكَ؟

- هاكَ تفضّل محرمة، كيف تبلي؟

- جيد، رائع؛ فتوقّف عن السؤال طوال الوقت، فأنا ينتابني الفزع من سؤالك عن حالي طول الوقت اللعين، كيف تبلي أنتَ؟

- رائع، فاقد الحماسة قليلًا، لا أدري.

- أسف، لكن على أي حال كيف لنا أن نجد السلوڤاكي؟

- إنّه ليس سلوڤاكيًّا، هو فقط يُدعى كذلك، هو تقريبًا مجري

أو بلغاري أو شيء كهذا لستُ أدري، هو فقط قواد وسِخ في كل الأحوال، هل الجميع هنا؟

- نحن هنا.

- هل أحضرتَ الحقائب؟

- أجل.

- وقطع شوكولا ناين؟

- أجل، لقد جلبتُ كلّ شيء، ما الذي هم بصدد فعله فوق؟

- هيّا، فلنذهب، علينا أن نجربها.

فنتوجّه إلى الحانة، ثمّة مكان رديء فيه دارة التّنشين وماكينة قمار وتلفاز يعرض مباراة كرة قدم، فطلبنا جعة مع مخدّر الأسيد، وذهب «ديما» إلى المرحاض كي يجرّبها، ويخرج فتستطيع أن ترى مباشرة بجلاء أنه منتشٍ جيّدًا حيث يؤدي حركة سحب ماكينة الكاشير بساعده، ثم يأتي دوري ويصير كل شيء مبهرًا فجأة كما تعرف الطريقة التي يعمل بها المخدّر.

ذات صباح استيقظ «سووت» على أرضية منزله في «پرويت إيجووي» حيث استطاع أن يحطّم كل ألواح الزجاج في نوافذ الشّقّة، وها هي الرياح الباردة تعصف بالشّظايا، ويداه غارقتان في الدماء حيث تمزّقت مفاصل أصابعه كلها بينما يظهر منها ثمّة شيء أبيض كغضروف أو عظمة، وقد أصابه النّظر إليها

بالدّوار، فغسل وجهه وظهْر يديه بحرص في المطبخ، وعاد إلى المرحاض ليجمع الأشياء المتناثرة على الأرضية، وعندما أنهى لمّ كل أدوات النّظافة والمناشف والحليّ، جمع كل شظايا المرآة ووضعها في برطمان زجاجي كبير جلبه من المطبخ؛ القطع الكبيرة أولًا ثم بمكنسة يدوية جمع الأصغر فالأصغر، ثم بمكنسة شفط كهربائية سرقها منذ عام أو اثنين قبلًا من موقع أحد المباني جمع الفتات الصغيرة وشذرات الفضّة والزّجاج التي لا تكاد تُرى، ثم جلب قطعة قماش مبلّلة ومسح أغلب آثار الدماء على الأرضية وعلى الجدران وبعضًا ممّا بغرفة المعيشة والمرحاض فيما تلسعه جروحه وتحرقه.

مرّت «شيري» عليه وجالتْ ببصرها في المكان وشيّعتْه بنظرة شديدة مشيرة إلى يديه وقالتْ: ربّما عليكَ أن تضمّد هذا، خرج صوتٌ ما من حلقه والتقط عقبًا من السَّبارس من على الأرضية وأشعله، فقالت «شيري»: سيكون الجو باردًا الآن.

- تبدين مختلفة.

- مختلفة؟

- ليس مختلفة بالضّبط.

- كلّا، ما من شيء مختلف.

- الأمور هي ذاتها، أجل، فالمستقبل بدأ هنا بالفعل، لكن الأمور فقط ليستْ مقسَّمة بالعدل، إن الأمر خادع يا صاح أتفهمني؟

- كلا، لا أعرف، أو ربما هو كذلك أعتقد.

- انتظر، هيّا، فلنذهب، فلنخرج من هنا، إلى السيّارة.. بعيدًا.. فوق.. تحت، فليس ثمّة دليل لعين إلى أين بالضّبط.. للخارج إذن.

يقول «رييس» من على خشبة المسرح: ولمَ لا يوجد هناك صور للعشوائيات بينما هناك صور لباقي الأغراض الأخرى، كالپورتريه والمناظر الطبيعية والمعمارية. إن «العشوائيات» من منظورنا الخاص يمكن تعريفها كساحة ضيّقة مظلمة تعج بعدد من النساء والأطفال البؤساء الذين يتسكّعون عند مداخل البيوت -خاصة في أوقات اعتدال الطقس- إذ إن حظ هذه الجماعات من سقوط أشعة الضّوء واهٍ للغاية جرّاء تلك المباني الشّاهقة المحيطة بالأزقّة الضّيّقة ممّا يتطلّب معه عدسات أقوى من المعتاد لتحقيق تعريض ضوئي مناسب للصورة، وإلى حين يجري توفير عدسات مناسبة لحالات العشوائيات فلا يمكننا التوصية بأكثر من عدسات ملونة قوية، فتلكَ منطقة سانحة لمزيد من البحث وستُجزي الآن كلّ مَن يهم بتناول المشكلة بما أن الموسم اقترب.

بعض الكبار هدّدوا باغتصاب «بيكا»، ولم أجرؤ على التفوّه بأي شيء مستيقظًا في المساء بمكان آخر إذ تبخّر اليوم سريعًا، فساعدتُ «كاتي» في تسهيل خدمة الحصول على كارت واسطة للعمل بالدّعارة، أو كما أسمتْها «ورقة صغيرة»، وأشعلتُ بعض البخور والصّندل خارج الباب، فقال «ديما»: هيپي لعين، بينما يمرّ النّاس بالشّرفة الطويلة إذ هكذا تسمّي «سانّا» الطّرقات بينما

يلعب الأطفال القفز والكرة وتناولنا البيض المقلي بأيدينا مباشرة من المقلاة الكبيرة، ولعق كلٌّ منّا أصابع الآخر قبل الرّقود على الأريكة للعب البلاي ستيشن، غططتُ في النّوم هكذا فحلمتُ أني بإمكاني أن أمتص ذاتي.

في اليوم التّالي التقيتُ «كيكو» عند بعض المحال بحوزته قاطع كهربي ما، دخّنّا قليلًا في بلادة فانسطلتُ حتّى تغوّطتُ على نفسي حرفيًّا إذ قبعتُ تحت طاولة القهوة وتبرّزتُ في بنطالي فاضُّطررتُ لخلعه مستعيرًا ملابس أحدهم الدّاخلية، فطردنا بعض الملتزمين عسر اليد من المكان، ورُحنا نهيم على وجوهنا ومؤخراتنا متجمّدة من البرد إلى أن التقينا «هانسن» و«آدي» اللذين قدّما لنا بعض الڤودكا، وانتهى بنا الحال بفضلهما في حفل ما حيث صاحبنا إياه المترنّح بفعل مخدّر الأسيد يلفّ في المكان مرتديًا قميصه الضيّق ويغطيّ حبّ الشباب وجهه ويتحدّث في أي هراء، كان الجميع «مدهول» ومغيَّبًا تمامًا لكنّه أسوأهم حالًا، ودارتْ ثرثرة مُرسلة عن هندسة أعشاش النّمل والحشرات الذكية وطائفة التنويريين من الصّيارفة، استغرق «آدي» طويلًا في النقطة الأخيرة وصار الأمر كثيرًا عليّ، وقد أثار هذا الشّخص هلعي اللعين ولمّا أخبرتُ «سانّا» قالت: وأنا أيضًا؛ لذا قرّرنا أن نجرّب أن نهرب سريعًا من المكان برغم وجود بعض فتيات الليل حيث أراد «سودي» مضاجعة إحداهن، لكن أوّلًا سرقتُ بنطالًا رياضيًّا ونشلتْ «كاتي» مجموعة أسطوانات كومپيوتر وزجاجة چن وعلبة كاملة من مثلّجات «كورنيتو»، فأدركتُ أنّي قد نلتُ كفايتي وأريد العودة للمنزل

الآن، غير أنّنا ظللنا نتجوّل لفترة ونستقبل البرد بدلًا من ذلك، فلم تسعفنا المثلّجات فأعطينا ما تبقّى منها إلى أحد المتسوّلين الذي يفوح بعطن البول فلاحتْ على وجهه تعبيرات غريبة، ثم صعدنا إلى الحافلة، فبدأ الجميع في الحديث عن كرة القدم، فأرسل «كيكو» نظرات ناريّة للبعض دون أن يحدث شيء وأنا تضايقتُ، بينما أخذ «آدي» يسترسل عن فيلم ما يدور حول ضرب من عنز السّحالي أو سحالي العنز وعملاء ذوي أشعة تخاطرية ورؤية بأشعة أكس وميدوسا بكامل طاقم الأفاعي الخاص بها!

وأنا جالس بالحافلة لا يمكنني الحراك، شعرتُ أن العيون تحدّق بي، بردانٌ وفمي ممتلئٌ بالسّكْر حتّى انتفخ متورّمًا إلى حدّ ما، شعرتُ بالغثيان وتساءلتْ «بيكا» كيف بحق اللّعنة نجحتُ في التعاطي مع هذا كلّه حقًّا؟ قهقهتُ قليلًا فيما طفق «آدي» يضحك حتّى دمعتْ عيناه وانبرى يغنّي كطفل صغير عن البلهاء أو «الهبيلة» -كما يقولها باللكنة الأيرلندية- الذين لا يكترثون لأي هراء، ثم بدأ يهذي عن هراء طائفة التنويريين مجدّدًا وعن فلان وعلّان ممّن يملكون كذا وكيت، فقلتُ له: هل أنتَ نازيٌّ يا رجل؟

انظر إلى بنطالك فيما الحافلة تلف وتدور طوال الوقت كحلزونة الملاهي متوقّفة ثم متسارعة.. متوقّفة ثم متسارعة، وإذ فجأة أشعر بتحسّن حتّى أني بدأتُ «أنكّت» وأسخر من بنطال «آدي» الضيّق الممزّق فيما تجاوبتْ «بيكا» قائلة: انظر إلى سترتكَ وتقليماتها الثّلاثة يا رجل، أيّ نوع من الأزياء الرّسمية هذا على أي حال؟

لا أفهم يا صاحبي فليس ثمّة فارق بأي مكان أنتَ أو بأي بلد.. غني أو فقير.. الجميع لديه هذه الخطوط الثّلاث على سراويله وقمصانه وستراته وكنزاته ما لم يكن لديه علامة «صح» الخاصة بماركة نايكي أو أيًّا ما يدعونها، لكن ألم تعلم أن صبيان أديداس هؤلاء نازيون؟ أقسم أن الشخص الذي بدأ الأمر كله أصلًا اسمه «أدولف» ويدعونه «آدي» مثلك تمامًا يا صاحبي، إن الأمر مثل أن يكون الاسمان «أدولف» و«عدنان» معًا كالشيء نفسه تمامًا على نحو ما، فاهمني، كأنه لسبب ما قد أصبح زيًّا رسميًّا لعينًا للعصبجية حول العالم، فالنّاس التي تعيش في حفر خرائية جليدية في سيبيريا النّائية يجولون مرتدين كنزات وحقائب ظهر مليئة بكل أنواع الهراء الذي نرميه في سلال القمامة، وتعلم أنهم يتجولون على ما يشبه المنحدرات برغم أن الطّقس هناك أدنى من درجة التجمّد، كذلك الرّجل، تعرفه، «إيب» ذو خفّي السّجن اللذين ينتعلهما طوال العام؛ فحتّى هما لهما نسخة ماركة أديداس مصنّعة ممّا يشبه مصهور البلاستيك المُعاد تدويره بأحد المصانع الصّينيّة السّامة التي يُصاب فيها الجميع بالسّرطان؛ بسبب سمّية الجو والماء والغذاء والسّجائر المصنّعة ممّا يشبه جذور نبات التّبغ أو أي خراء ما.

في النّهاية تستقر السّموم في الملابس أيضًا، الملابس التي يرسلونها إلى فيالق الفقر المُدقع الصّديقة وإلى العصبجية الملاعين.. الحثالة الذين يظنّون أن ثلاثة تقليمات على ملابسهم قد تجعل منهم ملوكًا، يا رجل على رسلِكَ! إنّكَ إنّما تنشر دعاية مجّانية لشركة

أنشأها شخص نازي وحسب، أقول لكَ يا صاح إن الأمر لا يتعدّى هذا إذ إنه فقط في الثّمانينيات ولمجرّد تجوّل أحد الأشخاص ملتحفًا بسراويل أديداس باتَ الآن يتعيّن عليكم جميعًا الحصول عليها، لكن، تبًّا، لكان بوسعكَ أيضًا أن تضع تلك السّاعة الضّخمة حول عنقكَ كأخينا من فرقة «پابليك إينمي» للرّاپ، فلمَ لا تفعلها كما قالتْ؟ فيما أصدر «آدي» صوتًا غريبًا بلسانه قائلًا: اسكتي، تبًّا لكِ واغربي عن وجهي، فقلتُ: أليس عندكَ حجّة أفضل؟ عليكَ أن تفنّد هذا «الزّفت» الذي تقوله هي، فهل أنتَ جندي أم حثالة؟ غير أنه لم يقل سوى اسكتْ أيّها الدّاعر اللّعين وحسب، وقالها بالرّوسية، وساد صمتٌ طويل، فشعرتُ بالتّعب حتّى انهرتُ نائمًا في أي مكان مسطولًا تمامًا.

ثم التفتَ إلينا «آدي» والضّحكة من الأذن إلى الأذن اللّعينة، قائلًا: كُفّا عن الرّقاعة وأنصِتا لثانية، وإذا به يخبرنا عن كتابه عن الأبجدية؛ ذلك الكتاب الذي أسماه ألف باء رواية القصص، بينما رآه الجميع بليدًا لعينًا، يدور الكتاب حول «أ» الذي يروي قصّة يتكلّم فيها «ب» بشأن أسلوب حديث «ج» عن «د» الذي يصف ثرثرة «هـ» عن حكي «و» بخصوص تخريف «ز» ذات مرة حول طريقة فهم «ح» لإعجاب «ط» بانتقاد «ي» لأسلوب «ك» في توضيح «ل» فرضية تفوّه بها «م» بشيء عن نيّة «ن» إعلان أن «س» أحيانًا ما يطنطن بخصوص حقيقة أن «ع» تناول سيرة «ف» الذي روى أمرًا عن تأكيد «ص» قول «ق» ذات مرّة إن «ر» أكد حقيقة أن «ش» أشار إلى أن «ت» ذكر أن «ث» اعتاد النّميمة

حول المرّة التي صرخ فيها «خ» على «ذ» إذ ألمح أن «ض» عليه أن يتوقّف عن الكذب بخصوص ذلك النوع من الحكايات التي يرويها «أ»!

الفكرة أن «سووت» كان ليشرح هذا كلّه غير أنه لم يعرف كيف لكَ أن تشرح شيئًا كهذا حيث لا شيء يحدث كما تعرف، الأمر كلّه محض ثرثرة، وما من صور لذا فقد خطّط ورسم وجوهًا فظّة ذات أفواه تحمل داخلها أفواهًا ضخمة مفتوحة، أو كما قال: كتلٌ داخل كتل ذات ألسن وأسنان وثغور وتجاويف الحلق أو أيًّا ما تسمّى؛ ثغور سوداء تحكي وتستجوب وتشكو وتعلن وتهمس وتؤكد و.. و.. و.. هكذا دواليك مرارًا وتكرارًا ومجدّدًا كعقدة لعنها اللّه كما يقول «سووت» كهذه السلالم، تعرفها، التي تستمر في الصّعود إلى الأعلى وإلى الأعلى في دوران أبدي.

وعندما عرض «سووت» تلك الرّسومات والمخطّطات على «هانسن»، قال له: جيّدٌ، لديكَ الموهبة لكن كما تعرف عليكّ فعل شيء أبسط حتّى يلقى تقدير رجل الشّارع، أنتَ تفهمني؛ شيء أوضح وأبرز، واستردّ «سووت» اللوحة متظاهرًا بالبصق على الأرض قائلًا: كفّ عن التّرهات يا أخي، فأنا رجل الشّارع أيّها الحمار، ففتح «هانسن» عينيه على اتّساعهما قائلًا: وهو كذلك يا رجل، اهدأ وارسم إذن شيئًا يفهمه الحمار في الشّارع فهزّ «سووت» رأسه بحيث صار الآن الجميع يرمقون «آدي» بنظرات جانبية، بينما هتف أحدهم: «آدي.. أيدِى» يلّلا، فعلينا أن نذهب،

ثم انطلقنا وخلال ثوانٍ قليلة كنّا في عراك مع متسوّل حثالة عند ماكينة الصّراف الآلي وقد فقَدَ أحدهم أعصابه قليلًا، صرختُ في بعض الأوباش الإيطاليين الذين لم يتحمّموا منذ شهور: مَن أنتَ بحق الجحيم بالنّسبة لي، لسوف أصفّي عائلتكَ كلّها أيّها الوغد، وقلتُ لـ«بيكا» إنهم ينامون وسط كلابهم، أُقسم أن هؤلاء الحثالة الخرائيين وساخات وهوام طفيلية حقيقية، ثم ضحكتُ مقرًّا أن لا بأس، فأنا نفسي لم أستحم أيضًا منذ شهور، وقلتُ بسخرية وبشيء من القذارة وصلابة الرأس العنصرية: «أنا أعرف أن لديّ رأس عضو أبيض وناشف عفِن»، فقالت: لمَ تخبرني بذلك أيّها الحيوان؟ أتريدُني أن أسدّ فمكَ بسدادات الدّورة الشّهرية؟

قال «آدي»: فلتسمحْ لها ولا تتصرّف كعاهرة، فقالت «صايما»: إيه؟ أحا، انتبه لكلامك ولا تتحدّث كضبّاط الشّرطة، فضحكنا جميعًا. عند تلك النّقطة كنتُ تقريبًا قد انتهيتُ، مرهقًا غير أن نهر الطّريق مثل سِير تحميل يستحيل إيقافه، تجاوزنا «ليميتز» ودخلنا نحتسي بضعة كؤوس تكيلا فيما وقف أحد السكارى ذو بنطال جلدي على المشرب يتظاهر بعزف جيتار خيالي على طريقة فرقة «يوداس پريست»، وأخذ «آدي» يتقافز إلى أعلى وإلى أسفل كعبيط حقيقي صارخًا: حياة الشّقا، حياة الشّقا على اسم فرقة الهيپ هوپ الأمريكية، بينما قصّتْ «بيكا» تلك النّكتة التي تسأل فيها ضباط الشّرطة ما إذا كان أحدهم أو إحداهنّ أو جميعهم حتى -حسبما تعرف- يتحدّث الفرنسية، فيرد نفيًا بطريقة خنفاء: نو، فتسأل مجدّدًا: ماذا؟ فينفي مجدّدًا بنفس الطّريقة الخنفاء: نو،

النّكتة أنّكَ لو تخيّلتَ الموقف جيّدًا وعدّلتَ الحوار في رأسكَ تلقائيًّا، فمن خلال تكرار الرّد سيأتيكَ انطباع أن الشرطي يقلّد صوت الخنزير، ثم ضحكتْ قبل أن تكسو الجدّية وجهها ثانيةً لتسأل ما إذا علينا أن نحرق قسم الشّرطة، بيْد أنه لم يسمعها أحد لأنهم كانوا جميعًا يتكلّمون طوال الوقت.

أغلقتُ عينيّ وأطبقتُ جفنيّ فأصبح لديّ ما يشبه مصباح لاقا هناك بداخلهما، ثم بحثتُ عن «كيكو» حولي فلم أستطع أن أراه، يا «كيكو»، أين أنتَ يا «كيكو»؟ وثمّة مادة مخاطية مطّاطة حمراء وخضراء وبيضاء تطفو ببطء فشعرتُ بالغثيان قليلًا لكنّي حاولتُ تجاهلها فيما الجميع يصرخون قبل أن تقول «بيكا» مجدّدًا: تبًّا، علينا أن نحرق مركز الشرطة مصنع أولئك الخنازير، ولم يسمعها أحد، ثم للمرة الثّالثة: تبًّا، فلتكن قوات الشّرطة إذن، ألا ينبغي أن نتوجه لحرق خُمّ الخنازير الشُّرَطي عن بكرة أبيه؟ ولكن لم يستمع إليها أحد، ثم رأيتُ «سانّا» و«آدي» واقفيْن هناك يتحدّثان إلى البلغاري الذي أعلم أنه قد باع مخدّر الـ«هورس»، فعلمتُ أن الأمر قد انتهى لليوم والأمس والليلة، واعتقدتُ أنني قريبًا لن أستطيع مواصلة التأقلم، فقلتُ لـ«بيكا» إني بدأتُ أشعر بأني متعبٌ قليلًا مشيرًا إليها بأني على وشك الانصراف، سائلًا إيَّاها ما إذا تودّ مرافقتي.

لدى «رييس» صور ممتازة للمشارح ودواخل المصحّات ودور رعاية الأطفال والسّجون والمستشفيات العقلية والمدافن؛ فأظهر

صورة لثلاثة متسوّلين عميان قائلًا إنه تمكّن من حرق منزلهم بالخطأ نتيجة توجيه غير دقيق أو نسبة غير صحيحة من شحنة الفلاش التي انطلقتْ وقت إطفائه (ضحك متواصل للجمهور)، تسوّلنا السّبارس من النّاس بالمحطة الرّئيسية، ثم أرانا «سووت» كوّة لم أشاهدها من قبل خلف بئر السّلم، فتسلّلنا إلى هناك حيث يجلس مجموعة من الأشقياء على صناديق الكرتون باديًا عليهم الخوف منّا قبل أن يطمئنهم «سووت» بإيماءة وببضع كلمات لم أفهمها، وجلسنا تحت نافذة نلف سيجارة محشوة بالمخدرات، ورحتُ أشاهد «سووت» يعلّم على الحائط ثم مرّرنا بقايا السّيجارة للأطفال، وانصرفنا مارّين بكومة من أكياس النّوم متّجهين إلى الأسفل نحو ما يشبه قبوًا انتشرتْ فيه الأضواء كثيرًا وحيث الجدران بدتْ حمراء ثم خضراء قبل أن تتبادل الإضاءة مجدّدًا، وإذ نسير قال «سووت»: لقد وعدتُ أننا يومًا سنذهب إلى البحر، لكن كيف سنصل إلى هناك، فقال «رييس»: لطالما أردتُ أن أشهدَ لُبَّ الأشياءَ بأم عينيّ وليس عبرَ يقينَ النّاسَ الذين لمْ يرَوا سوى جانبٍ ما وحسب، أو أولئكَ الذين لم يسبقْ لهم قطّ أن رأوا رأيَ العين؛ الأكثرَ من ذلك أنّي حدّدتُ معيارًا ساذجًا مؤكّدًا أعتمدُه في تقييمِ الحياةِ في العالمِ السُّفليّ؛ وهو أن كلَّ ما يعمدُ إلى ازدهارِ الحياةِ واعتناقِها وإلى رخاءِ الصّحةِ الرّوحيةِ والجسديةِ هو حتمًا أمرٌ صالحٌ، بينما كلُّ ما يضرُّ ويخنقُ ويكبّلُ الحياةَ هو حتمًا أمرٌ طالحٌ.

جلستْ «بيكا» بواحدة من الغرف، عملتْ لورديتين فنامتِ اليوم

بطوله، وقد رغبتِ الآن أن تنفصل عن المجموعة بينما أخذتْ تلحّ علينا: فلنفعل شيئًا، لقد حصلتُ على يومين إجازة عليّ أن أعمل بعدهما أسبوعًا متواصلًا مجدّدًا، ولستُ أكترث بحق اللعنة للشيء الذي نفعله، لكن علينا أن نفعل شيئًا ممتعًا، فقلتُ نعسانًا: لا أدري، فقالت «بيكا»: فلنستقل الحافلة، أو لنستعِر سيارة من شخص محترم ونتّجه مباشرة إلى السّاحل، ونأخذ لنا «نفَسين» ونرتاح على الرّمال، ونعوم عراة في البحر، بالضّبط هكذا. تبًّا.. القفز من فوق المرتفعات وغيره، واحضر كمانك واعزف لنا فيما نستظلّ ونستمتع، سيكون الأمر رائعًا لعينًا، لقد قلتُ لكِ ألف مرّة إنها ليستْ كمانًا، إنه تشيللو لعين ولن أحضره إلى أي مكان، ألا تذكرين حين كنا نعيش على حافة المحجر، في ذاك الصيف حلمنا بالعدالة للجميع حين جلسنا هناك ندخّن على حافة المنحدر، المراهقون، الأغبياء إستيوپيدوس، حمقى حقيقيون بينما خلع «پونيبوي» أربعة من أسنانه قبل أن يصل الخامسة عشرة، وأجرتْ «زاندة» عمليتَيْ إجهاض في عام واحد وهو رقم قياسي في ناحيتنا بالبلدة قبل عام من بلوغها السادسة عشرة، وبدأ «إيب» الاتّجار فيما اعتزل «زولتان» وأصبح طالبًا مُجدًّا غير أنه ما زال يتسكّع معنا، وأتانا «لارسن» بأول قطعة سلاح لنا، وهكذا حتى بدا كما لو أن كل شيء حدث ذلك العام، كما تعرف فقد كان العالم ملكنا حيث تدلّتِ الشّمس كبرتقالة لعينة فوق المياه مشرقة فوق المرتفعات في الأصيل على أجسادنا النّحيلة الصّغيرة، هو ذلك الصيف الذي تعرّفنا فيه قانون الشّرف الماليزي (لكَ ثلاثة تحذيرات، يحق لي

بعدها قتلك ولو بيديّ العاريتين) ووقعنا في حب فتيات پولنديات حليقات الرأس يتقلّدن الصلبان الدائرية ووشوم الصّلبان الكلتية على خدودهن وجباههن وظهورهن ومؤخّراتهن فأخبرناهن أنهن لا يمكنهن أن يكنّ نازيات هنا، فقلن: أيّها الحمقى نحن شماليون أجلاف هنا وقد رسمنا الشّرر الكهربي والجماجم والأزهار على أجسادنا لأننا حلمنا بالعدالة للجميع، ومن الواضح أن ذلك تضمّن الصّلبان الدّائرية على الوجه والدّموع بزاوية العين؛ دمعة لكل عام بالسّجن؛ فكما يقولون دمعة موشومة لكل سنة محكومة، لكل صديق ما عاد مكانه معلومًا، لكل النّدب والجراح المكتومة تلك التي تتفاقم وتتزايد كل يوم وكل شهر صار محتومًا، تعلم أنتَ حين يمسي الجو مأزومًا حين لا يبقى أحد يتسمّع كلامًا وما يُجسر على الوفاء إلّا لُمامًا؛ لذا أغمض عينيكَ وانسَ وأغلق النّافذة وانسَ وأحكِم الباب وانسَ الشّأن كله، اعتلِ الفِراش واغفُ وانغلق كما يقولون لتدعَ الأمور كلّها تختفي، وضِع ذاتَكَ في حلمكَ إذ سرعان ما سيأتونكَ قائلين: يللا، باي! وقتكَ قد حان أنتَ يا من ينتقونه الآن، أنتَ يا من على المحفّة، يا من ينوح أصدقاؤه أولئكّ ذوو المخاوف الجديدة والنُّدب الجديدة، فكما تعلم يا أخي -كما يقال- هكذا هي تصاريف الأقدار، كمحارب حقيقي كما يقولون.

ونظرتْ لي «بيكا» ونظرتُ إليها، وقلتُ بالطّبع أتذكّر ما قالوه وكل ذلك اللّغو عن الحرية والعدالة، لكنه كلّه مجرّد لعب عيال، إذ لن تدركَ قبل سنوات إلى أي مدى تضرّرتَ، وإلى أي حد أُتلِفتَ وستريد أن تخبر الصّبية وستريد أن تحذّرهم كأخ أكبر، ستريد أن

تخبرهم أن هناك حياة أفضل، وأن هناك طرائق أخرى نحيا بها، وأنه ليس عليكم أن تخافوا أو أن تظلّوا تدافعون عن أنفسكم طوال الوقت، لكنّكَ لن تفعل وحسب، لن تقول لهم أي شيء لأنك تعلم أنهم لن يفهموا ما تقوله، ولا مرّة، وحتّى إن فهموا ما قلتَه لهم، فلن يأخذوه على محمل الجدّ، لن يفعلوا وحسب، فهم لا يسمعون تمامًا كما لم نسمع نحن، فلن تدرك إلا بعد سنوات لاحقًا أن كلمة حرّ موجودة، كلّا، بل إن كلمة حرّ موجودة غير أنها بلا معنى، أقصد أنها لا تشي بأي شيء في الواقع تمامًا ككلمة يونيكورن أو الحصان وحيد القرن وككلمة إله أو لا أعلم لعلّها تشي بشيء ليس ماثلًا أمامي، بالأصوات الموجودة في سمّاعات الرّأس التي تسحبُ جزءًا من العالم حولي، فإن أغمضتُ عينيّ اختفى كل شيء، ويصير بوسعي الآن أن أفكر فلا أكزّ على أسناني مجدّدًا مثل «سووت»، وكذلك لساني ساكن غير متورّم أو غارق في الدم، أُغمض عينيّ وأُنصتُ.

أنا «كودي» غير أني لا أعرف ذلك أو لعلّي أعرف غير أني أتظاهر بالعكس، وأتظاهر أني سأعيش وأكبر وأنضج فأختبئ في ركن بنادي الشّباب وأنصتُ لتلك الموسيقى السرّية، وحياتي السّرية وحياتي الحقيقية، أتظاهر أني أنا ألعب، وأتظاهر أني صرتُ شخصًا بالغًا يتحدّث بحرّية وسهولة مازحًا وجادًّا، وأرى نفسي أشير إلى النّوتة الموسيقية فيما أناقش شيئًا ما؛ انتقالًا أو اهتزازًا بينما ذراعاي ومرفقاي ورسغاي وأناملي كلّها خفيفة للغاية ورشيقة ومتّزنة وموثوقة، فأنا شخص هادئ وغير خائف؛ أفسّر

أمرًا أو أعرض شيئًا على التشيللو حيث تستند راحتي باسترخاء على القوس، لكن خارج زاوية عيني أرى تجاوز الجنون وشك الجنون وضغط الجنون عليّ وفي داخلي، والجنون يهدّد بعقابي إن لم أستجب، سائلًا عمّا سأفعل، ضاحكًا على الأصوات الخارجة من سمّاعاتي، فأضحك في المقابل وأنهض إذ يقول: سأحضر الآخرين وأخبرهم، فأوقفه وأضربه بركبتي في الفخذ، وها أنا الآن أضحك عليه بدلًا من العكس لأني أرى مباغتته، فقد اعتقد أني سأنحني فالجنون يغوص في جسد وينهض في آخر، فأركله بضع مرات في الرّبلة وأضغط بجبهتي أرنبة أنفه مع نطحات صغيرة كي أدفعه بعيدًا، إيقاع نابض ونمط متكرر وتقلّب منتظم بين نقاط أقوى وأخرى أضعف، في دورات متكررة من أنواع متعدّدة.

متواليات تشيللو «باخ»، من أي لعنة أتيتَ بها أيّها الواطي الصّغير!

اخرجوا من هنا و«لكمة من رضيع» و«روسيّة» فلا يصبح أحد غيري موجودًا هنا بالغرفة، لكن لساني ما يزال صامتًا غير متورّم غير أني أعرف الآن أني «كودي»، وهذا كلّه لا شيء سوى منتجات ضائعة وتنمية متعطّلة وسمّيات يغسلها حاكم الجنون ويطردها من منظومته، هو حلم دولي لكائنات تستطيع تبديل شكلها فتصبح شيئًا آخر كما لو تستطيع أن تتوجّه لطفل وتأخذ مسحة من فكّه ثم تروي ذلك في المستقبل، وسيضحك مهرّجو «كيوتو» على التصوير الرّومانسي للغابة الأزلية والوجوه مشذّبة

الهيئة المنتشرة حولهم وسيُسكنون عروض الباليه الحداثي في داخل فصوصهم الجبهية، فيما ستتفتّح زوايا عظام حواجبهم للداخل مثل العدوى حتى تستطيع اللبؤة أن تحفظ البيضة دافئة محتضنة مرضى الذهان المستترين حتى يختلطوا بالفصاميين المكشوفين عبر العقاقير المخدّرة التي يتعيّن غمسها بدورها في الدوپامين في أحواض السّباحة، في أحواض السباحة حيث يُطلق هذا كلّه ويتمازج، في أحواض السّباحة حيث تنعكس سواتر المؤثرات العقلية كلّها.

يقول «كودي»: يا لها من شجرة متوحشة لعينة تلك، قاعات ديسكو «رووتس ڤايب بمعنى الإحساس بالجذور»، والهراء، ثم ها نحن أولاء مجدّدًا بلا ولا مليم لا في جيبي ولا في البنك، ومجرّد جرعتين أو ثلاث من اللّغو الفارغ في زجاجة الكوكا، وآخر قرص من مخدّر روفي أو الروفينول قد نفد من حوزة المرء الآن، فقط حباية أخيرة من فضلك، نوبة من اضطراب أحادي القطب، هكذا قالوا لكننا تمهلنا يا صاح، فكل ما بجيوبنا فقط كارت بوسطة قديم بحواف ممزقة، إيصال ملفوف على نفسه، ولفّة فارغة، لحيظات من أوقات كانت أفضل، أجل فالأمر ميؤوس منه صحيح كما يقول الأطباء عندما لا نوجد لنسمع ما يقال، لكننا نعلم فنحن لسنا أغبياء كما قال «ماركو» إذ ذهبت لزيارته في الأسبوع الأول، فمجرد ملابسنا الرّثّة وديوننا لدى السلطات لا تجعل منّا غليظي الفهم، كما قلتُ للشرطي الخنزير قبل أن يصفع باب الزنزانة بضحكته الخسيسة الوغدة.. ضحكة الشرطي.

استطرد «ماركو» بنظرة عجيبة على وجهه: أقسم أننا قرأنا كل هذه الكتب، فما الذي سنفعله بحق اللعنة بكل هذه السّنوات بداخل السّجن؟ فصدّقني يا رجل إننا نعرف كل شيء عن ورق الشّجر والفواكه المختلفة وأوقات الحصاد، ومرض الـ«أنهيدونيا»[4] والمستقبِلات المختلفة وعن قرف مثل نموذج الاستعداد الوراثي للإجهاد، هل سبق لك قراءة الكتاب المقدّس، أيّها الوغد؟ أخبرتُكَ عندما تأتي إلى هنا، تتوالى الاكتشافات كدوران السّاعة؛ واحدًا تلو الآخر كالألعاب النّارية الصينية أو كخيط اللؤلؤ، فقد قلتُ لك لم يكن لينبغي لكَ أن تمنحني وقتًا للكومبيوتر، أو ورقة وقلم إذ ما يقع الهراء المفخّخ دومًا إلّا عندما أصل عقلي بالإنترنت، إن جاز التعبير، فأنت تفهمني، لا تنهمر الاستنتاجات والتحليلات والأفكار إلّا عندما أخوض في هذا العك. قال «ماركو»: أتعلم أنه بإمكانكَ طلب نسخة من سجلاتك؟ ما يجعلها قراءة لطيفة، فالمتلازمة التعاطفية تجعل من المستحيل أو على الأقل من الصعب أن يكون للأمر نمط وظيفي، وتنوّعتِ الآثار على امتداد السنوات برغم تكرار بعض السّمات المحدّدة الجديرة بالذّكر مثل الشعور بالعزلة والدّونية والاغتراب والأرق والتواؤم الدّاخلي مع النظام الاجتماعي، والإفراط في تعاطي العقاقير والمخدرات والكحوليات بطبيعة الحال، فمن المثير للغاية أن تبدأ في وضع ملاحظاتك، بل عليّ أن أتذكّر سؤال الطبيب النفسي ما إذا بالإمكان ربط الإدمان الكحولي بالإفراط قصير المدى في تعاطي (الحشيش،

4- الأنهيدونيا: العجز المرضي عن الاستمتاع .

الأمفيتامينات، الكيتامين، ومخدّر إم دي إم إيه، البنزوديازيبينات، الكوكايين (في أحلامك يا رجل)) ليصبح ذلك إحدى عواقب، أو على الأقل نتيجة مرتبطة إلى درجة ما بالفوبيات الاجتماعية التي نشأت (أم أقول تفتّحتْ هنا) فضلًا عن سائر السلوكيات القهرية، أفكار مَن تلك تظنّ؟ بالرّغم من أنّكَ شخص ناضج، لكنّكَ ترى نفسكَ كطفل مدمّر، ترى نفسكَ كضحية، وعليه تشعر أنّ لكَ حقًّا ثابتًا لا يتزعزع في هذه الكراهية والعشوائية وفي أن تكون معروفًا على نحو غامض للغاية صدقًا.

إنّكَ تعيش بالكليّة في ظل فشل أبويكَ وخسائرهما وصراعهما الأعمى. لديكَ أطفال تعتني بهم غير أنَّكَ تتفتّتُ إلى قطع وتنهار في اللحظة التي تفكّر فيها في طفولتكَ أنتَ شخصيًّا، وتريد قتل الشَّخص الذي تراه في المرآة غير أنَّكَ لا تجرؤ، فتبدل النافذة بالمرآة، فمَن بالخارج؟ تقودكَ صورتكَ الذّاتية إلى موقف حرج حيث العناصر الأهمّ فيه هي الجبرية التعجيزية مجتمعة مع الانهزامية الكُليّة، قال «ماركو» كلّ هذه الكلمات ثم توقّف: اللعنة يا صاح، أتعرف شعور أن يملأ فمك هذا

كلّه؟ كما قال «توپاك»: لو أنّنا نريد أن نحيا حياة شقيّة، فلا بأس، ولنكفّ عن الجُبن ولنقم بثورة، لكن أتعلم كيف هو الأمر يا صاح؟ الله وحده من يحاسبني.

قال «ماركو»: الجبرية والانهزامية؟ ابحث عنها في المعاجم يا أخي، فـ«حكيم» قال لي ذات مرّة إنها ما يعرف بالبُغض في

الفلسفة، وهناك مَن كتب عنها بالألمانية، وقد قرأ «حكيم» أكثر من أي شخص آخر في هذا المكان كلّه، وقال كذلك ينبغي أن تقرأ فلسفة أكثر وتقرأ لـ«ماركس»، وتقرأ كذلك في النظريات السّياسية المعاصرة؛ إذ يمكنكَ أن تجد هذا الهراء كلّه في الكتب، وفي القرآن وفي الإنجيل صدّقني، إن «توپاك» حتمًا بداية؛ إذ من الجيّد أنّكَ تقرأ قصائده وتطالع لقاءاته، جيّد أن هذا الرّجل لديه أشياء كثيرة صحيحة يقولها كما أنّه حاذق جدًّا بالنّسبة إلى عمره مع الأخذ بعين الاعتبار كونه مغنّيًا، لكن يا رجل عليكَ أن تبلغ الحدود أيضًا وأن ترتقي كذلك، ارفع المستوى وارتقِ وتعمّق، فاهمني يا أخي؟ فقال «ماركو» لـ«حكيم»: صحيح يا أخي، أعلم هذا.

أخبرني «مارك» بهذا كلّه عندما زرتُه، وذلك عينه ما اعتاد «سووت» أن يقوله تمامًا، أعرف كل شيء عن كيف ظهروا وصوّرونا وتحدّثوا عنّا في مؤتمراتهم وحلقاتهم البحثية، وعن كيف يعيش النّصف الآخر وعن موضة أناقة مدمني الهيروين[5] والپروليتاريا وحياة الشّقاء فوفّر على نفسك بعض الفكّة يا زميلي، وأقول لهم: أعرفكم جميعًا يا عمّال المعامل المجتهدين، إذ بالنسبة لكم فإن البشر ذوي الحاجة هم مجرّد حشرات يجب أن تغرسوا فيهم دبّوسًا لتقيموا حولهم دراساتكم وأبحاثكم بغية تصنيفهم أنتم يا سامريّي شوارع العشوائيات، يا متفرّجين، يا متصيّدي

5- موضة أناقة مدمني الهيروين: موضة تسعيناتية تعتمد مظهر المدمنين الهزيل الشاحب وهالات الأعين والشعر القصير الأنثوي.

الأعجوبة الجمالية التّالية، يا شاحذي المخيّلة القادمة، أيّتها اليرقة المنسلخة ، أيّتها الشّرنقة التّالية التي تتأهّب للتحول وتزحف جائلة في الرّوث لتتستّر في أي جوف يتبدّى من فرجاته، وهلمّ جرّا وهكذا دواليك.

قال «سووت»: أعلم، أعلم بالضّبط، فهكذا هم فنّانوهم، هذا ما قاله «سووت» دومًا: لقد قابلتُ ما يكفي لأن أعرف، إنهم يتعايشون على حساب الآخرين. يفتّشون عنَّا ليخرجونا للعلن كوحوش مفلسة غرائبية، غرباء أطوار متمايزين، معاقون روحانيون وكل تلك الكتلة المزاحة المتنافرة غير المحددة التي يمنّون عليها بكسرة خبز أو حفنة عملات ثم يصلحونها بآلات تصويرهم ومواقعهم أمام حواملها وعبر كبائن الميكروفون؛ يتصيّدون المشرّدين والمتسوّلين وخربي العقول والمدمنين والمجرمين، إنهم يسلخون كائنًا ما حيًّا فقط لأن حياتهم القائمة تصرخ عطشى من أجل زخّة من الدم الأحمر القرمزي، وليس لديهم أي مشكلة أن يطلبوا من حالة انتحار أن تلقي بنفسها أمام القطار على مسافة أبعد خمسين مترًا فقط كي يلتقطوا منظر الأرضية في الخلفية، صدّقني هكذا هم إذ رأيتُ ذلك بنفسي مرّة ومرّات، صدّقني يا أخي لقد رأيتُ كيف يجذبون أكمام الناس ويطلبون بل يتوسّلون أن يُسمَح لهم بالاستماع وبرؤية وبلمس آخر خبر ساخن، وآخر قصة مثيرة وشخصية وخاصة وأمينة وطازجة على أن تروى بشكل بسيط وصريح كپورتريه لليأس، بينما في المقابل يحصل الرّاوي على حصّته من الملابس النّاعمة وشمّة من زهور الميموسا والياقوتية

وزنبق الوادي التي يضعونها في مكاتب التحرير الخاصة بهم التي نظّفها عمال النّظافة؛ أولئكَ الصّامتون؛ أباؤنا وأمّهاتنا بأجسادهم المألومة ومقابل تربيتة وحضن؛ ضرب من تهنئة النّفس المقنّعة في صورة حب وحنان.

يقول «سووت» باصقًا وكازًّا على أسنانه: صدّقني، فأنا أعرف أمرًا أو اثنين عن هذا الشَّأن، أجل، أعلم جُلّ أكثر الخزعبلات عن الجوانب الأقل حنانًا لهذا الحنان، وكذلك عن رعاية الجهاز التمثيلي، بينما قالت «بيكا»: أصدّقك يا أخي، فأنا أيضًا أعرف بضعة أشياء عن تلك الأمور المدعوة «اضطرابات» لكنّي إن تفوّهتُ بأي هراء عن ماهية الأشياء أو بكلام حقيقي أو بأفكاري عن سبب كون الأمور على ما هي عليه، فإنهم سينظرون إليّ بنفس التعبير الذي أتصوّر أن شخصًا بعينه ليحمله ناظرًا إلى «أوليڤر تويست» إذ يطلب المزيد من الطعام، لكن هذا كله صحيح، فنحن نعرف كيف نأخذ الطّعام، صحيح يا رجل، ولهذا نضحك عليهم، صحيح نضحك عليهم ونقول: نشعر بالأسف لأجلكم، فنحن نعلم أننا مسلّحون بشكل أفضل لمواجهة المستقبل ممّا قد تكون أنتَ عليه أبدًا باستقامة عمودك الفقري هذا وابتسامتك الواسعة تلك، أعني مجهّزون بشكل أفضل ولو لمستقبل واحد على الأقل؛ مستقبل ممكن ومحتمَل حيث انهار وتفكّك أغلب ما يحيط بنا فيه الآن منغلقًا على نفسه حيث الصّراع هو كل ما تبقّى؛ صراع خام أعمى من أجل البقاء، هناك حيث السّلاح في يدك جائعًا متّسخًا متقرّحًا بالطّاعون جرّاء الأقدام المتورّمة النّازفة وجرّاء ذكريات الموت

والرّفاق المغدورين أو فقط جرّاء توقّع الغدر والموت سواء على جانبنا أو على جانب العدو، هناك في ذاكَ المكان لأبلينا أفضل -على حدّ القول- هناك سيبدو جليًّا أخيرًا كم ظلّ عالمكم سخيفًا حتى هذه النقطة وكيف كانتْ حياتكم ونفسياتكم وحتى أجسادكم شاذّة، فسيبدو جليًّا استحالة أن يُسمح لكل هذا الترهّل بالوجود دون تهديد، سيتّضح جليًّا تمامًا كم هي شاذة تلكَ المخلوقات الأمنة المدلّلة، وكذلك أولئكَ النّاس الذين هم أنتم يا مَن لا تلقون حتّى نظرة غضب من فوق أكتافكم، الذين لا تلتفتون حولكم حتّى حين تخطون إلى الطّريق.

ما هذا؟ أناسٌ يخطون خارج أحد المداخل أو يخطون خارج حافلة أو سيارة دفع رباعي دون التلفّت يمنة ويسرة لتفقّد الجانب الآخر من الطّريق بغية تقييم المخاطر!

أيُّ ضربٍ من المخلوقات المتغطرسة المنحرفة التي تطأ أراضي غير مألوفة دون أن تنظر أوّلًا؟

نظر «سووت» إليها وأومأ نوعًا ما وهزّ رأسه معًا في وقت واحد، فاستطردتْ «بيكا»: لا بدّ لمخلوق كهذا أن يكون نائيًا جدًّا عن طبيعته الحقيقية، فأن تكون مرتاحًا في هذا العالم، لا أدري إن كنتُ أستطيع تخيل أمر أكثر خرقًا للطبيعة، أو أكثر جهلًا، أو أمر أكثر خللًا عقليًّا، وهو ما يشعرني بالازدراء حتّى لمّا يتعلّق الأمر بشقيقاتي وأشقائي وقومي وفريقي، أولئكَ الأذكياء الأيقاظ الذين فهموا الهراء الحقيقي، لكنّهم كما تعرف ما يزالون سذّجًا حيث

يغدون مع تلك الفكرة اللعينة الغريبة أن ما يعتقدونه ويفعلونه يُحدث فارقًا في الصّورة الكبيرة، وأن لهم دورًا يلعبونه في اللعبة الكبيرة. هو الارتياح الذي لا يعدو كونه جهلًا وغباء على الأغلب، إنه الضّرب نفسه من الشّجاعة التي تحدو «ألما» -ابنة أختي ذات العامين- إذ تحاول القفز إلى النّاحية العميقة من حوض السباحة فيما هي لا تعرف العوم.

إنهم يخوضون الطّريق دون أن يتبيّنوا، ويدلفون إلى الغرف الجديدة دون فحص المكان أولًا ودون التعرّف على الأخطار والتّهديدات؛ إذ إنه بالنّسبة لهم ما من أخطار، ولا شيء يهدّدهم، هم مرتاحون بالدّيار مع أجسادهم تلك، وفي منازلهم وفي أحيائهم ومدنهم وبلدانهم وفي حياتهم بالوطن، تبًّا، فالعالم ملكهم ويشعرون بالرّاحة فيه، أهناك ما هو أكثر انحرافًا؟ أمِن الممكن أن يكونوا أكثر عجرفة؟ كما تسأل «بيكا» «سووت» الذي يهز رأسه الآن ناظرًا إلى قدميه، بينما نسير وسط البريق الأحمر المخضرّ المنعكس عن البلاط القديم، وأذكر «سووت» يحكّ قدّاحته عبر الجدار محدِثًا صوت كشط رقيق يقطعه نقر المفصلة الإيقاعي كليك.. كليك.. كليك.. كليك.

بعد برهة، وصلنا إلى عبور طريق مروري تحت الأرض لكن بلا مرور وبلا مفترقات طرق، وسمعتُ «سووت» يتنفّس وقد صدئتْ سترته ورأيتُ «بيكا» تقذف شيئًا في فمها؛ قرصًا دوائيًّا أو هي قطعة علكة، فشعرتُ بجفاف فمي ولم يتحرّك لساني، فاستقر

ملتصقًا غير منتفخ أسفل سقف حلقي، ولم أتفوّه بشيء لكنّي فكّرتُ: تبًّا، إن لديّ هذه الأشياء في فمي الآن أيضًا يا رجل، وهي حتّى الآن تتدفّق كنهر لعين دون أن أنبس ببنت شفة، ويمكنكَ أن تسمع رنّة الإبرة بينما يشغّل «رييس» جهاز عرض البروچكتور ويقول إن «ماري» و«مويبريدج» التقطا صور ركض الخيل والطيور أثناء طيرانها بتقنية تصوير توقف الحركة، بينما امتطى «إل إيه هفمان» صهوة جواده بين رعيّته في أراضي «مونتانا» ملتقطًا الصّور مباشرة من على السَّرج، غير أن حساسية الضّوء على طبقات الزّجاج وسطوع المعدّات البصريّة المتاحة لم تسمح حينها بعد بالتّصوير الارتجالي المتعجّل أو بالتصوير الصّريح في الآبار المعتمة لسلالم المساكن والأزقّة الخلفية المظلمة، فتحتْ «بيكا» كوّة في السَّقف وتسلّقنا الرَّصيف في أمسية باردة مظلمة جاءنا فيها متسوّل عجوز فهززنا جميعًا رؤوسنا، وقال «سووت»: أحتاج للفكّة معي تمامًا بقدر ما تحتاج إليها يا صديقي، يمكنكَ أن تشعل سيجارة، لكن هذا كل شيء. قالت «بيكا»: تبًّا، إن حذاء العجوز عليه اللّعنة ليتكلّف أكثر من حذائي، وقد بدا كما لو أن أحدهم قد بدأ حفر ثقب صغير خلف أرنبة أنفي تمامًا وبين عينيّ رأسًا إلى دماغي، ومنه إلى فصّي الجبهي.

قال «سووت» و«بيكا» إنّهما متوجّهان نحو منزلها وكما تعرف سيتساهلان إلى جانب باقي الهراء، ومن ثم صرتُ فجأة أقف وحدي في هذا الضوء البرتقالي البرّاق، أرى جسدي منعكسًا على لوح الزّجاج في محطة الحافلة، أين كلّ تلك الحيوانات؟ هكذا فكّرتُ ثم

رأيتُ «كودي» نصف شفّاف في اللوح الزّجاجي بالمحطّة، يمسح بصره الميدان الخالي، حيث تغطّتِ الأبنية برُقع داكنة ضخمة متّصلة بخطوط شبه منكسرة خلقتْ شبكة فوضوية غير منتظمة فوق الشّوارع. قال «كودي»: ما من حيوانات -كما لو أن هناك مَن يتسمّع- ما من حيوان على مرمى البصر، ثم التقط الماسورة ذات النّصف متر الملقاة على الرّصيف ودخل إحدى الأبنية حيث قاعة المدخل الهائلة خالية ومهجورة، فظلّ يجول بلا هدف في أنحائها لبرهة باحثًا عن الدّرَج دون أن يجده فيما بدا أن المصعد يعمل غير أنه استقلّه بعد لحظة تردّد وضغط زر الطّابق الرّابع عشر والأخير، انغلقتِ الأبواب وشرع المصعد يتحرك، فتطلّع «كودي» إلى وجهه في المرآة فشعر بقذارته وعلم كم أن رائحته سيئة، واستمع إلى صوت أنفاسه وإلى هدير المحرّكات البعيد وترك الماسورة المعدنية تنزلق ببطء عبر راحته اليُسرى مقشّرًا بعض الطّلاء المتأكل بإصبعه عن طرفها، مستعجبًا من أين مصدرها، إذ لعلها كانت ذاتَ مرّة جزءًا من مقعد جلس عليه أحدهم، حيث عاش ذات مرّة واستقلّ الدرّاجة إلى محجر الجير ذات مرّة؛ حيث تحمّم في المياه النّقية إذ ذات مرّة كانتِ الأمور كلّها منفتحة غير مؤكّدة وممكنة، هناك سرير مع ملاءات وأغطية مغسولة حديثًا، وعبق يستحيل تذكّره الآن، كلّ شيء في الوجه غير المترابط الذي رآه في المرآة أخبره أن يقفز، بينما تجاوز «كودي» الطابقين السّادس والسّابع عندما تباطأ المصعد، وانزلق متجاوزًا الثّامن أيضًا قبل أن يتوقّف مع تباطؤ مفاجئ عند الطّابق التّاسع، انفتحتِ الأبواب

وانزعج «كودي» لرؤية خمسة أو ستّة أشخاص واقفين في الرّدهة المظلمة خارج المصعد، غير أنّه لم يقم بأي أمر عنيف، فقط اتّخذ خطوة صغيرة إلى الوراء محكمًا قبضته أكثر على الماسورة، لكن على أي حال لم يلحظ أولئكَ الأشخاص «كودي»؛ كانوا رجالًا ونساءً، ذوي بشرة رقيقة وشعر أشقر أو أشقر رمادي ويرتدون ملابس أنيقة، وجميعهم لديهم ندوب على وجههم؛ ندوب من الأذن إلى الأذن كما لو أن زوايا أفواههم امتدّتْ وحسب عبر وجناتهم مواصلة حتّى شحمتي الأذن، واكتشف «كودي» أنه رأى بعضهم يستقل المصعد معه مديرين ظهورهم له، حتّى إن النّدوب استمرّت إلى ما خلف أذانهم وإلى أسفل الأعناق ثم إلى العمود الفقري حيث تلاقتِ الخطوط وظهرتْ وواصلتْ أسفل ظهورهم.

عجز «كودي» عن تخيّل كيف تبدو تلك الخطوط عند تشريح الجلد وقطعه إلى جراح حيّة، فتخيّل مخلوقًا يشبه السّمكة، مخلوقات كالسَّمك تسقط إلى أعلى- تصعد إلى السّطح كفقاعات نازفة للحياة، ثم وصل الأمر إلى نهايته لقد طُرد حيث لم يستطع تحمّل كلفة مرتبة أو حتّى أرجوحة نوم في أحد النُّزُل الأرقى، فانتقل إلى نَزل شُرَطي بالقرب من شارع الكنيسة، وفي إحدى اللّيالي وبينما هو نائم سُرقتْ قلادته الذّهبية التي يعلّق سلسلتها دومًا حول عنقه، إن إبلاغه عن السّرقة إلى أمين الشّرطة المناوب -مع تأكيده التّام على ملكيته الشّرعية للغرض المسروق- انتهى به ملقًى في الشَّارع، وعلى سبيل التضامن، غرس «ألبرتا» -الكلب الضال الذي تبنّاه واضطّر إلى انتظاره في الشّارع خارج النّزل-

غرس أسنانه في ساق الشّرطي الذي رماه إلى الخارج، وعندها قيّد الشّرطي قائمتي الكلب الخلفيتين وسحق جمجمته على الدَّرج الحجري، غلى دمه السلاقي في عروقه واجتاحته نوبة هياج، فطفق يهاجم مكتب الحارس بحجر الرَّصف وبذخيرة من زلط الرَّصف المتنوّع، من ثم سرعان ما نزع الأمن سلاحه حيث اصطحبه إلى المعدّية وعبروا النّهر به، وشقّت نباتات الأحراش طريقها كاسحة كل شيء خلف خطوط السّكك الحديدية المهجورة، رأى الشّمس تشرق من خلف زهر البتولا والرّوان الرّطب ومن على الجسر المتصدّع الصدئ التي تتزخرف أعمدته كلها بثراء بأحرف على الطراز البرّي رأى كذلك الأنماط المعقّدة الجميلة التي خلقتها هذه الخطوط.

سأل «كودي» «صايما»: هل هذا هو «ماري آن هوبز»؟ فأومأتْ موافقة وتحدّثا عن الأصوات من برنامج بريزبلوك الإذاعي الأسبوعي وإذاعة أنتاي جراڤيتي باني من سان فرانسيسكو كما لو كانا عالمهما -كما لو أنهما لم يكونا هذين المتطفليْن أو اللصين- حيث يضع جوربًا بين الخيوط ولوح التزلّج متدرّبًا على الموازير والأرپچيو أو النّغمات النّاقصة بينما النّاس نيام، فمعًا لصاغا الحب بثماني لغات.

ثم صار اللوح الزّجاجي بمحطة الحافلات فارغًا، فواصلتُ وحيدًا، غير أنه لم يمض طويلًا قبل أن أصادف هذا الشّاب المدعو «داركو» يصطحب حمارًا أعمى أسماه بالمعمودية «يول براينر»

وتبيّن أنه يعيش بالقرب من «دالاپلان» ولأني عشتُ هناك أيضًا على مرمى حجر فعلًا -إن جاز التعبير- من العيادة التي سيجتمع فيها شملنا جميعًا بعد سنوات قليلة لاحقًا كالظّلال في رؤيا، أو في حلم يقظة أو في لحظة تجلٍّ، ومع كل هذه التكهنات المستمرة بشأن سلوكنا وردود أفعالنا واحتياجاتنا ورغباتنا وعنفنا.. إلى آخره كما يقال، وكذلك على بعد مرمى حجر آخر من «موبيليا» التي كنّا نتجول فيها في شِلل -كما يقولون- منذ سنوات قليلة قبلًا لنسرق ونهاجم كلًّا من الممتلكات الخاصة والعامة، أو نشتري القودكا وأعقاب السّجائر من «پولز» في ساحة انتظار السيّارات، وقلتُ لـ«داركو» إني أعرف كيف أذهب إلى هناك وسأساعدك لنذهب معًا، سأنهي مشروبي وحسب، ثم سرنا نجتاز المدينة على مهل مع «يول براينر» ودرّاجتي «سلڤر أرو»؛ درّاجة الجبال العاجزة تلك التي اشتريتُها من «ماسيماد» خارج المدرسة في «كروكسباك» لقاء خمسمئة كرونة قبل أن تُسرق مجدّدًا بعد عدّة أسابيع لاحقًا.

وإذ «برجسجاتن» ظلّتْ مهجورة كما كانتْ باللّيل دومًا حينها، سرتُ مع «داركو» أدفع درّاجتي بينما يقود هو الحمار في الشَّارع الخالي المهجور، وانتشرتْ البلاوي كلّها هناك منذ أغلق «ذا بلاك كات»، أخبرني «داركو» أنه من «بانيا لوكا» -بلدة صغيرة بائسة- فقلتُ: تمامًا كتلك التي نحن بها الآن، ودخنّا «چوينت محشو» عند التّمثال باصقين على شرف العمّال، فأخبرني أنه هارب مرّتين من التجنيد؛ إذ فرّ من جيشين مختلفين، فلتتفوّق على هذا يا صديخي (مزيج من كلمتي صديق وأخي)، ولن تستطيع، أليس

كذلك يا سويدي، فهكذا أنتَ في النّهاية، هذا هو ما قاله، كما قال إنّه يكره مراكز الإيواء حيث عاش قبل أن يجد أريكة ينام عليها بالقرب من «دالاپلان»، فكلّها ملأى بالفلّاحين؛ الفلّاحون الذين يضربون زوجاتهم وأطفالهم كما قال، فقلتُ: لا تكذب يا خيّو فأنتَ تكذب، أنتَ تبالغ، بل إنّكَ أنتَ مَن يبدو سويديًّا يا رجل، فيما ظلّ «يول براينر» طوال الوقت واقفًا هكذا يمضغ شيئًا بينما وجهه يقول: «يلعن أبو كل حاجة»، وكأنّه يكرهنا... ما الكلمة المناسبة هنا؟ علنًا؟ كلّا.. تُرى ما الكلمة؟ تعرفها؛ تقصد جهرًا؟ أجل، هي، حسبما أظن، كما علّمتُ «داركو» لفظة يجترّ فقلتُ إن «يول براينر» يكره ويجترّ، فقال إنها لا تجترّ كما أنها ليس لها حوافر، لهذا السّبب فليس من المفترض أن تأكلها بحسب كتاب الديڤاريم أو التّعاليم، السِّفر الخامس لموسى، وهو ما جعلني أبدو مرتبكًا قليلًا عندما سألتُه كيف عرف عن هذه الأمور، فأجاب أن جدّته يهودية صربية من المجر؛ أي من الأراضي والممالك الممثَّلة في المجلس الإمبراطوري وأراضي تاج القديس إستيفان، بحسب ما قاله «داركو» بشأن جدّته التي اعتادتْ ترديد ذلك كما علّمتْه هذا كلّه، فقلتُ: لا بأس، فسنُسقط مسألة أكل الحمار إذن احترامًا لجدّتكَ قدّس الله روحها.

قال «داركو» إنّه يريد صنع فيلم عن «يول براينر» الحقيقي وليس الحمار، وسيسمّيه يول المذنب أو لعلّه يول الفائز، وضحك سعيدًا بنفسه كاشفًا عن لمعان أسنان بنّية صفراء، لكنّي لم أفهمه، لم أعرف مَن هو «يول براينر» فأخبرني عن بعض الكُتّاب

اليوغسلاف والبوسنيين الذين لم أعرفهم أيضًا، ثم روى لي حكاية عن حفلة تكنو المجارير في «بلجراد» إبان قصف الناتو، فالعدمية حق يا صديخي، تو ييه أونو پراڤو (يقصد هذا صحيح بالكرواتية) هكذا قال مستحضرًا ذاكَ الحلم الذي راوده؛ تخيّل وحسب: النّسور على المنحدرات، والبحر والممرّات الصّخرية، والرّمل وانجراف الأعشاب البحرية، والمياه المالحة تتصادم بالجِيَف، والطّيور السّوداء تميل نحو الأمام تنقر وتلتقط وتمزّق اللحم في بأس وثقل، وتحدث ضجّة إذ تبحث وتحلّق إلى الأعلى وتفتح أجنحتها الباهرة فتحلّق إلى الأعلى أكثر وترتفع وتُبحر بعيدًا حتّى تختفي، في يد إحدى الجِيف قطعة ورق رطبة وعلى الورقة رسم لاتّجاهات البوصلة بالحبر الأحمر والأسود على خلفية بيضاء، وكذلك ثمّة أرقام وأحرف كلمة ليو إل إي أوه (LEO)، فأنظر إلى أعلى وأرى منحوتة تمثل أسدًا رابضًا إلى جانب لبؤة راقدة مصابة بسهم بينما يتسلق شبلان فوقها، أسير بجوار المنحوتة فأرى أن كلا الشّبلين أيضًا مصاب بسهم، بينما إلى الخلف وبالرّذاذ الملوّن قام أحدهم برشّ اسم ركس نيهيل -ملك العدمية- فهمتَها؟ أمر مخادع، صحيح، لستُ أدري يا «داركو»، ولستُ واثقًا ماذا عساي أن أقول، فمن الممل قليلًا أن تستمع إلى هذا كي أكون أمينًا معكَ مئة بالمئة يا زميلي.

لاحقًا قابلتُه في نادٍ غير شرعي، غارقًا في الدّماء وضائعًا تمامًا، كان ليثب عاليًا ويخبط السَّقف، فاستدرتُ وقلتُ يا «داركو» يا رجل، الدّم يغرق قميصكَ كلّه، كأنّه حلم سيئ يا أخي وأعجز عن

الاستيقاظ منه، فخلعتُ قميصي إذ أرتدي كنزة تحتية بيضاء، فاستعرضنا العضلات متظاهرين بالخشونة أمام مصوّرة فرنسية خارج النّادي، قالت بالفرنسية: شارع سد رائع (كول دي ساك)، أتذكّر هذا الآن حيث مخدّر السپيد يلسع ويحرق، فابتدأ «هانسن» مشاجرة في محطة الحافلات، وكل شيء تجمّد كلسان على عمود نور، «نكشة» واحدة وسيصير الأمر كلّه دمًا وجليدًا فيما تضرب نفسك في الوجه مرارًا وتكرارًا مصدومًا تمامًا وخدِرًا.

أستيقظ فيما هناك أصوات آتية من اللّامكان، ماذا يا فأر الغيطان؟ ماذا تريد؟ إن الدّيار بسيطة للغاية، التّراب واليأس يملآن كل ردهة عارية خالية، والأخطار تلوح في جميع أروقة السّلالم، فقلّة من النّساء من يخرجن بعد الظلام، والآن يعزف «موسّمان» سوڤينير لـ«چون كيدچ» بلطف وبرفق وبهدوء حتّى أنّي شرعتُ أشعر بالتّعب، واعتقدتُ أنّي قد أنجرف، لكن لاح عنقود عظيم ثقيل غامض من النّغمات، كضوضاء قوية، كصوت ملأ دواخلي واستهلكني تمامًا، وشيء ما كالحركات أو كالدّيناميكية أبقاني هناك عيناي مغلقتان لكنّهما مستيقظتان.

الفصل الرابع

ربما هناك شيء ما يرتجف..

ربما كنتُ أنا..

وربما زهرة نبات الشمع وربما شيء غير مرئي أو خفيّ.

«موسّمان» يعزف مقطوعة سوڤينير وإذ فتحتُ عينيّ، بتُّ فعلًا في طريقي للمطاردة مع الآخرين متضايقًا وعصبيًّا، وفي الطّريق إلى السّطو وإلى الحافلة وكل هذه الخزعبلات حيث رأيتُنا جالسين هناك مسترخين على أريكة «بيكا» البالية نشرب شيئًا ونبتهج في الشّرفة، بينما تحكي لنا «بيكا» و«كاتي» عن الوظيفة التي

عملا بها في «كوپنهاجن» في صالون تدليك يقدّم ما يطلق عليه النهايات السّعيدة، حيث يغريان الرّجال من أجل النقود، غير أنهما يؤكدّان أنها ليست دعارة، بل مجرّد تدليك حيث لا يمسّهما الرّجال أبدًا وتحت أي ظرف، فكل شيء ما عدا تلامس الأيدي ممنوع، كما أن أي فتاة تتجاوز ذلك تتعرّض للفصل فورًا، وكما أخبرتْنا «بيكا» فقد خدعتْ «كاتي» ذات مرّة التي كانت حديثة العهد بالعمل؛ حيث تظاهرنا أنا والمديرة -وهي سيّدة مسيطِرة تخطّتِ الستّين ونيّفًا، نسيتُ اسمها لكنّها عملتْ كعارضة أزياء في فترة الستّينيات- تظاهرنا باتهامها بممارسة الجنس مع شاب ما، واصلتِ المدام الادّعاء وصرختْ في «كاتي» بكل سورة الغضب المصطنعة تلك: أنتِ أيّتها السّاقطة اللعينة كيف تفعلين ذلك بنا، وكل هذه الخزعبلات حتّى انهارتْ «كاتي» في النّهاية فعانقناها وأخبرناها أننا نمزح فقط، كما أخبرتْنا «بيكا» بقصّة أخرى أيضًا صوّرناها وسجّلناها لنريها إلى أحد الأصدقاء؛ هي قصة عن ممارستها الجنس مع صديقها ثم فيما بعد وإذ ذهب إلى المرحاض، قامتْ هي بممارسة العادة السرّية، فلمّا عاد سألها: ماذا تفعلين؟ فأجابتْ إنّي أستمني وأتذوّق ما ينزل، ثم تبيّن أنه لم يسبق له أن عرف مذاق منيّه أيضًا، بينما فكّرتْ هي أن تلك هي الأمور التي يجب عليه أن يعرفها، فقالتْ إنها جعلتْه يتذوقها غير أنه لم يعجبه المذاق مثلما أعجبها، وقالتْ إنهما قرّرا بعد ذلك تذوّق بولهما الشّخصي، أو أنّها هي قررتْ هذا، فتبوّل كل منهما في كأس ولم يمزجاهما، فتذوّقتْ هي بولها وتذوّق هو بوله حيث لم

يرغب في ذلك في حين أجبرتْه هي، تلك هي القصّة كلّها.

لا أعلم إن كنتَ قد أحببتَها ولا أكترث أصلًا، باي، كما قالتْ أثناء التّسجيل.

وكمتطفل على بواقي الشراب، اعتدتُ أنا نفسي أيضًا التبوّل في زجاجات الجعة الخاصة بي ثم وضعها في أماكن إستراتيجية حتى يسهل على متطفّلي بواقي الشّراب الآخرين إيجادها والحصول على بولي الدّافئ في أفواههم، وكنتُ أكاد أهلك ضحكًا، ثم لاحقًا رحنا نجلس على المقاعد البلاستيكية البيضاء -الكوزموبوليتانية الشّائعة جدًّا عالميًّا والتي تراها في كل مكان حسبما قال أحدهم- نحتسي النسكافيه، تعلم أني أكره النسكافيه اللّعين، لكنّك لم تتعلّم قطّ احتساء الشّاي الأسود بدلًا منه؟ آه، احترس لمؤخرتك في الحديث هنا، إن اسمك الأوسط أصلًا هو لا تتعلّم أبدًا، أجل، حسنًا، أعلم على الأقل لا تقل أبدًا أبدًا، حسنًا، فلن أفعل أبدًا، ألستَ حاذقًا! الدّرجة النّهائية.

المحطّة القادمة! الجامعة، وقت القيلولة.

يجب أن نتصّل بـ«ديزي» أو «ميزي» تلك أو أيًّا ما كان اسمها، فقد غطّتْ في نومها ثانية في ميعاد الحافلة الليلية، ورأتْ الآخرين يستيقظون ويذهبون إلى عملهم.

إن تصوير عشوائيات المهاجرين يجعل الشّعر ينتصب بل من الصّعب أن تترك معه الكتاب.

إنها تُمطر باستمرار في «جلاسجو»، فأضع غطاء رأسي وأتكوّر على نفسي وأرتجف، بينما بقيتُ طوال الوقت مرعوبًا من القفز عليّ لأتلقّى واحدة من اللكمات إيَّاها التي يسمّونها ابتسامات «جلاسجو»، ثم الاضطرار إلى التجوّل بها هكذا للأبد، وقد تراها بين الفينة والأخرى في تلك المنطقة المجاورة لـ«جوربالز»، على أوجه أولئكَ الرّجال النحيفين الذين يعانون من سوء التّغذية ذوي النّدوب الظّاهرة والخفيّة، غير أنّي حذر وأتدرّب جيّدًا، وأقود ونش الشّوكة في إحدى الورش وأقدّر للغاية تلك الرّفقة الحميمة التي نشأتْ بين فريقنا، فما من هراء عنصري حيث يحتفظ أولئكَ المعنيون بما يسمى الهوية بأنفسهم لأنفسهم فيما يحفظ حضور «بيكا» السّمت النّسائي لحدّ محتمَل على الرّغم من أن كارهي المثليين أمر آخر تمامًا.

دومًا ما تواتيني رؤى أتعرّض فيها للاعتداء أو للجرح أو القتل أحيانًا، وبعض أحيان تواتيني رؤى أقوم أنا فيها بالاعتداء أو أكون على وشك الهذيان أو القتل حتّى، وتوجيه ضربات قوية على الحنجرة، لكن قبل أسابيع قليلة أوقفني ضبّاط الشّرطة، وطوال حديث هذا الخنزير معي موجّهًا أسئلته الغبية التي يعرف إجاباتها بالفعل، ظللتُ أتخيّل ضربه بلا رحمة، وأتصوّره يتوسّل إليّ كي أتوقّف، بينما أواصل الضَّرب، وقد جعلني ذلك أشعر بهدوء غير معقول، حتّى إن ضبّاط الشّرطة قالوا في النهاية لا بأس، فأنتَ تبدو «كوشر» -كما يقولونها- أي سليم قانونًا؛ لذا فسنتركك لكننا سنأخذ عِدّة التّعاطي وفي المرّة المقبلة تذكّر أن

الاستخدام الشّخصي لا يعني حيازة أي كمية تريدها، وهكذا فإن هناك حدودًا، فكما تعرف هم مرنون وعلى علم بمثل هذه الأشياء لكن هذا لا يعني عدم وجودها، وهكذا أنتَ على الحدود حيث أنتَ رائع ولديكَ وظيفة ولا أطفال عندكَ، وهكذا نحن لا نظنّكَ تتاجر، لكن فلتفكّر في هذا؛ فكّر في هذا يا صغير ويا صاح ويا غلام وهكذا كل على حدة، بينما عليّ أن أقوم بجولة أخرى، للخارج حيث رافعة الونش ثم صالة الچيم ثم النّوم ثم العمل، وطول الوقت كنتُ أسحق حنجرة الشّرطي.. انفجار سريع ثم ها هو راقدٌ بلا نفَس.. ثم ركلات وضربات بالرّكبة وهكذا.

أجلس ذات أمسية مع «أيدان إم» أحد الصّبية الذين أعرفهم هنا، عندما لا يكون رفاقه موجودون فإنه يصبح غير متوتّر وعادي السّلوك تمامًا، ونضحك إذ إن أمه تسميه «ابن الوسخة» هكذا كلفظة واحدة، وعلى حين غرّة يمرّ بنا أبوه ويبدأ في الحديث عن العصابات القديمة إذ يخبرنا كيف يعود الأمر إلى الأيام الخوالي في «جلاسجو»، بل إلى عام 1700 كما يتّضح إذ اعتادوا أن يقذف بعضهم بعضًا بالحجارة بجوار نهر «كلايد»، ثم حين أتى الكاثيوليك الذين يتضوّرون جوعًا في «أيرلندا»، تشكّلتْ عصابات «كومبي بويز» و«تونجز» و«توي» و«كوم أون» و«دي يانج» و«برايتون بيللي بويز» و«جوڤان تيم» ومختلف العصابات «ماد سكواردس» و«يانج تيمز» وأيًّا ما كانت باقي أسمائهم، حيث يقول «ستووارت»: والآن فإن كل برج سكني متداع لعين وكل كوخ صغير متعفن لديه عصابته الخاصة التي تحمي المنطقة، ثم

قال بابتسامة غبية: لكن يعلم الجميع أن الأمر كلّه متعلق بالصِّبية الفشلة المراهقين الضّجرين بخمورهم الرَّخيصة والمخدّرات السَّيئة التي تسري في عروقهم، صحيح يا «أيدان»؟ يقولها ثم يخبط ابنه على مؤخرة رأسه، مواصلًا: هذا صحيح، فأنتَ لستَ خطِرًا أليس كذلك؟ ليس فعلًا، فدفع «أيدان» يد «ستووارت» قائلًا: ماذا تعرف بحق اللّعنة، ما الذي تعرفه عنّي أنتَ أيّها الدّاعر اللّعين؟ فقال أبوه: هيّا، أنا لا أقصد شيئًا بهذا، نهض «أيدان» مغادرًا بينما يهز «ستووارت» رأسه وينظر إليّ ويضحك طويلًا، «بُق كبير» هذا الفتى، يقولها قبل أن يلقي إليّ بسيجارتين منطلقًا في طريقه، وأفكّر أنه متشرّد لعين وأشعر بالنّدم لأني لم أساند «أيدان»، وعلى أي حال حالتِ الواجهات القرميدية الكئيبة المطلّة على الشّوارع دون كشف معظم البؤس والتحلّل، لم يستطع المارّة رؤية أكثر مباني العشوائيات التي نمتْ في السّاحات التي استُهلكتْ حتى آخر قدم مربّع، أثبتتِ الفرضية المسلَّمة الزَّاعمة أن العمّال ليسوا بحاجة لا إلى الشّمس ولا الهواء ولا الماء ولا حتّى مكان لموطئ قدم، أثبتت أنها جيدة لا تقبل الدَّحض.

ثم يتّصل «كيكو» وأشعر أني لا يمكنني التحمّل أكثر، لكننا في طريقنا إلى عملية سطو في مكان ما حيث أجلس في سيارة كبيرة مع «كيكو» و«راونا» وشخص ما لا أعرفه حتّى خلف المقود فأسأل أين ذلك المكان على أي حال، فيقول «كيكو»: «إليفانت أند كاسل»، لبضع ثوانٍ لا أستطيع سماع أو رؤية أي شيء، وكل ما أفكّر فيه هو «إي سي»، «إي سي»؛ «إليفانت أند كاسل»، «إليفانت أند كاسل»

وحسب.

أرى «راونا» تحكّ ذراعها اليسرى المغطّاة بضرب من الطّفح الجلدي النّازف، ثم أتذكّر «عقارات هيجايت» و«إي سي»، فأقولها بصوت عالٍ هنالك في السّيارة إنه المكان الذي عاش فيه «ديريك» و«أمين» وهما مَن عملتُ معهما في «أتروپوس» قبل بضع سنوات.. ثم على حين غرّة أصير قادرًا على تذوقه.. أعني الشعور بذلك الغثيان في فمي كما لو أنه كان بالأمس فقط؛ كلّا، بل لكأنّه اليوم والآن وهنا تمامًا في الحقيقة، فالأمر يتعلق بالاحترام والشّرف والنّزاهة وكل ذلك الهراء، والدّفاع عن كل ما هم عليه بالرّغم من كراهيتهم لكل ما هم عليه حيث يعلم الجميع في عميق نفسه أن كراهية الذات هي أقوى كراهية وأقوى محرّك على الإطلاق.

يقول «كيكو» إن «هيجايت» لم تعد موجودة، وتقول «راونا»: لقد هدموا هذا القرف وبنوا مكانه مكاتب مفتوحة لوكلاء العقارات أو ثمّة معرض فنّي أو شيء ما، فأقول لكل منهما: تبًّا، يبدو أني نسيت ذلك تقريبًا، لكن الأمر يعود للذاكرة رويدًا رويدًا على نحو واقعي للغاية وغير مريح في آن، كما لو أن الزّمن قد توقّف محلّه؛ أعني هذا المذاق الذي أتحدّث عنه بفمي؛ مزيج من العرق والعمل، الحشيش والخمر، الصّدأ والماء المالح، رائحة القيء وعقاقير علاج دوار البحر، إنه مذاق «بيللادونا»، أقسم لكما، هكذا أقول لكلٍّ من «كيكو» و«راونا».

«بيللادونا»! يا لها من نكتة!

لكن تعلمان أنه الاسم الذي أطلقه عليها قبطان الـ«أتروپوس» المركب التي سُجّلنا على قائمة عمّالها، تلك الـ«أتروپوس»؛ سفينة الرّحلات البحرية الفاخرة بروّادها من صغار الأثرياء أولئكَ الضَّجِرون ذوو وفرة المال والوقت، هي شغلانة أي كلام بلا شك، لكنها ما تزال أفضل ممّا كان لديّ قبلًا خلف مكتب الاستقبال في محل البورنو في شارع «ريبيربان»، وتعلمان أنه في تلك الفترة كنتُ أعيش في شارع «سترنشتراسه» على الجانب الآخر من أرض المعارض حيث اعتدتُ الزّحف إلى الدّار صباحًا، مارًّا بقسم الشّرطة والغانيات، وأرتال العصابات الخشنة، زاحفًا فوق «هايليجنجايشتفيلد» تلك الملاهي الخالية المليئة بالمهرجين وأشجار النخيل البلاستيكي والرَّسم المبتذل بالرّذاذ، والتي يطغى عليها المخبأ الهائل للهرب من قصف النّازي، والشّروق والصّمت وشدو العصافير المحبط للغاية بحق اللعنة، غير أنه ما زال ثمّة تعادل بين تلك الحياة وطريقة الموت الممتدة الحمقاء الوضيعة التي تناسب شخصًا مثلي لا يجيد سوى أن يكون الأسوأ في كل شيء، كما يقولون لكن أجل، ذات مساء وبينما أتناول مشروبي في «لوميتز»، بدأتُ أتجاذب أطراف الحديث مع ذلك المدعو «ماش»، تشاركنا المشاريب قبل أن يتبيّن أنه كان كبير الطّهاة على الـ«أتروپوس»، وسألني ما إذا كنتُ أعرف أتدبّر أمري مع ماكينة الإسپرسو وتقطيع البصل، وشيّ الستيك وتجهيز سلاطة السيزار سالاد، فقلتُ: بالطبع، ما من مشكلة يا رجل، بالرّغم من أني لم أعرف أيًّا من هذا الهراء، لكنه ابتسم وقال إن الوظيفة صارت لي.

لم يعد «كيكو» منصتًا إليّ، إذ بدا يطالع قصاصة ورقية أخرجها من جيبه، فاتّجهتُ بالحديث إلى «راونا» التي ما تزال تحك الطّفح الجلدي بذراعها ثم قالتْ: الـ«أتروبوس»! أقسم أن أوّل ما ينبغي عليكَ تعلّمه هو المناطق المحظورة أو الأماكن الممنوعة أو أيًّا ما يدعونها، وذلك يعني مبدئيًّا السفينة كلها، بعيدًا عن المطعم نفسه، والقمرات تحت خط المياه حيث ننام، وكذلك موضع صغير على سطح السّفينة محجوب عن رؤية صغار الأثرياء الذين لا ينبغي لهم رؤيتنا أكثر من اللازم.

كل العاملين بالمطعم من الرّجال، وكل العاملين على السّطح؛ أي المضيفات من النّساء، فيما العاملون بالمشرب مختلطون من الجنسين، وكذلك صغار الأثرياء رجال ونساء، أغلبهم ثنائي مغاير الجنس، بالرّغم من وجود بعض السّود والمثليين على نحو غير شائع من وقت لآخر، وقد عملنا أسبوعيًّا من الخميس إلى الثلاثاء وحصلنا على الأربعاء إجازة؛ حيث نتوقف على الأغلب في بعض المرافئ لصعود المزيد من صغار الأثرياء الجدد.

يشمل طاقم الموظّفين كذلك عمّال الأمن، خدمة جمع الكؤوس والقناني الفارغة، ومشغّل دي چيه، وما يدعى بعمّال رواق المراحيض بقمصانهم البيضاء وأربطة العنق البابيون السّوداء؛ الـ«موودي» أو «موودي بلوز» كما يسميه البعض أو «موودي بلاك» كما يدعوه آخرون أو «مولينج» حسبما يُدعى بالفعل، يعمل في حمّامات الرّجال، إذ يتولى حمل المناشف الورقية وتقديمها

للنزلاء بعد غسل أيديهم، وعرض رذاذ معطّر بعد الحلاقة، من نوع رخيص ذي رائحة كيميائية حمضية غالبًا، وهو عرض يرفضه النّزلاء عادة بنفور مستتر أو رثاء؛ فيقول «مولينج» لنفسه إنه موجود هنا لحفظ النّظام، وللحق لم يكن هذا خاطئًا تمامًا؛ إذ إنه رسميًّا معني بإبلاغ الأمن عن حالات إساءة استخدام المخدّرات ما يعني أيّ تعاطي للمخدّرات عمومًا، وبدوره يقوم الأمن بتحديد الضّوابط للتعامل مع الشّخص الذي ارتكب هذا النّوع من التصرّف غير القانوني، وبقدر معتدل ومناسب من العنف إن لزم الأمر بحسب ما أوضحه «ڤيننيي» حارس الأمن، ولعلّه من نافلة القول الإشارة إلى أن هذه القواعد لم يتبعها أحد بكل «زفت» تأكيد وإلّا لما صار لدينا نزلاء.

في حمّام السيّدات هناك «فاراي» التي لم يكن لديها أسماء شهرة، لعلّ السّبب أنّها لم تكن تحادث أي أحد، فلم تتفوّه قطّ بما هو أكثر من الضّروري؛ ليس أكثر من: أهلًا، نعم، لا، لا أعرف، شكرًا، من فضلك، مع السّلامة، غير أن «مووودي» طالما أصرّ أنها شديدة الذّكاء؛ حيث تدرس القانون عن بُعد، وذات يوم ستصبح أول سيدة أمين عام للأمم المتّحدة أو شيء من هذا القبيل، وحينها لن تضطر للوقوف في الحمّامات تستمع للمزيد من الهراء الذي تتفوّه به البيضاوات السّكارى، ولن تضطر للعمل وسط تبول وتبرز الثريات الصّغيرات البيضاوات التّافهات اللاتي ينظرن إليها بازدراء فيما يجفّفن أيديهن ويمخطن أنوفهن أو يضعن أحمر الشّفاه ويتغرغرن بعطورهن النّفيسة، ولعلها حينها تتذكّر

صديقها «مولينج» الذي اعتاد الوقوف على الجانب الآخر من الجدار، في غرفة مماثلة تمامًا حتى لكأنّها تقريبًا نسخة في المرآة، ليؤدي نفس المهام التي تؤديها هي؛ بينما يقول: لعلّها تذكرني في أفكارها حينئذٍ كما آمل، كما آمل كذلك ألّا تنسى أصلها على حد التّعبير، فقد عملنا معًا في نهاية الأمر حتّى لو في غرف منفصلة، لقد وقفتُ تحت الأضواء الخافتة نفسها مع الضّوضاء المثيرة للأعصاب نفسها والرّوائح المثيرة للغثيان نفسها، وصار لديّ المذاق نفسه في فمي بعد ساعتين من العمل هناك، الفارق أني كنتُ بين الرّجال، والرّجال مختلفون قليلًا، أظنّكَ تعرف هذا، فالجميع يعلمه، فهم أكثر عدوانية وأكثر خطورة قليلًا، لكنّي لا أجد مشكلة في الوجود بينهم، فأنا أفرض الاحترام؛ لأني قوي وبوسعي التعامل مع معظم الأمور ومعظم الأشخاص.

وفي ذات صباح، وإذ أقف هناك أقطّع البصل والدّموع في عيني، سمعتُ «أرجو» يسأل «موودي» -الذي جاء ليتحصّل على راتبه- لمَ بقي في بلاط مملكته كما أسماها عامًا بعد عام فيما النّساء حضرن ورحلن، وكما ستفعل «فاراي» في نهاية الأمر بالأمم المتحدة أو بدونها؟ لم يقصد أمرًا لئيمًا برغم ذلك، صحيح، بل قصد فقط أن «موودي» كان يستحق ما هو أفضل من هذا كثيرًا وما إلى ذلك، لكن في مكان ما بقي الاتّهام والسّؤال: لم تحطّ من قدر نفسك؟ فنظرتُ من الكوّة العلوية ورأيتُ «موودي» يهزّ أعلى جسده قليلًا بينما يبتسم إلى «أرجو» ويقول: أتعلم؟ لعلّي فقط قويٌّ جدًّا، فقال «أرجو» إنه ليس من الجيّد أن تكون دومًا قويًّا،

فاهمني؟ ربما ليس جيدًا.

أو ربّما عليكَ استخدام قوتك بالشّكل الصّحيح.

وضعتُ البصل المقطّع في أكبر الطناجر لدينا، ونحيتُ السّكين ولوح التقطيع جانبًا، وجذبتُ إناء الخضروات لتقشيرها وإعدادها، فقال «موودي»: لكن كما تعرف هناك أمور في الحياة لا سلطان لك عليها، فمرّ بنا «ماريو» وسألنا: ما الذي تتحدثان بشأنه؟ قال «موودي»: الحياة يا رجل، والقدر. قال «ماريو»: القدر؟ أعرف كل شيء عن القدر يا صديقي، فهل رأيتَ وشمي الذي أحمله منذ كنتُ في السّادسة عشرة؟ ثم فكّ أزرار قميصه وفي منتصف صدره كُتب أعشق القدر بأحرف بارزة كبيرة على نسيج ندبي، وقال باختصار: عليك أن تحب قدرك، فقال «أرجو»: اللعنة يا رجل، أهذه ندبة؟ أتؤلم؟ فأغلق «ماريو» قميصه ثانية وقال: أتعرف أنه أحيانًا ما يكون الألم جيدًا؟ كتذكِرة بأن هناك ما يشفى، أتعرف؟ اللعنة بحق الجحيم، أحب قدري.. لستُ أدري.. لأكون صادقًا يا أخي، فضحك «موودي» قائلًا: أعشق القدر، يا أخي، لقد فقد الرّجل عقله!

قال «ماريو»: فكّر في الأمر يا رجل، إن تلك المعرفة أقدم من كل ما حولنا، فآباؤنا كانوا أذكى منّا من نواحٍ عدّة، بل الأكثر من ذلك -كيف أقولها- كانوا أكثر تناغمًا مع الطّبيعة، لو أنّك تفهمني. إنها معرفة المدرسة القديمة؛ اختر معاركك، هذا هو كل ما عليه الأمر، اختر معاركك، فقط لا غير، اختر معاركك يا أخي.

فجأة انفتح الباب وظهر «أندريا» الإيطالي السكّير الذي أومأ إلينا قائلًا: هل «ماش» هنا؟ فهززتُ رأسي، شغّله بقوة يا صاح.

فطالما شغَل «أندريا» موسيقى الميتال بصوت عالٍ منفّر أثناء عمله، أو على الأقل عندما لا يوجد «ماش» الذي يفضّل المطبخ هادئًا، قال «موودي»: فيما بعد وسار مبتعدًا ناحية المكتب، بينما أطفأ «أندريا» الكاسيت وموسيقى الترانس تكنو التي يستمع إليها «أندرز» الفتى السويدي متعاطي العقاقير (بيبلبع برشام) وشغّل مكانها أغنية «سليبكنوت»: الناس=خراء بأعلى صوت، زاعقا ها نحن نعيده ثانية يا بن الوسخة وبنوع من سورة الغضب المكبوت أخرج السكاكين وآنية المطبخ وحزم البصل، ومكعبات الزبد، وأكياس الدقيق والسكر والملح والكسرولات مختلفة الأحجام، وألواح التقطيع متباينة الألوان، مثل شخصية كارتونية عجيبة مسحورة.

«ماش» اسمه الحقيقي «مسعود» (لستُ أدري لِمَ سُمّي أو أسمى نفسه «ماش»؟ غير أني أخمّن أن أحد الطهاة الأوغاد أسماه «مشروم» ودعا الآخرين لذلك أيضًا، ليحقّر من شأن هذا العربي الصّغير) حيث بدأ العمل كمنظّف مطبخ، ثم اشتغل على نفسه وارتقى ودرّب نفسه حتى صار طبّاخًا، طاهيًا متخصصًا كما طاب له أن يوصف إذ يجلس إلى المشرَب يحتسي مشروب الكاپوتشينو تلو الآخر، يدخّن سجائر مارلبورو لايتس ويقرأ وصفات الطّبخ التي نادرًا ما يقبل بها وعلى مضض، فإن توجّهتَ إليه يرفع

يده كأنّه يقول لا تزعجني، فإن لم تنصرف نظر إليكَ بابتسامة جانبية قائلًا: ألم أخبركَ عن خصيتي الكبيرتين؟ ألم ترَ الخنفساء من ظهرها من قبل؟ أعني ذلك فعلًا؛ إن لي خصيتين مشعرتين ثقيلتين كبيرتين للغاية، فنقول: لمَ إذن لا نراها الآن إن كانت بهذه الضّخامة؟ فقال «ماش»: يشهد الله أن السبب بنطلونات باجي الچينز، فقلنا: ليست باجي على وجه الخصوص يا «ماش»، فانظر إلى «أندريا» هذه بنطلونات باجي، فقال إنه خداع بصري، فبنطلونات «أندريا» ملأى بالهواء تمامًا كعقله.

- حسنا، أرِنا إذن.

- فسأل مبتسمًا: ماذا؟

- خصيتاك يا رجل.

- لا، لا يمكنني ذلك، أسف يا أصدقائي، وحدهنّ النّساء من يمكنهنّ رؤيتهما، أما الرّجال فلا يمكنهم التحمّل إذ تُفقدهم الغيرة عقولهم حتّى إنهم يحاولون قتلي، هاك انظر مشيرًا إلى ندبة بعنقه طولها حوالي سبعة أو ثمانية سنتيمترات، وغليظة كدودة الأرض، فقالت «ليز»: فلتُرِني وحسب إذن، فسكتَ واحمرّ لونه ورفع أصبعين بينما لم يعرف أحد ما الذي يُفترض أن يعنيه هذا.

«ماش» جزائري لم يخفِ قطّ احتقاره للمغاربة؛ الطبّاخ «طاهر» وعامل المطبخ «أمين»، و«طاهر» هو ذراع «ماش» اليمنى وطبّاخ الصلصات على حد قوله لكنه ثقيل الحركة وعديم الكاريزما

ويعاني كذلك من حالة تُعرف بارتخاء الجفون، أي تهدّل الجفن في العينين؛ لذا فقد بدا دومًا ناعسًا كما لو أنه على وشك النوم، الأمر الذي أظهر جانبه الخامل إلى أبعد حدّ، وبالنّظر إلى ذلك كلّه، بات «ماش» يشعر بالاستقرار أكثر في منصبه، أمّا «أمين» فهو في منزلة أقل إذ يدعوه «ماش» طاهي الحوض أو مسئول الغسيل أو شيء من هذا القبيل كما يقول «ماش» مبتسمًا.

كان هو الشّخص الذي يعيش بـ«هيجايت» في «إليفانت آند كاسل» في شقّة ذات سرير واحد مع أبيه الأصولي، حيث عمل الأب كمنظّف بالأنبوب، وقد كانا يرسلان المال إلى باقي أفراد الأسرة الذين يعيشون في إحدى القرى الصّغيرة بالمغرب، «أمين» عُمره سبعة عشر عامًا لكنّه ما يزال طفلًا من نواحٍ عِدّة، وهو جاهل بشكل أساسي، وبلا خبرة تمامًا ولا يعلم سوى أقلّ القليل عن العالم خارج شقّة أبيه وعن الطّريق من وإلى العمل، ثم أتى ووقف على بعد عشرة سنتيمترات من وجهكَ، ثابتًا هناك وحسب يتنفّس ويشاهد ما تفعله، مما أثار حنق «أندرز» حقًّا حتّى إنه ليفحّ فيه: تراجع بحق اللّعنة يا «أمين»، ألم تسمع قبلًا بالحيّز الشَّخصي؟

قال «أمين» ببراءة: الحيّز الشَّخصي؟

اللعنة يا «موش» أخبر «أمين» عن الحيّز الشَّخصي.

كلّا، كلّا، كلّا، لا يمكنكَ، فهو لا يفهم ذلك، إن الأمر معقّد للغاية.

فلتذهب لتغسل المواعين يا «أمين» وبالعربي: يللا، امشي، لا تقف

هكذا محدّقًا.

ولعلّ «ماش» يقول عن المغاربة: فلّاحون ملاعين، إنهم كالأطفال، ليس الأمر بيدهم إذ إنهم ليسوا أحسن من ذلك، فعليكَ إذن أن تعاملهم كالحمير هكذا.

فقلتُ: اسمع يا «كيكو»، هل أنتَ نائم أم ماذا؟ ما بكَ؟ وما هذا الهراء الذي تحدّق به؟

انصتي إليّ يا «راونا» الآن، إن هذا أمر مهم، فأنا أعلم كيف أحبّ «أندريا» أن ينهي عمل «أمين» أيضًا، إذ اعتدنا -كما تعرفين- على إرسال حصّة الغسيل إلى القبو في أقفاص بلاستيكية زرقاء كبيرة من خلال مصعد صغير فيما يأتي أحيانًا ليتفقّد الأقفاص ويرسلها إلى أسفل إن كانت ممتلئة، وفي كل مرة يدخل فيها المطبخ، كان «أندريا» يتناول مشروبًا على حسابه قسرًا.

ثمّة رفّ صغير فوقه النبيذ الأبيض والأحمر والكونياك والرَّم والمقبّلات وبعض ممّا قد تجد نفسكَ تستعمله أثناء إعداد الطّعام، والذي وجد أغلبه طريقه إلى معدة «أندريا» غير أنه كان ماهرًا في إخفاء الأمر، كما يعرف أنه سيجري فصل «أمين» إذا تبيّن أنه يحتسي حصّة الشَّراب بالمطبخ، فكلّنا محظور علينا ذلك، لكنهم يميلون إلى التغاضي عن المسألة مع الطهاة ومع «أندريا» تحديدًا لطول فترة عمله هناك وبراعته في أداء وظيفته خاصة في ذروة فترة الغداء الأكثر ضغطًا وقبل أن يتدهور سكرًا، كما أنه أدرك كذلك

أن معاقرة الكحوليات تتعارض مع قناعات «أمين» العقائدية، لكنه مع ذلك ليصب جرعة أو اثنتين في كوب المطبخ العياري ثم يصفّر قائلًا لـ«أمين»: انظر يا صديقي، هذا من أجلك، جرّبها، فهزّ «أمين» رأسه في عصبية مُبديًا ابتسامة غريبة قائلًا: لا، لا، لا، ليس من أجلي، فقال «أندريا» مشجّعًا: هيّا الآن فلتكن رجلًا، فرفع «أمين» كلتَا يديه إلى وجهه ملوّحًا بهما ببطء، بينما مرّ «أندرز» بنا وبيديه دلوان أبيضان سعة كل منهما خمسة ليترات وقال بابتسامة: فليكن يا «أندريا»، فقال «أمين»: كلا، كلا، كلا، إن أبي ليقتلني مشيرًا بعلامة الذّبح رافعًا أصبعه نحو عنقه وحرّكه أمامًا وخلفًا عدّة مرّات، ووضع الأطباق النّظيفة مرصوصة على الرّف، ضحك «أندريا» قائلًا: وكيف له أن يعرف؟ وواصل واضعًا ذراعيه إلى جانبيه: مَن سيخبره؟ هل ستقول شيئًا يا «طاهر»؟ فنظر الأخير إلى «أندريا» بعينيه التَّعِبتين وهزّ كتفيه بلا مبالاة إذ يُخلي كتف الخنزير من العظام، فهو لم يكن قطّ معجبًا بـ«أندريا» على وجه الخصوص، قطّ، أمّا «أمين» فقد وضع قفص الأوساخ في المصعد وأغلق الكوّة، فواصل: أنتم أيّها المسلمون فسدتْ رؤوسكم، هيّا يا «أمين» كن رجلًا، ودعك من «طاهر» إنه يغار وحسب، لم يقل «أمين» شيئًا، إنّما وقف أمام الحوض يغسل يديه، فقال «أندريا»: وهو كذلك، فلتكن جبانًا إذن، سآخذها أنا مفرغًا المحتويات في جوفه، فأشاح «أمين» بوجهه، وذهب إلى مكانه، والأمر دومًا على المنوال نفسه.

تعلم أن «ماش» لم يكن ليفرّق بين نُطق «أندريا» و«أندرز»؛

حيث اعتاد أن يدعو «أندريا» بـ«أندرز» والعكس بالعكس، حتّى إنه ليدعو كليهما «أندروز» مما دعاهما في النّهاية إلى كتابة اسميهما بالعربية على مقدّمة قبّعات الطّهاة البيضاء ذات استخدام المرّة الواحدة تلك، حيث يمكن لـ«ماش» أن يصرخ قائلًا يللا، يللا! عمل، عمل، تحرّكا يا «أندِش» ويا «أندرا»! في خضم هذه العِظة بالعربية ممّا جعل «طاهر» و«أمين» يعضان على نواجذهما لفرط الإهانة، مطرقين نواظرهما إلى الأرض ثم يعودان إلى مسح الأرضية ورصّ الأطباق وجلخ الشَّحم عن الموقد أو أيًّا كان ما يفعلانه، تقول «راونا» هو ذاته القديم، هو ذاته القديم، القرف القديم نفسه!

أقول إنها ما تزال تمطر، ما الذي يحدث يا «كيكو»؟ هل وصلنا منطقة «إليفانت» بالفعل؟ مَن الذي يتولّى القيادة؟ تقول «راونا» فيما تغطّي ذراعها التي خربتْ تمامًا فيما تُنزل عليها الكُم أخيرًا وأنا أنظر إليها دون أن أقول شيئًا أولًا إذ أفكّر في الفأر الزَّاحف على أرضية غرفتي في تلك المرّة التي جاءتْ فيها لزيارتي، ثم لا يسعني أن أتمالك نفسي فأقول «راونا»: هل تذكرين؟ أتذكرين تلك المرّة التي مكثتِ فيها معي؟ حين كنتِ تحاولين الخروج من برجك العاجي وكل ذلك؟ أسندتْ رأسها على النّافذة المغبّشة التي تبدو كما لو تمحو الشّوارع والمطر والأضواء المختلفة الملوّنة قائلة: ما الذي تتحدّث عنه؟ أظنّ أن كلينا يفكّر في تلك الغرفة الجامحة في «بريكستون» حيث تعيش مع أختها وصديقها -ما جنسيّته؛ تشيكي أو سلوڤاكي أو شيءٍ كهذا؟- إذ لم يكن حتى لديهم حمام

أو مرحاض خاص؛ لذا إن كنتَ عندهم في زيارة، فستجدهم يجلسون ويتعاطون الحقن مباشرة هكذا أمامك، برغم أنهم لا يرغبون في ذلك حقًّا؛ لذا فهم يستديرون ويعطونك ظهورهم كيلا ترى عملية الحقن وتعاطي الإبرة نفسها فعلًا، الأمر بمثابة حدود ما وقد تخطّوها وهم يدركون ذلك حتّى حينئذ، قالت «راونا»: تبًّا لما تتحدّث عنه، فأدركتُ أنها محرَجة.

إن ذلك الأسلوب اللامبالي للمدمن غبي ولعين تمامًا إن كنتَ لا تلمسه من دّاخله أمّا إن فعلتَ، فلن يمضي وقت طويل قبل أن تصير منفِّرًا كسائر المدمنين، ظاهريًّا على الأقل، إذ قد يصبح مختلفًا تمامًا داخلك، فـ«راونا» تضطرم النيران فعلًا داخلها، بينما هي شخص لطيف وقوي ومتواضع، وعلى العكس من أختها وذلك الشّخص الذي تعيش معه، فإنها لتنتشل نفسها من أسوأ تلك الأوضاع، فقد ساعدتْني «راونا» بينما أنا شاحبٌ مريض، بينما أخرج هلعي وقلقي أفضل ما فيّ، إذ عجزتُ عن التأقلم مع هذه الخزعبلات، لم أستطع التوقّف والانسحاب، عجزتُ عن النّوم وصرتُ أعاني الپارانويا والاكتئاب، ولم يفلح الحشيش معي بينما ساعدتني الكحوليات قليلًا، ولم يجرؤ أحد على تعاطي مخدّر إكستاسي أثناء العمل.

صار الأمر أشبه بكابوس كما لو أن الأرضية ستبتلعني إلى حيث حفرة بلا قعر في أسفل الجحيم، أردتُ البكاء كالأطفال بينما تعيّن عليّ العمل بجدّ لأحافظ على ارتداء القناع، وقد أبقيتُ القناع وكنتُ

صلبًا، لكن وحدها «راونا» تعرف فرأتِ الذّعر -لستُ أدري- في عيني.. في لغة جسدي، أو لعلّها اشتمّتْه في أنحائي، فوقفتْ إلى جواري وأخذتْ بيدي وحسب، فوقفنا كلانا هكذا خلف المَشرب في أول المساء حيث لا يوجد مقامرون كُثر، بل مجرّد بضعة من شباب الأثرياء يتناولون مشروبًا ما بعد العمل، فوقفنا وحسب متجاورين بزي العمل وقمصان شركتنا التي أظنها حوتْ شعار «بكاردي» على الجانب الأيمن من الصَّدر، ذلك الشّعار الظّريف الذي هو عبارة عن وطواط، وبمريولاتنا السّوداء، لأهبط في النهاية في عناق المستقبل الدّافئ وفي روعة الصّباح الرّقيق على متن السّطح العلوي للسفينة في عامي الثامن والثّلاثين، أمّا هي فكانت رقيقة ومنتعِشة للتّو وهادئة ومتّزنة تتوهّج عيناها وتتلألأ وتضوي إذ تحتضن يدي بينما أنا -أجل- كطفل تخبره حينها أن الأمر سيصبح على ما يرام، وستكون بخير.

لذلك فلمّا قالت إنها تنوي الإقلاع عن الهيروين، كنتُ هناكَ من أجلها بالطّبع، فجاءتْ ذات مساء ورحنا نتسكّع، أشرب وأدخّن بينما هي في حالة مزرية فجلسنا ودردشنا، لا نفكّر في «الهباب» حتى غططتُ في النّوم على الأرض فيما هي تتلوّى وتتوجّع إلى جواري في سريري، كان عليّ الذّهاب للعمل في الصّباح، فتركتُها نائمة حين غادرتُ، ولمّا عدتُ للمنزل ذلك المساء كان هناك جرذ ميّت على الدَّرج، جرذ رماديٌّ ليّن صغير ذو أقدام وردية بينما «راونا» كانت قد ذهبت، بلا رسالة أو ملاحظة أو أي شيء، وأقسم أني رغمًا عنّي فكّرت لثوانٍ قليلة أنها ذلك الجرذ، وأنها ماتت وأن

ذلك هو جسدها الحقيقي، وأن ذلك هو ما كانت عليه حقًّا، مجرّد قارض أو أحد الهوام ببساطة.

قالت «راونا»: أنتَ تعبث معي، فهذا لم يحدث قطّ يا رجل، أنتَ تعبث وحسب يا صاح، فقلتُ: أبدًا يا «راونا»، ألا تذكرين تلك الرّسائل المكتوبة التي اعتاد كل منّا إرسالها إلى الآخر؟ أعليّ أن أسلكَ دربًا ملتويًا، أعليّ أن أزحف مهزومًا ومنكسرًا؟ فيكتب «أرجو»: لم عليّ أن أكون اللّص، لم عليّ أن أكون اللّص؟ فيقول «كودي» إنّكِ تخاطبين شخصًا ليس موجودًا يا «راونا». إنّنا لا نعرف ما الذي تتحدّث عنه.

أستدير إلى «كيكو» غير أن مكانه في السّيارة خالٍ: يا «كيكو»؟ أين أنتَ؟ ما الذي تعنينه يا «راونا»؟ ألا تذكرين ذلك الرّجل من «مونتنجرين»؛ «ماركو» أو «ميركو» أو «ماريو»؟ نعم، هو كذلك، «ماريو» الذي كان يثرثر دائمًا عن استقلال مونتنيجرو عن الصّرب بغض النّظر عن موضوع الحديث وما إذا كنتَ تتحدّث عن تصنيع الجبن أو الجوارب المثقوبة أو الظّربان أو القرص الدوّار أو الأدب الرّوسي المعاصر، أي شيء على الإطلاق، أيًّا ما تناقشه كان ليعيد توجيه دفّة الحديث نحو «كرنا جورا» أي الجبل الأسود ثم يشرع في الغناء «أوي سڤيتيلا ماييشكا زورو» نشيدنا الوطني المستقبلي مايكا ناشا كرانا جورو. ألم يعد ذلك مهما بعد؟ اللّعنة، كيف إذن تأتّى لي أن أتذكّره يا «كيكو»؟

استدار «ماريو» لـ«پاولا» الفتاة الإيطالية التي يسمّيها «إيزابيللا»

لأنه يعتقد -وهو نوعًا ما محقٌّ- أنها تشبه «إيزابيللا روسيلليني» لكن مع فالج بين سنّيها الأماميتين، مُنشدًا «أوه سول ميو» قائلًا شيئًا مبتذلًا، أمّا لاعب كمال الأجسام -«ديڤيد» من مدريد- فقد قدّم إلينا بعضًا من الكوكايين بينما يحاول عامل المَشرب -«محمد» الذي يسمّي نفسه «دان»- إخفاء تدخينه للحشيش في رمضان، فكان يتوجّه إلى مراحيض العاملين بالقبو ليتعاطى جرعاته سرًّا حتّى أدرك سخافة الأمر وأن الجميع يعلمون بما يفعل فقال إنه يدرك أنها مسألة بينه وبين الله، وعلينا أن «نطلع منها»، برغم أننا في الواقع لم نحشر أنفسنا فيها من البداية أصلًا.

أمّا «ديريك» فهو شاب پولندي يرغب دومًا في التسكّع معي، يغسل ملابسه دومًا في المغسلة المخصّصة لملابس العمل كيلا يدفع مقابلًا لذلك في المغاسل الخاصة وحسب، فتراه يتسلّل باستمرار حاملًا حقيبة ملأى بالملابس الدّاخلية والكنزات وملابس الـ ج ينز الرَّطبة. عريض المنكبين حقًّا.. همجي فعلًا.. شخصية مهرّجة قد يمشي بين أعمدة الإنارة يقذف الفتيات بواحدة من ابتساماته تلك، ويرمق المثليين بتلك الطريقة حيث تتّسع عيناه للغاية لقلّة حيائهم، بينما ترى في وجهه فضولًا بنفس قدر خوفه المذعور، وقد اعتدتُ أن أحلق له رأسه في حجرة العاملين القذرة بالقبو بين المغسلة والخزانات حيث الخرسانة الرّطبة وحيث يتوافد رتل الموظفين باستمرار من أجل تدخين الحشيش بجوار فتحات التّهوية فوق المراحيض؛ أمثال «دان» وتلك الفتاة الإيطالية، لا، ليست «پاولا»، بل الفتاة الأخرى؛ تلك التي كانت مع موزّع المخدّرات الذي أتعامل

معه، تلك التي تأتي لتثرثر بالهراء عن «الريّس» ذلك الأبله اللعين فيما أنا أقف خلف «ديريك» الجالس على القفص يراقب المغسلة حيث ملابسه تلف وتدور داخلها، أضغط ماكينة الحلاقة في رأسه، بينما يردّد طوال الوقت: أشدّ، أكثر، أعمق، وأنا أضغط ماكينة الحلاقة اللعينة تلك في خصيتيه بكل قوتي منتظرًا أن تتطاير أجزاء من جلده في كل مكان في أي لحظة، بينما كل ما يقوله: أشدّ، خيو، مونتسيي أي أقوى بالپولندية، أقوى، مونتسيي كورڤا أي أقوى بحق اللعنة، وأنا أواصل الضغط أكثر فأكثر لكنه لم يكن راضيًا قطّ.

اللعنة يا «راونا»، كان عليّ أن أسلخ رأس هذا الخنزير الصّغير، وأن أكشط جلده بسكاكين «مسعود» التي كان يرسلها للشّحذ بالليزر بين أسبوع وآخر فتعود حادة لعينة حقًّا، حتّى إن هناك دومًا من يجرح نفسه بها، بينما يدخل «ديريك» الذي يودّ أن يلقي نظرة فحسب من باب العلم بالشيء ضاحكًا؛ اللّعنة بالپولندية تلك السكاكين اللعينة حادة. لقد حلقتُ رأسي شخصيًّا بالشّفرة، وبعد أيّام قليلة من الحلاقة ينتابكَ شعور لطيف فعلًا حين تستيقظ في الصّباح وتمرّر أناملك على رأسك بين نبت الشّعيرات لتشعر بتلك النّعومة ثم تسمع خشخشة السّنفرة تلك حين تسحبها بالعكس وتحس بالخشونة والنّعاس يغادر جسمك.

خارج نافذة القمرة يمتد المحيط.. اليّمّ السّرمدي.. ذلك اليّم الخالي المروّع اللّا مفهوم بكل تلاطمه وهياجه.

البحر يا «راونا»، أتشتاقين إليه؟

أم تُراكِ نسيتِه؟

نحن بالسيّارة الأجرة الآن في «جلاسجو» ننطلق بمحاذاة نهر «كلايد» على الطريق الجنوبي صوب «جوربالز» حيث ثمّة ما يحدث لدى «ديما». دفع «داويد» أجرة التّاكسي، كما تركنا نتعاطى خطّين من المسحوق المخدّر حيث يتصرف ببعض الغرابة، حتى أنّي تساءلتُ في نفسي: ما خطبه؟

يضحك «ديما» بلؤم؛ إنه يعمل في مجال الهدم والإزالة، ويعيش هو نفسه في شقة على وشك الإزالة، فهل ستهدم نفسك يا صاحبي؟ أستأتي بكُرة الهدم لتؤرجحها فتضرب بها رأسك؟ تعلم أن ذلك صحيح، تقول «راونا»: الآن، الآن لا تضيّق خلقك، ويسخر «ديما» قاصدًا اللّعب بالألفاظ: جفّ دمك مع «ديما»؟

نواصل الطّريق بينما يقول الرّجل العجوز إننا لنا نصيب لا بأس به مع عصابات الشّباب كعصابتي شارعي «مولبري» و«تشيري»، بل حتى عصابات الفتيات مثل «نوتوريوس روبينيتس»، بينما على أيامي كانت عصابات «واي-أوز» و«پوتاش» و«مولاسس جانج» وغيرها تهدد عصابات شارع «مولبري» و«فايف پوينتس»، فعيّنّا وسيطًا مخصوصًا لنحاول إقناع العصابات بإدماجها في نوادي ومنظّمات الشّباب حيث التدريب على رفع الأثقال وألعاب الكرة والشّيش وأشغال الجلد والخراطة والحدادة وأعمال السّيراميك

ودروس الرّسم والباليه والرّقص النّقري. كان لدينا متجر لقفّازات الملاكمة وحاولنا جذب العصابات نحو حل خلافاتهم بأساليب أكثر رياضية على حد التعبير، لكن بدلًا من ذلك فقد تعرض النادي ومحتوياته الدّاخلية للتّدمير أكثر من مرّة، حتى أن إحدى العصابات المسالمة حاولت مداهمة صناديق أمانة المنظمة من أجل شراء أسلحة متنوّعة بغية الدّفاع عن النفس في إحدى المرّات.

بعض من هذا الخلل الاجتماعي لدى الشباب وجد تعبيراً عنه في الموسيقى، بذات الطريقة الخشنة التي تجدها في «هل كيتشن» و«پورت أف اسپين» أو «ترينداد» وغيرها العديد من فرق الكاليپسو أو نهاية العالم، وفرق الرّقص حتى إن فرقة «رييس راملرز» حققت قدرًا ما من الشّهرة.

أروي لهم عن مجريات مقابلة توظيف في مكتبة دبرها لي «چيمس» بمتجر للكتب في الـ«وست إند» حيث مؤلّفات «ڤولتير» و«روسّوو».. مكتبة حقيقية لعينة ذاخرة بالكتب القديمة مع حجرة الشّاي التشيكية وكل شيء، فيقول «ديما»: تبدو كوظيفة طبيعية، يا للقرف، لا تفسد الأمر يا صاح، فمن الجيّد أن يكون للمرء أصدقاء طبيعيون.

- ما الذي تعنيه؟

- يبدو الأمر مثل شاي العصاري.

- ما الذي تعتقد أني أقصده؟

- حقًّا، ماذا تقصد؟

- ما الذي تعنيه بماذا أقصد؟

- هل أنتَ بطيء الفهم تمامًا؟ إنه يقصد أن لك أصدقاء طبيعيين آخرين وأننا حثالة، غجريون، غجر فعلًا، لهذا السبب سينجح الأمر معك؛ وظيفة طبيعية، وحياة طبيعية، وكل هذا القرف، يبدو الأمر كنزهة بالحديقة في يوم مشمس.

يقول «ديما»: وأنت؟ ويشير إلى كل واحد بشخصه أنا أعلم مسميًّا: سجن، جرعة زائدة، إرهابي، عامل نظافة، الخدمات الاجتماعية، عامل مراحيض.

إي، كيف سأصبح عامل نظافة؟ إنها الأسوأ من بين كل ما قلتَه؛ فأقول: أنتَ تتفوّه بالكثير من الخزعبلات يا «ديما»، كلّكم ستصيرون بخير، أعلم ذلك وأنا مقتنع به تمامًا. فتقول «راونا»: سأفسد هذه الوظيفة ككل ما قبلها وحينها سيصبح كل شيء على حاله، على حاله، على حاله، على حاله، على حاله، على حاله القديم ثم ماذا حينها؟ حينها؟ تعلم ما سيحدث حينها.

الفصل الخامس

الزَّهور، ما الأمر بخصوص الزَّهور؟

عندما عزف «موسّمان» ماين قِج هَت جيبِفل ڤالنتولر أو يحوي دربي قممًا وقيعانًا هناك بالكاتدرائية، كان بوسعي أن أرى البِنى الانكسارية، كيف استمرّت بنا التغييرات عبر الأيام، يومًا تلو الآخر ثم الذي يليه والذي يليه وهكذا عامًا بعد عام مثل سقوط البتلات الرّقيقة النّاعمة التي تسقط بيضاء وردية وحمراء وخضراء زاهية زكيّة العطر مرتجفة، فيما أجلس بالفعل على الدّرج بالخارج أنتظر «أرجو» وأفكّ السّبارس أستخلص منها ورق البفرة ماركة

«ريزلا» كأنه جديد، قبل أن أسمع صياح أحدهم: يا زميل! لقد رسونا عند مرفأ ما جديد لا اسم له، وقد هبط الآخرون من أجل حضور مباريات «كي وان جالا» للكيكبوكس، غير أني و«أرجو» رغبنا في الرَّقص فتسكّعنا في الأنحاء قليلًا وتحصّلنا على بعض المعلومات حيث اضطررنا لتمضية بعض الوقت، ثم توجّهنا إلى «ميجا تسكو» وابتعنا بعضًا من عصير التّوت البرّي وعثرنا على ركن في الجزء الجنوبي من المتنزّه لنتجرّع القودكا على الطريقة البولندية، كما قال «ديريك»: جرعة شراب من القنّينة تعقبها جرعتا عصير من العلبة، نعَتني «أرجو» بالهمجي، وقلتُ لو أني همجي لضاجعته، فقال: يمكنكَ لو أردتَ، لقد مصصتَ قضيب هذا الإيطالي، أليس كذلك؟ سألتني بكّ كما لم تفعل امرأة من قبل، قلتُ إنّكَ تعلم أنها كانت غلطة، الأمر يتعلّق بتدمير الذّات أكثر منه بالجنس، فهمتَني، فتجهّم؛ لذا قلتُ له: ستكون أوّل من أتّصل به عندما أنفتح مكاشفًا للآخرين.

- عِدني.

- أعدُك.

- تعلم أن ذلك لا يعني أنّكَ مثليّ.

- ماذا؟

- أعني لو أنّكَ مارستَ الجنس معي، إنه كما في الممارسة الفموية؛ حيث الطرف الذي يقذف لا يتأثر، كما في «أغادير» إذ لم أجد هذا

العدد من قضبان الرّجال في أي مكان آخر، لكن إن أخبرتُ هؤلاء الرّجال أنهم شواذ لقتلوني، لضربوني حتّى الموت بالضبط، فكنتُ أنا الشّاذ، أمّا بالنسبة لهم، فهم رجال ذكوريون مغايرو الجنس يضعون عضوهم في أي فتحة وحسب، لا فارق إن كنتُ رجلًا أو امرأة أو حيوانًا أسود أو أبيض أو حتى رغيف حواوشي، فاهمني؟

- أجل، أعني، لكنّي هكذا أكثر حذلقةً من ذلك، صحيح.

- بالطبع، اللعنة، لقد نسيتُ فأنتَ تقرأ للأستاذ «عريان هسّه» وتعلم طريقة هجاء «كوول» شيء.

- تمامًا، باستثناء أن اسمه «هرمان»، السّيد «هرمان هسّه».

- حسنٌ، جيّد، فهمناكَ بوضوح؛ لستَ همجيًّا، لستَ مثليًّا، لستَ حتّى ثنائي الممارسة، بل أنتَ ببساطة مغاير متحذلق، ووحيدُ ربّما لكن لعلّ بمقدورك أن تضاجع واحدًا من خيلك ذلك الذي تعتلي صهوته في خيلاء، ضحكتُ وقلتُ: ربّما أفعل يا «أرجو» طالما أنّها خيول إناث، تلك التي ما اسمها؟ فرس أو مهرة؟ إذ سأخبرك إذا حدث وترجّلتُ عنها حتّى يمكنكَ المشاهدة.

- إذن، بإمكانكَ القذف في مؤخرتي العفيّة. أووه، يا للكرم يا عزيزي، لكنّكَ تعرف أن الملكات الفاتنات لا يجلسن هكذا ليحملقن في فروج الخيل.

- كلا، كما أنهن غالبًا لا يستعملن لفظ فروج أيضًا.

- فلتتضاجع نفسك! بل يفعلن أحيانًا خاصة إن أثارهن مغايرو الجنس المتفذلكون المستثارون الذين قد يفضّلون معاشرة الأوساخ المجانين مدمني مخدّر السپيد عن إشباع كبتهم.

- فلتتوقّف هنا، لم أمارس الجنس معها، والأمر كله كان غلطة في كل الأحوال. لقد شعرتُ بالخوف حقًّا عندما كنّا في هذا النّادي لأول مرة محاطون بعضلات كل أولئك المثليين المتأنّثين أولئك الـ«ماسل ماريز»، أجل، إنهم قد يصبحون فعلًا منفّرين، نعم، لكنّي لا أقصد الأمر بتلك الطريقة إيّاها، أعني لقد لمستُ كم هم أقوياء وضخام حتّى إنهم أرادوا ضربي «علقة»، بينما لم يكن لديّ أي فكرة عن كيفية التصدّي لهم، فذهبتُ إلى السَّادة الذُّكران منهم، وكانوا ثلاثة بالمكان يرقصون وسط رائحة البول على أغاني پيس فيومز، الأمر سخيف يلفّون ويتراقصون بصدورهم العارية غارقين في العرق بكتل عضلية مدهونة بزيوت السُّمرة اللامعة، ممّا حدا بي إلى تذكّر صور الرّياضيين الأقوياء ذوي العضلات التي يحملها الأولاد الذين يرونني ظريفًا ومقطقطًا عندما كنّا صغارًا، حتّى إنهم يميّلون رؤوسهم نحو المبولة ليتحققوا من عضوي ويعلّقوا بشأنه ممّا يعوقني عن التبوّل أو يجعل المسألة تستغرق وقتًا أطول.

قلتُ بيني وبين نفسي: اللّعنة، لو أراد هؤلاء المثليّون المتأنّثون اغتصابي لفعلوا بمنتهى السّهولة، فضحك «أرجو» موضّحًا: لكن يا قلبي المتأنّثون من «ماسل ماريز» لا يقوون أبدًا على الانتصاب بسبب كل تلك المنشّطات التي يحشون أجسادهم بها، والبلاوي

التي يتعاطونها للظهور بذلك المظهر؛ لذا فهم يبدون أقوياء وبرّاقين ظاهريًّا لكنهم في داخلهم عفنون، الأمر أشبه كما لو أنّهم تالفون غير أن مسألة الانتصاب من عدمه لا تصنع فارقًا، فالأمر إذن لا يتعلق بها.

المثير للاهتمام هو تفكيري في المسألة حيثُ اختبرتُ شيئًا جديدًا تمامًا بالنّسبة لي؛ ذلك الوهن والهشاشة المتعلّق بانتباههم العنيف نوعًا.

فلتسمح لي أن أقدّم إليكَ جانبكَ الأنثوي يا «كودي».

جانبك الأنثوي! بل هاكَ يا صديقي جانبكَ الجاهل.

حسنًا، نعم، فهذا للحقّ ما اعتقدتُه أيضًا؛ ذلك الرّابط بين الذّكورة وبين تلك الخاصيّة التهديدية أو العنف الجنسي أو أيًّا ما تسمّيه.. أمر مثير للاهتمام!

- تعتقد أنه أمر مثير للاهتمام؟ يبدو أنّكَ لم تشعر بالرّعب بالقدر الكافي.

- ماذا تقصد؟

- أمامكَ الكثير لتتعلّمه يا رجل.

- تبًّا، لا يمكن أن أكترث لكل هذه الثّرثرة، هذا كثير! إنه مساء الجمعة ووقت الاحتفال إذ عليّ أن أعاود العمل قريبًا جدًّا بحق اللّعنة، هات زجاجة الشّراب هنا فعلينا أن نتّجه للنادي سريعًا.

ازدرد «أرجو» ريقه وابتلع جرعتين كبيرتين من القنّينة وكشّر عن أنيابه، ثم استقللنا التّاكسي إلى «أنودين»، حيث أشاع البعض أن ثمّة عازفين عباقرة جددًا سيقدّمون عرضهم ويعزفون مع «أريل بريخا»، في التّاكسي وضع «أرجو» يده على فخذي، فنظرتُ إليه وضحكتُ، تعانقنا وقال: أتعلم لو أمكنني فعلها بطريقة ودّية لاغتصبتُكَ على الأرجح، فربّتتُ على رأسه، وقلتُ: من الأفضل أن تكبر بضعة سنتيمرات على الأقل أوّلًا.

تجمّع الكثيرون خارج النّادي في ضوء المساء الدّافئ، وعلى الفور شعرتُ ببهجة تتفجّر داخل أنحائي؛ دفء في صدري وكبرياء وبهجة.. كنتُ مفعمًا بالحياة حتمًا ولم أكن ميتًا، بل كأن ذلك وحده لا يكفي إذ رحتُ أستمتع بتلك الحياة المزرية كذلك، ألقينا التّحية على بعض الأصدقاء ثم غصنا في غياهب الأمسية، فدفع «أرجو» أجرة دخولي واختفى مع أحدهم على الفور، وابتعتُ شرابًا عاديًا وتناولتُ حبّة مخدّر منتظرًا أن تبدأ مفعولها، وعلى حين غرّة شممتُ «زفت» ولمّا جلتُ ببصري وجدتُ فتاة تقف بجانبي وتغرق وجهها بالمخدّر، تلاقتْ عينانا وشرعنا نتحدّث عن هذا «الزّفت» العطن، وبدأتُ أقصّ عليها حكاية ذلك النّادي الموجود بأحد الأقبية في «بلجراد» والذي واصل نشاطه المعتاد إبان قصف الناتو حتى تعرض المبنى المجاور ذات الليلة لقذيفة مما أدّى إلى طفح المجاري بالنّادي كلّه وتدفّقتْ آلاف اللّيترات من مياه الصرف النَّتنة على أرضية ساحة الرَّقص، فكنّا حرفيًّا نتمايل وسط الخراء، وتقيّأ البعض، وانصرف آخرون فيما بقي الأغلبية واستمروا في

الرّقص، كان الأمر ساحرًا تمامًا وخربًا تمامًا، فقالت: أوه، إذن لقد كنتَ هناك، فقلتُ مبتسمًا: طبعًا، فبدأتْ تروي لي عن ذلك الحفل البنفسجي الإضاءة على مسرح الـ«جلوب» -مسرح شكسبير- بلندن، حيث أقيمتْ حفلة عربدة لعينة في عام 1600، إذ تخبرني الفتاة أنها حضرتْها وأنها شاركتْ في طقوس إراقة الدّماء الماجنة التي تتذكّرها كلّها كما لو كانت بالأمس فقط، فقلتُ إن الأمر مثير للاهتمام فأخبريني بالمزيد، وضحكنا حتّى لاحظتُ وحمة كبيرة على مؤخرة وجنتها بالقرب من أذنها، وحين انحنيتُ مقتربًا أكثر لاحظتُ أنها مغطّاه ببعض الشّعر الرّفيع الخفيف من النّوع الذي تجده على البقع السّوداء التي يسببها مرض الكبد.

أسألها ما اسمكِ؟ فتهزّ رأسها وتفتح عينيها عن آخرهما وتقول: ليس «يوريديس» على أي حال أيّها المتشرّد، فندمتُ على تعاطي حبّة المخدّر تلك، لكن الوقت كان قد فات، أقول لها أشياء كثيرة فتهز كتفيها وتقول: يا لخسارتك. وأخذنا نتكلّم وبعد فترة بدأتُ أشعر بنفسي أنزلق بعيدًا، وبدا صوتها غريبًا مكتومًا متسارعًا فيما تقول إنه أمر مخزٍ، ويا لخسارتي، وتلمسني بلمسة رقيقة وناعمة فأردّد: أجل، إنه أمر مخز.

أريد أن أظلّ هناك وأن أقبّلها، لكنّ جسمي يتحرك ويرتعش بينما أعتذر إذ صار علي أن أنصرف الآن؛ فأميل عليها وأمنحها قبلة على وجنتها التي بدتْ أنعم حتّى؛ فذُبتُ فيها وولجتُ إلى جدار التّيه حيث الصّوت والنّور الوحيد.. كحيّز مستقل وفترة استثنائية

من الزّمن حيث الدفء والنعومة لكنّها أكثر سرعة، كما أن الرّقصة نابضة ومحرّضة وكاسحة، أمّا أنا، فأنا أحاول جاهدًا التقاط هذا الصّوت بجسدي والانسكاب معه والذّوبان فيه، وقبض ذلك النّور بعيني حيث الأشعة الحمراء والخضراء تصوّب نحو رأسي، لكن أحدهم يهزّني بغتة إذ يسألني: هل أنتَ بخير؟

بل أفضل من بخير، الحال مذهل، أو كيف أقولها: هل تدرك كم هو رائع أن تحيط ذراعكَ بكتفيّ؟.. ثم تتدفّق موجة جديدة من الصّوت وتلِجُ داخلي فأفكّر: أين أنتَ يا «أرجو»، أين ذهبتَ؟ أفتقدُكَ الآن وأحتاجُ أن تعانقني، غير أني أرسلُ هذا الفِكر بعيدًا، وبرغم أن ثمّة ما يناورني، لكنّي أعلم جيّدًا كيفية طرد المشاعر السّيّئة، أعلم كيف أفعلها.

يسألني الرّجل ثانية من بعيد للغاية: هل أنتَ بخير؟ وتدور حدقتاي إذ أجيب: بحق اللعنة، أجل، إني بخير طبعًا، ما الخطب، إن كل شيء تمام، كله تمام ويمكنني التعامل مع الوضع.

ثم يستمر الأمر ويستمر، وعندما يضيئون الأنوار يبدو كل شيء قبيحًا فجأة فيما الصوت يخترق ذهنك ويسكنه ويجعل الشّعر على مؤخّرة عنقي ينتصب حين أدركتُ الآن أن الحياة ستسبّب لي ألمًا لبرهة. أشعر بالظّمأ وأحتاج إلى ما يساعدني على تخفيف هذا الشّعور، لكن كل شيء مختلط ومشوّش الآن.. كل شيء قميء، وقذر، ومتثاقل، وبرّاق، ويغشي البصر..

أحدهم يتسوّل حبوبًا مخدّرة منّي..

أتّبع أشخاصًا لا أعرفهم في أنحاء المكان..

نخرج إلى الشَّارع..

أتحدّث مع شخص ممّن لا أعرفهم حول التسكّع معًا بعد الحفل، ويبدو كما لو أن أحدهم قد دهس وجهه على ما أعتقد..

ثمّة مَن ينظر لي في امتعاض، يسمّونه ناشسبيل أي كمالة الحفل..

ثمّة من يمرّر لي خطًّا من مسحوق مخدّر لا أعرفه غير أنّي أستنشقه إلى داخل تلافيف جمجمتي على أي حال، أعتقد أنه مخدّر الكيتامين الذي أواصل استنشاقه بنهم أكثر حتّى الأعماق كما لو أني خصّصتُ قطاعًا له وحده هناك في قمة دماغي عبارة عن فقاعة متوهّجة من قوة من الرَّصاص والنّور الخفيف. أبحث عن «أرجو» بينما أشعر كأني مثل پينك پانثر أو مثل ذلك الشّخص ذي الخطوات السَّخيفة حيث يختفي الجميع أمامي.

أستقلّ التّاكسي مع المزيد من الأشخاص الذين لا أعرفهم، أعدّ نقودي أي تلك العملات القليلة وحسب، فيما يتحدّث الآخرون الذين أمعن طويلًا في التطلّع إلى وجوههم علّي أتعرّف على أيٍّ منهم، بيد أني لا أستطيع، وها نحن الآن نصل إلى إحدى محطّات المترو التي لم أرها من قبل، والأغرب أني لا أرى أيَّ لافتة أو أي شيء يوضّح أين نحن على الإطلاق. نسير بجوار محطة الحفلات،

أقصد محطة الحافلات حيث يقف أناس حقيقيون بدا كما لو أنهم يحملقون في، فأخبرتهم أنه ما من داع للقلق، لا داع على الإطلاق دون أن أعي حقًّا ما الذي أعنيه بهذا.

بعدها مضينا نحو بئر درج ضيّق حيث ثمّة ملابس على الأرضية وحزام خصر جلديّ وضعته حول عنقي على سبيل المزاح، وإن كنتُ أفكّر في سرقته.

ثم إلى أعلى عتبتين أو ثلاثة، هناك ما يشبه الفيلم أو شيئًا من هذا القبيل إذ يرقد النّاس على الأرض بغرفة النّوم التي تنبعث فيها الموسيقى كذلك ويسود فيها هدوء وراحة فظيعة تخدم غرضًا معينًا يتماهى مع تلك الممثّلة في دور ممرّضة إباحية على شاشة التلفاز، لكنّي وجدتُ ألبوم «ذي پيرل» لكل من «بَد» و«إينو» فشغّلتُ منه أغنية لكن ظهر مَن جنّ جنونه وأخذ يقول إن الأغنية كئيبة وإن النّاس يقومون برحلات سيئة ويقتلون أنفسهم وأنا أردّ عليه بأنه معتوه وأنه لولا أني مهدود للغاية لسحقتُ أرنبة أنفه ولصقتُها في مخه، مع أني أتساءل من أين لي بهذه العدوانية التي تتربّع على أرضية الغرفة وتفترشها وما هو مصدرها بينما أشعر بالدّوار، وفي ذهني أقول: الرّحمة.. أظهر بعض الرّحمة.

تقع عيناي على إناء ضخم موضوع على البساط أمامي، يبدو أنه من الرّخام لكنّه في الحقيقة من البلاستيك، لكن لا، إن تلك الفتاة تطحن فيه حبوب العقاقير بالفعل، ثم تبدأ في تداول لوح زجاجي ومرآة أو هي أسطوانة مدمجة مع الجالسين حولها فألعق

سطحها اللّامع ومعه فم أحدهم، إذ لا يمكنني التّمييز حقًّا، لكن الأرجح أنها الأسطوانة المدمجة، وفي رواق الدّرج يمصّ بعضهم قضيب بعض.

أفكّر في الإيطاليين والطّفل في العربة وأشعر فجأة بالغثيان من عدّة أوجه؛ لذا عليّ أن أبدّل الأغنية وإذ أخرج نحو المطبخ أجد شقًّا فأحملق فيه طويلًا، حتّى أتتْ إحداهن تصفعني على خدّي قائلة: مرحبًا، هل أنتَ بخير؟

- بالطّبع أنا بخير، بل أفضل من ذلك، أنا سعيد وأُنصت إليهم كذلك إذ يتحدّثون بشأن مداهمة ما، بينما أنا أكره قوات الشّرطة بشدّة لعينة من كل قلبي. كنتُ أتحدّث عن طفولتي وعن شدّة كراهيتنا لأفراد البوليس عندما كنتُ صغيرًا، وعن إلقائنا الطّوب والحجارة على سيّارات الشّرطة، وعن تأليفي للقصص المأساوية التي أحكيها لهم وإذ يتجاوبون معي أستشعر ثمّة انفراجة، ومن هنا أواصل الثرثرة في كل حال، بينما ندخّن ونحتسي بعض مشروب الليمونادة السّادة أو المسكّر الذي أعدّه أحدهم ربّما، فهي ليمونادة، وهي مفيدة على أي حال، الليمونادة مفيدة لصفاء الذّهن.

أجلس هناك أثرثر وحسب، ولم أعد أدري ما الذي أتحدّث بشأنه.

أعدّ قضية من شيء ما، أو ضدّ شيء ما، غير أن هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص جالسين حولي ينصتون إليّ ويتداولون سجائر

الحشيش فيما بينهم، فيغطّ اثنان منهم في النّوم بينما أتكلّم أكثر وأكثر، ثم أغادر المطبخ لأمر بجوار الشّخص الذي معه الأسطوانة المدمجة وفي ذهني أنوي ضربه لكنّي أبتسم له بدلًا من ذلك.

ثم استيقظتُ لاحقًا على مقعد ذي مسندين لأن أحدهم قد قذف سكّينًا مباشرة إلى مؤخرة عنقي، أنهض لأنظر من النّافذة فأرى طبقًا من السَّلطة وكأس نبيذ أبيض، أعتقد أنه وقت الغداء في المقهى المفتوحة واجهته، وبياض القميص الأبيض يدهشني ويدهمني وينهكني ويصيبني بالألم، بينما أفكّر في حاجتي الآنية للمرحاض والألم الممضّ الذي يمزّق رأسي كما لو أن شفرة حادة تنغرس في مخي وصولًا إلى نخاعي الشّوكي، أدخل المرحاض وأنحني أمامه محاولًا تقيّؤ كل تلك الحدّة لكنّها تعلق، وتعلق سريعًا حتّى ظننتُه الموت الذي رغبتُ فيه نوعًا كي أفرّ من ذلك الألم الخام البيّن كرقاقات الثّلج كما لو أن عقلي قد تجمّد وفي طريقه لإهلاكي من دواخلي بنيران باردة كالصَّقيع وأحسب أني لا أرغب في الحياة هكذا، فلا يحدوني سوى أن أغرس أصابعي في قاع حلقي، في أعماقه وأدفعها بحركة دائرية كما لو أنّي أستمني في حلقي، وكأن بوجهي مهبلًا ما، فتجتاحني رغبة في الضّحك لمجرّد تصوّر ذلك المشهد بالرّغم من عجزي الهائل عن الاحتمال، وفي النّهاية يخرج بعض السّائل الذي يلهب معدتي وحلقي وتأخذ رأسي في الانقسام وتشدّني بعيدًا بمنأى عن الأمر، حتّى أقول في نفسي: لا يمكنني التحمّل، لا أقدر على تحمّل هذا، فماذا أفعل؟ ماذا عساي أن أفعل؟ ماذا عساي أن أفعل؟ أكررها آلاف المرّات مهرولًا

في ذعر بالغرفة كطفل صغير أحمق مثير للشّفقة فقد ذويه.

كل شيء غير حقيقي؛ الوحدة غير حقيقية والألم غير حقيقي، كلّا بل مفرط الواقعية، والوحدة مفرطة الواقعية أيضًا، فالجميع غافٍ بينما أهيم بسكّين في دماغي، أهيم -لا أعرف- لما تخاله ساعات ربّما، لكنّها لا تزيد عن عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأرجح، تخاله اليوم بطوله لكنّه من ثم يمرّ.. يفرّ.. يستمر وأنا منهك تمامًا ومبتهج قليلًا لنجاتي إلى أن جلستُ في المقعد ذي المساند ثانية، وقد عثرتُ على عقب سيجارة طويل فدخّنته، ثم سقطتُ غافيًا مجدّدًا، ثم صحوتُ واتّصلتُ بـ«ديما» فأجاب: خير يا خيو؟

- أجل، أمس كان مشحونًا جدًّا، لكنّي مرتاح الآن، وأشعر بأني أرخي العنان قليلًا، يا رجل، أين أنتَ؟

- بساحة القطارات، على الطّريق، إن المناظر الخلّابة في العشوائيات من الإبداع بحيث أن أي مصور ليلتقط العديد من الكادرات برغم أن غرائزه التّصويرية والفنّية لتخبره بانتفاء الشّروط المثلى اللّازمة لالتقاط أي صورة عمليًّا، والنّتيجة: صورة بائسة لكنّها لا تقترب حتى من بؤس المكان نفسه.

تقول بينما تنظر إليّ: ما الأمر يا «دي»؟ أراك أحضرتَ أصدقاءكَ.

فأمدّ يدي وأقول «كودي».

فتقول بابتسامة عريضة: «بيلادونا هِكس» لكن يمكنكَ أن تدعوني «پوركا مايسيريا»، أتردّد فتضحك وتكرّر اسمي متمعّنة

وتأخذ بيدي، أنظر حولي حيث الأرائك الوسِخة والحوائط الخضراء المصفرّة المغطّاة بالبطاقات والملصقات وصورة لطفلين باكيين أحدهما رُسم له شارب «هتلر»، والآخر رُسم له عضو ذكري في الجبهة وآخر أنثوي بالفم، وتستطرد: أمزح معكَ وحسب، إنه من دواعي سروري يا سيد «كودي» أم أنهم يدعونكَ «كودايين»؟ هاهاها، أسفة، تلك كانت نكتة سيئة، وتستدير لتفتح الخزانة ويظهر وشم لشعار فرقة «ميتالهيدز» على عنقها حيث تبرز فقراته، أُشعل سيجارة ويقدّم أحدهم لي كأس مياه معدنية مضافًا إليها شيء ما قائلًا: أتريد القليل؟ فأزدردها كلّها دفعة واحدة، وأشعر بعدها بأثر ضعيف لمذاق البول على لساني.

«أرجو»، «بيكا»، «ياكورد»، «ديما»، الجميع هناك..

الجميع ما عدا أبي وأمي. هاهاها

والأمير قد اختفى بالطّبع، أي إمارة تلك!

- ما الذي أنتِ بصدد فعله؟

ألا تذكرين يا «كوروا» كيف تفوح رائحة بول القطط دومًا عندما نقترب من بيت «أولجا»، هناك أمر ما بشأن القهوة، أو شيء بشأن الحمض أو الأمونيا أو أيًّا ما كان..

- آها، «كودي»؟ بحرف الكاف؟ هيّا مِتْ صغيرًا كاسم الألبوم الغنائي الاسكتلندي (كام أون داي يانج) هاهاها! صحيح؟ تقول «بيكا»: ألستَ كبيرًا نوعًا على ذلك؟

- «كودي»، هاهاها! كلّا، لم يفتِ الأوان! أجزم أنّكَ بدأتَ التّعاطي وشدّ سطر المسحوق المخدّر في السَّابعة أو الثَّامنة والعشرين من عمرك؛ بل أظن في الثّلاثين ربّما.

- كم عمركِ؟ في الثّامنة أو التَّاسعة عشرة؟

- عشرون.

- عشرون، كما ترين، أمامكِ متّسع من العُمر.

- هئ هئ، هيَّا مِتْ صغيرًا، هاهاها. أنتَ لستَ معي تمامًا، صحيح؟

- كلّا، ليس تمامًا.

- «ليس تمامًا»... تبًّا، إنّكَ لرجل «حِمش».

- ماذا؟ أنا؟ كلّا! فتدخّل الآخرون يدلون بدلوهم: حِمش حمشنة! فلتتجاهلها.

- ألا تعلم أن «بافلو بيل» كان اسمهم «كودي»؟

- من هم الـ«بافلو بيل» بحق اللَّعنة؟

- «بيفالو بُل» أو «بُلفايت بيتي».

- أها، إنّك تسخرين منّي، أو ما الكلمة المقصودة؟ تقذفين بهذياني كلّه في وجهي بغية تشتيتي، صحيح، غير أني أيضًا

بمقدوري تقيّؤ الكلمات، فماذا تريدين بحق اللّعنة؟ فيتوهّج شيء في عينيها إذ تمزج المكوّنات بيدٍ خبيرة مغطّاة بالوشوم والنّدوب، إنه يحرق، أجل، أجل.

- إنه خيارُكَ، إذ أستطيع أن ألعب أيضًا.

- إن الفهم أمر مبالغ فيه: إذ عندما تترك القرف خلفك، تدرك أنّك نفسكَ صرتَ قرفًا؛ لذا استوعب كلماتي؛ مِتْ صغيرًا الآن يا رجل، مِتْ صغيرًا الآن يا أخي، مِتْ صغيرًا الآن، هيّا، مِتْ صغيرًا، مِتْ صغيرًا الآن، مِتْ الآن. «كودي»، يا لها من نكتة! وأعطتْني حقيبة الظّهر، وقالتْ: ستعطيها أنتَ لـ«سلوڤاك»، وهو سيعطيكَ النّقود، الحكاية سهلة فلا تعكّها إذن، ثم خرجتْ بعد أن تركتْ لي ملاحظة: هيَّا فلتمتْ صغيرًا.

- ما المفترَض أن يعنيه هذا؟ قال «ديما»: إنّها تختبركَ وحسب.

أردتُ أن أسألها: ممّا أنتِ مرعوبة هكذا؟ غير أنّي وجدتُ الأمر لا يستحق لأنّكَ لن تفهم ما ستقوله، كأن حديثها تخاريف أو كأنها تتكلّم بالشّفرة، أو كأنه عليكَ أن تكون جزءًا من الأمر منذ البداية، أو أن يكون لكَ كتيب شرح لعين، أو برشامة للغش، ماذا يسمّونها في الشرق يا «ديما»؟ ملزمة، تمامًا، أنتَ بحاجة إلى ملزمة لعينة.

عادتْ «هِكس» بابتسامة هائلة؛ ضرّيبة تُمناية كما اعتدنا أن نقول يا ساقطة.

- أنتَ أيّها الرّجل الأبيض يا ذا العضو غير المختون، من فضلك

فلتكن من الطّيبة بحيث تجعلني أراه، لقد سمعتُ أن رأس عضوك حساس للغاية، ولذا فإنّك تقذف سائلك بعد ثلاث ثوانٍ ولا تستطيع تحمّل ألعاب الشدّ والجذب إيّاها، ولذلك فإنّكَ دومًا لا تنتقي من بيوت الدّعارة إلّا العجائز عديمي الأسنان، كاثيوليكي، قلتَ؟ لا تبًّا، سيتعيّن عليكَ الاعتراف لاحقًا بخطاياك، وكلّي أذان مصغية.

- حسنًا يا عزيزي، فلنتكلم جدّيًا الآن، هل لكَ سوابق؟ أو عليكَ تحريّات؟ أو كفالات؟ أو مسجّل تعاطي؟ أو مسجّل خطر؟ هذا جيّد يا «كودي» حتمًا يمكننا أن نجد لك شيئًا مناسبًا؛ فلدينا وظيفة لكل شخص، ولدينا مكان لكل ولأي شخص بحاجة له، وغمغمتْ: يا «كودي» اللعنة لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا كما تعلم، فمِتْ صغيرًا الآن يا صديقي قبل أن يفوت الأوان، إن الشَّخص الذي أنتَ عليه الآن سيموت مهما حدث، وسيموت صغيرًا إمّا لأنّكَ ستظلّ كما أنتَ -وفي تلك الحالة ستقتلك هذه الحياة- أو لأنّكَ ستصبح شخصًا مختلفًا، لكنّكَ ستظلّ تحمل جثّتكَ دومًا داخلكَ، كما تعلم كشيء يربض أسفل كل شيء، ووراء كل شيء، وبين كل شيء، وابتسمتْ مواصلةً: والآن، بتَّ تعرفُ، يمكنك أن تذهب الآن وتتلو أناشيد «السّلام عليكِ يا مريم». تصحبكَ السَّلامة باللاتينية أو أيًّا ما تُدعى، سنرى ما سيحدث أيّها المنيوك.

الفصل السادس

ثم كل شيء على حاله ساكن لاحقًا، جنّ اللّيل وصار النّوم مستحيلًا، ولاح النّهار واستحال التّفكير والإنصات كذلك، وقد لانتْ أصابعي وصارتْ أناملي حسّاسة لأنّي لم أعزف منذ وقت طويل، وإذ يحاول أحدهم الحديث معي، أجد نفسي أكدّ بشدّة محاولًا التركيز بدوري، ويتردّد صوتٌ قائلًا: إن هذا ليس بيتًا، بل مجرد استضافة يا «كودي»، فترتعش كفّاي.

لطالما تجوّلنا ورحنا نتمشّى طويلًا في البلد كي ننفّس عن تشرّدنا، وضعنا وجوهنا في التّراب باكين، وعقدنا قعدات السَّهر وأعربنا عن

حزننا حيث نرقد أيقاظًا طوال اللَّيل ننتحب في وحدتنا.

وفي الخريف، ذات مساء يوم جمعة من شهر أكتوبر حيث صار كل شيء أكثر برودة، وقفتُ هناك منتظرًا «بيكا» و«ديما» والآخرين، وعندما ظهروا، توجّهنا إلى ذلك العدد الهائل من الهجّامين الذين يحتلّون مبنًى سكنيًّا كاملًا، بكامل طوابقه الخمسة، فأقول لـ«داويد» الذي يبدو مستمتعًا بهذا كلّه إنه -للّعنة- يعج بالأطفال، صغار ضايعين، فعلًا، المبنى مليء بالصّغار والمراهقين، بل أعني صغار المراهقين يا أخي؛ بلهاء يبتسمون ويلوكون العلكة، وأجل ما يزالون محترمين وأولاد ناس، أربعة أو خمسة طوابق حيث هناك منظومة لكل طابق، ونعم، نعم هناك قيء في كل حجرة، فحاذر الأركان، فيها صغار عراة يشعرون بالبرد مغشي عليهم أمام الأعمدة الخرسانية، ما الذي ينبغي علينا فعله؟ هل نتصّل بأمّهاتهم؟ إن أمّهاتهم فاقدات الوعي بالطّوابق العليا فوق على الأرجح يا رجل، ولعلّ الآباء يروّجون الحبوب المخدّرة ويتعاطونها في بئر السّلم أيضًا على الأرجح، لكنّي أقول إن الموسيقى جيّدة للإنصاف، غير أني لستُ واثقًا من قدرتي على تحمّل كل هذا القرف، ولا أحد يستمع إليّ.

هناك موسيقى ثقيلة ومقبضة أو هي سريعة ومبهجة أو هي مجرد موسيقى تنبعث مباشرة من سمّاعات تُشوّه الصّوت، الكهرباء مقطوعة فما من تدفئة إذ يُمكنكَ أن ترى بخار الماء الخارج من أنفاسك..

جدار من صوت ومن ضوضاء.. طبول وجيتار الجهير وطبول..

جدار من التناغم ومن التنافر..

خطوتان هنا.. وخطوتان هناك..

بث إذاعي مقرصن ومجهول، ومقرصنو أغاني أصدقاء والجميع يتّجر ويوزّع المخدّرات.

الأسلاك تتدلّى من السَّقف وملقاة على الأرض..

المراحيض لا تتعدّى حفرًا في الأرض، تتبوّل وتتبرّز فيها وتنظّف نفسكَ بما تجده يداك، أو لا تفعلها أصلًا.

- أنتَ أيّها المهبل البرجوازي المدلّل.

- مَن الذي قال ذلك؟ أشعر بالخجل إذ كما لو كنتُ أشاهد نفسي من منظور خارجي؛ فأرى «بيكا» تقبِّل «كودي» وتدسّ نصف حبّة مخدّر في فمه، وأرى الصّغار في السّترات المنفوخة الكبيرة الثّقيلة يبيعون أيًّا ما كان، وأرى امرأة على الدّرج الضيّق والسَّلالم المقبضة تحمل رضيعًا في شيَّالة، وأرى شخصًا كتب على جبهته «اللّعنة عليكم» فيما يشعل أرجيلة زجاجية صغيرة أخذتْ تقرقر وتبقبق، بينما يضحك أحدهم بصوت أجش خلفه، ويسحب «ديما» عقب سيجارة ويشعلها بعدوانية.

- يا للجحيم اللّعين، طفل هنا!

وفيما نواصل السّير، يمرّ مروّجو المخدّرات اللّحوحون أمام وجهي بستراتهم المنفوخة وسراويلهم الواسعة ماركة باجي ومظهرهم المبالغ فيه.

أنظر فيما حولي، أتقف تلك المرأة هنا حقًّا بصغيرها هذا لعنها الله؟

توقفتُ في اللّحظة غير المناسبة؛ إذ إنهم يتجاذبونني محاولين استمالتي.

- لا تتحدّث معهم بحق اللعنة، فقد حصلنا على ما جئنا من أجله.

بيضٌ تشوبهم حُمرة الدّم.. دخان دخان..

بلاستيك بلاستيك..

سيجارة..

كيس عقاقير مخدّرة.. كيس مسحوق مخدّر.. لفافات مخدّرات وقشّات لاستنشاقها بتقليمات صفراء وأخرى حمراء..

خطوط بيضاء وطوابع زرقاء، وأخرى وردية..

صور لأرنب شعار پلايبوي، وشعار شركة مرسيدس..

شرائح ورقية وبفرة ماركة «ريزلا»..

ورق بنكنوت مطوي وآخر في رزم ومشابك ورق لامعة ومتلألئة..

أيّها الانتهازيون الملاعين، فلنبدأ الرّقص..

والأرضية الرّمادية.. فلتشعلها يا رجل..

اشعلها يا بن اللّعينة.. اشعل الأرضية الرّمادية.. والهواء الأسود.. والضوء الأسود.

واصِلْ ومرّرها، واصِلْ ومرّرْها.

الأرضيّة الرّمادية.. الأرضيّة السّوداء والهواء الثّقيل.

اشعِلْ هذا الهراء.. مرّرْ هذا الهراء.

نشرع في الرّقص لكن الهواء الثّقيل للأرضية الرّمادية يمنع الإسراع.

أوه، أوه، أوه، سحقتْ ابتسامات «بيكا» كلها.

يتنهّد أحدهم إذ لا شيء يحدث.

يقول «ديما»: لا أستطيع الانتشاء بالدّرجة الكافية.

آه تبًّا، أخرجوني من فضلكم، لا أظنني بقادر على تحمّل حلقات الدّخان المتولّدة تلك الآن. ولا هذا السّكير الوسِخ ابن السّاقطة العاهرة الوسِخة.

وأقول لـ«داويد» أُقسم يا صاح أني سأفقد أعصابي لو لم أخرج

من هنا.

فقال «داويد»: ماذا حدث، ألا تحبّ هذا المكان؟

فقلتُ: أجل، إنّه مثير للغثيان، كلّا، لستُ بقادر على اختراقه.

فقال «داويد»: ما الأمر أيّها الأبيضاني؟ يا «كودي اللَّدود» هل يشعر أميري الحلو أزرق العينين ولؤلؤتي الخام الصّغيرة بالتهديد أم ماذا؟

فقلتُ: بل لا يمكنني اختراقه وحسب، فنحن لم نعد بعد صِبية، كما صرتُ عدوانيًّا، وسينتهي الأمر بي محطِّمًا رأس أحدهم.

فقال «داويد»: تبًّا لك، لكَمْ تصير برچوازيًّا لعينًا مهتمًّا بالأخلاق ومتشبّهًا بالضبّاط بمجرّد ذكر الأطفال! كيف لكَ بحق اللعنة أن تعرف أن لواحد من أشقياء ذلك المنهج الدراسي المسمّى سوزوكي-مونتيسوري شأنًا أفضل من هذا المشرّد الضَّال الصغير؟ ما الذي تعرفه بحق اللّعنة عن تلك الفتاة المزّة؟

قلتُ: تبًّا لك يا رجل، إن كلّ امرئ بهذه المجموعة قد خاب أمله؛ لأن أعلى تلّ بالمنطقة قد تلبّد بالغيوم، لكن لما تجلّتِ الشَّمس ولاح التّل من خلف السُّحب اغرورقتْ عيناه بالدّموع وشرع يهرول بالمكان كطفل صغير، منتشيًا بالبهجة مردّدًا: «لقد صنع الله هذا لي، وأرادني أن أرى صنيعه»!

نزلتُ وخرجتُ وتركتُهم، تركتُ البناية بأسرها سريعًا لاهثًا،

مستمعًا للموسيقى، وللنشاز، ولمزيج من الأصوات بكل طابق، ما زلتُ بإمكاني سماعها، لا بد أنها على بُعد كيلومتر كامل؛ الوحدات الصّناعية الفارغة، القناطر والأسوار والشّبكات، وكلاب خفيّة تنبح، إيقاعات نشاز عندما تسترق الرّيح الأصوات، أصوات ثلاثة أو أربعة طوابق راقصة، والنّباح، وقعقعة قطار الشّحن بمكان ما.

أتوقّف وأتنفّس الآن إذ لم أعد أسرع بعد وأسير طوال الطّريق الطويل كلّه إلى المنزل طوال اللّيل بينما تمطر حسبما حذّروني حيث أسير الآن في منطقة سكنيّة فارغة في تلك الليلة الحالكة ما خلا بعض الأضواء في الطّوابق الخامس والسّابع والتّاسع لكن من دون حركة مرور، وضوء أصفر ووميض بلون أصفر محروق، والسّماء داكنة الزّرقة، والشّجيرات المدهمّة، والأبنية وخطواتي منتظمة الإيقاع، وخشخشة المفاتيح، حيث تقريبًا أؤدّي الرّقص على الدّقّات الأولى والثّالثة الجهير، الطّبل الجهير والقرع المتوتّر للطّبلة، والقرع السّاخر لها، وأجل العملات المعدنية أو المفاتيح في جيبي كذلك، أجل: بوم شاكا تك كليك، بوم شاكا تك، بوم شاكا تك كليك، بوم شاكا تك، حذائي ونعله، ويتسارع نبض قلبي إذ أرى ظلًّا عبر طريقي فأقول لنفسي إنه ما من شيء يحدث عادة.

أفكّر في قرار نفسي كم من مرّة جُلتَ في موطنكَ هكذا ولم يحدث شيء مطلقًا، أو على الأقل لم يحدث ما تعجز عن إخراج نفسك منه بالنّقاش أو بالشّجار، وقد وقعتْ أحداث بسيطة، لكنّها ليست أمورًا خطيرة، وفعليًّا ليس مما لا يقع في وضح النّهار، وأنا لا

أحمل سكّينًا إذ لم أعد أحمل أيًّا منها. الأمر أشبه بأن تصبح طفلًا تخاف من الظّلام مجدّدًا، مع ذات الشّعور في أمعائك، والنّبض المتسارع بقوّة فتستدير لتركض فارًّا مختبئًا فما أنتَ بقادر على فعلها، ولن تستطيع تحمّل الأمر، لكنّي أواصل وأتحدّى جسدي وأهزمه، متجاهلًا ضربات القلب، لأسير نحو قطار الأنفاق، متذكّرًا كيف درجتْ «تانيا» على أن تدعوها أنفاق الاغتصاب، فأسير حيث الضّوء أكثر سطوعًا وبرودة، وأكثر اخضرارًا وزرقة، وأرى ملصقات المبتدئين كتلك التي تخصّ أخي إذ عندما حاولنا أن نعلّمه لمّا حصل على بعض الرّسم على وجهه، وغضب لعجزه عن ثني الخطوط كما أرادها حيث رسغاه صغيران ولم تصدر عبوة الرّذاذ ذلك الفسسسسس، ومن ثمَّ فبمجرد الـ«فس فس فس» إيّاها فلتركض بقدر استطاعتك يا خيّو.

أخي، أين هو الآن؟

لِمَ لم أساعده؟

لِمَ خنتُه؟

سامحني يا أخي، أنا آسف.

والضّوء ما زال ساطعًا في النّفق، أجل، أكثر اخضرارًا وزرقة، وثمّة قمامة على الأرض، فأستند إلى الجدار والخطوط والبقع، مشعلًا عقب سيجارة ادّخرتُه ثمّ أنطلق خارجًا ثانية إلى دجى الظّلام حيث أسمع هدير الطّريق البعيد، وكلّ ما أفكّر فيه هو فلتواصل..

فلتواصل.. فلتواصل وحسب، أجل، فلتواصل السّير.

وقد أعجبني ذلك؛ فهل الأمر غريب؟ أقصد أن أحب أن أرتعب، هل ذلك غريب؟ أو لعلّي أحبّ ما يلي شعور الرّعب وحسب، أي الوجود على الجانب الآخر حيث لا شيء قد حدث أو ما من خطب قد وقع، مثل وقوفك على حافة الخطر قليلًا، وهذا كل شيء، حيث أنتَ مع نفسك مسئول عن نفسك، وحيث الظّلام، وحيث كل الهراء الذي حدث، وتعلم أنه ما يزال يحدث، ويقع في جميع أنحاء المكان طوال الوقت، لكن ليس هنا؛ لذا فليس عليك أن تفكر أنه يحدث الآن: ليس خلف هذه البناية المظلمة، أو في هذا النفق، وأنه ما من قطّاع طرق أو نازيين، غير أنها مسئوليتك وحدك تمامًا في حالة حدوث أي شيء أو وقوع مكروه، لقد أنذروك وحذّروك من السّير وحيدًا ليلًا، حذروك من أنك قد تتعرض للسرقة بالإكراه أو القتل أو الضرب المفضي إلى الموت أو الاغتصاب، فلا تفعل هذا، لا تفعله ولا تسِرْ وحدك، غير أني طالما فعلتُها حيث سرتُ وحدي، سرتُ وحيدًا إلى البيت ليلًا في الوقت الذي كان الآخرون قد عادوا فيه إلى منازلهم وعندما أتممتُ كل شيء، تظاهرتُ بالعودة إلى المنزل مثلهم أيضًا، لكن بدلًا من ذلك أعرج على متجر ما لأبتاع الجعة أو النّبيذ أو القودكا، وأجلس على سلالم الدّرج على ناصية المتنزّه، حيث الهدوء الشّديد والظلام الحالك بالمتنزّه، دخّنتُ آخر سيجارة حشيش وأسندتُ ظهري إلى السّور الحجري الخشن فشعرتُ بشيء ضخم، لقد كان شيئًا كبيرًا بالفعل، وشعرتُ أني ربّما أعيش أطول قليلًا.. سأحيا لسنوات أطول قليلًا إذ لم أمت، ليس حتى

الآن، فغمرتني السعادة.

لعلّي لا أستحق ذلك، لكنّي كنتُ سعيدًا، وبالطّبع لاحظتُ أن كل شيء غير متزامن وخاطئ وغير صائب وغير محتمل، ومن الواضح بالطّبع أني سأُعاقَب أو يجب أن أُعاقب عليه بطريقة أو بأخرى في النّهاية لكن الشعور لم يدم بل انسلّ بعيدًا ودسستُه في الأعماق مواصلًا المسيرة والضّحك على كل شيء، ومن ثم شعرتُ على الفور أني عليّ أن أُعاقَب على ذلك أيضًا، غير أن هذا الشّعور لم يدم كذلك حيث شعرتُ بالنّعمة، شعرتُ بها تفيض عليّ وتتخلّلني من أعلاي ومن أسفلي، لستُ أدري غير أني شعرتُ بشيء يفيض. من المُحتَّم أن عقابي مقبل كذلك غير أنه لم يئن أوانه بعد، إنه وقت النّعمة. والآن، بقيتُ جالسًا على تلك الدّرجات الحجرية في الظّلام يمتلئ جسدي بقوة استثنائية وبالحياة، فجلستُ بهدوء وتناولتُ سيجارة ووضعتُها على ساعدي، وضعتُها على بشرتها الدَّاخلية الرَّقيقة، وأبقيتُها هكذا على ذلك الوضع قدر استطاعتي إلى أن لم أعد قادرًا على تحمّل ذلك بعد، واحتسيتُ الثمالة الأخيرة وأخرجتُ السّيجارة عائدًا إلى البيت، حيث تبقّى هناك في كوب على طاولة المطبخ القليل من القودكا التي تجرّعتها وشغّلتُ المذياع محوّلًا المؤشّر على ذلك البرنامج المسائي وأخذتُ أستمع إلى الجوقة مستلقيًا على أرضية المطبخ، حيث لمحتُ السكاكين على حاملها المغناطيسي، فالتقطتُ أكبر اثنتين؛ واحدة في كل يد، ثم عدتُ أستلقي على الأرض مجدّدًا، راقدًا على ظهري لبرهة إذ شعرتُ بالطّاقة والهدوء والصَّمت وبأنني سأواصل الحياة لفترة أطول، فترة قصيرة أطول قليلًا،

ربّما بضع سنوات أطول، وقد كان كل شيء جيّدًا، كلّه تمام، حيث يمكن لجسدي حقًّا استيعاب هذا كلّه، حيث تمدّد جسدي من الدَّفق العميق للطّمي الدّاكن بأسفلي، والذي هو جسدي أيضًا، ومن الكهوف الباردة ذات الصَّواعد والهوابط المغطّاة بالرّطوبة، حيث تتشعّب الطّرق والدّروب إلى المزيد من الشّعاب الأضيق والأكثر توغّلًا أكثر فأكثر داخل القشرة الأرضية والتي هي أيضًا جسدي، امتدتْ من هذه المناطق الجوفية إلى السّطح والصّدر والرّأس التي التقتِ العالم، فيما السّاقان والذراعان سكاكين على حدِّها اجتمع كلّ شيء في هيئة مكثَّفة، على ذاك السَّطح الرَّقيق الذي قد ينثقب وقد يعلق في جسد ما.

استلقيتُ هكذا وشعرتُ بحركة رجراجة ثقيلة على نحو خيالي، فأحسستُ بجسدي على قيد الحياة وأنه سيحيا لمدّة أطول، ثم رحتُ في سُبات -لحسن طالعي- على نحو ما مذهولًا كيف لكل شيء أن يصير بهذه البساطة، نقيًّا جدًّا وغير معقد، حينئذ وحسب ليلًا، إذ جرى إيقاف كل شيء آخر، وعندما يغطّ الآخرون جميعًا في النوم سريعًا، وعندما ينعم كل شيء بالرّاحة، قلة وحسب من الكائنات اللّيلية تتحرّك متستّرة بالظلام، وعين القانون السّاهرة هنا وهناك، ولكن الوضع بشكل عام هادئ وساكن، فوثبتُ إلى الجسر حيث مارس «سوت» أسلوبه الوحشي ذات مرّة، فوق السياج من النّاحية الجنوبية لتجنب الاضطّرار للالتفاف تجاه الدّرجات الكبيرة، مع الحرص على عدم تمزيق سترتي، فوصلتُ إلى ساحة السّكك الحديدية على الجهة الأخرى، قفزًا إلى أسفل عبر

أرصفة تحميل الخدمات البريدية، حيث رأيتُ أحد الأبواب مفتوحًا بينما يجلس شخصان هناك يدخّنان، رفعتُ ذراعي لأومئ بالتّحية غير أنّهما لم يجيبا، بل نظرا إليّ بريبة وحسب، حينها بصقتُ على الأرض، شاعرًا بمقدم الجوع فسرتُ إلى محطّة الحافلات، شاخصًا نحو أرقام الساعة ونحو الوقت مفكّرًا في كل ما كان يحدث في تلك اللحظة بالتّحديد، الآن تمامًا، الآن تمامًا بالضّبط، ثم شرعتُ في عدّ العملات بجيبي، ورحتُ أبتاع كوب شاي مع سبعة مكعبات من السّكر دون أن يلحظ ذاك العجوز العزيز القابع خلف منفذ الكاونتر، وجلستُ على الرّصيف مغلقًا عينيّ أشرب مفكّرًا في «ديما» والآخرين. الآن أفكّر فيهم الآن حيث حدث كل شيء بالفعل والآن حيث أنا حي وحيث سينتهي كل شيء عاجلًا. الآن حيث نحن أحياء وحيث سيموت أحدهم الآن تمامًا الآن وحيث سيحدث الأمر مجدّدًا ومجدّدًا ومجدّدًا في عدد ضخم من الأماكن، وبطرق مختلفة كثيرة، طرق مختلفة تمامًا، وبتداعيات مختلفة وأفكّر في الطّريقة التي نقول بها فلترقد بسلام، أفكر في الكيفية التي يُترك بها الشخص الذي بالفعل يموت بسلام، ويتم إطلاق سراحه حقًّا، وكيفية ذلك، وضرورة أن يكون الأمر هكذا حقًّا؛ إذ إنه عندما تموت لا يمكن لأحد أن يزعجك بعد الآن، فلمَ إذن كل هذا الحزن عندما يغادرنا أحدهم؟ لماذا لا نشعر بالغبطة من أجله؟ لمَ نحن عاجزون عن الشّعور بالسّرور تجاه الأشياء التي تقع خارج زاوية رؤيتنا؛ الأمور التي تحدث إذ نحوّل أبصارنا، الأمور التي تقع في مكان ما بينما نحيا في مكان آخر غيره؟

وبينما أفكر في هذا كله وإذ أقف وأشرع في السّير، عندما أفكّر في الموت والجنائز والسلام وهذا كلّه، وفي البهجة وفي مجالات الرؤية والمنظور، وفي أثر المكان على كل شيء وعلى طريقة تفكيرنا بأكملها، وعلى مجمل طريقتنا في الرؤية ومجمل طريقتنا في الاستماع والتذوّق والشّعور وكل ذلك، عندما أفكّر في التوجّه إلى المنزل للاستلقاء إذ إني متعب للغاية الآن وأريد أن أغفو وحسب، أريد فقط أن أرقد لأغط في النوم، وأن أريح جسدي وأرخي ذهني، عندها فقط أسمع صوتًا فيقول أحدهم: إي يا صاح، وبينما أستدير إذا به هناك خلفي على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار يجدّ السّير نحوي في قميص علوي أبيض مع ساعة لامعة كبيرة هاتفًا: إي، هل تريد أن تتعاطى مخدّر الجاك والسبيد والسكانك والإكستاسي والهورس؟ أضحك على نفسي قليلاً أن لا، هذا يكفي، أظن أن هذا يكفي لليوم، فأنا متعب جدًّا، كلّا، أنا بخير شكرًا، وأبتسم فالأمر رائع، والآن ها هو يتّجه نحوي مقتربًا قائلًا: اشترِ بضاعتي، لسوف تبتاع بضاعتي، بينما صار وجهه قريبًا للغاية من وجهي وقد بتُّ أدرك أن ثمّة خطبًا إذ يكرر «تشتري بضاعتي». وأقول بينما ما زلتُ أبتسم: تمام.. سپوكو يا خيّو، اهدأ، أخبره أني ليس معي أي نقود، في الوقت نفسه الذي أدرك فيه أنه من الخطأ قول هذا.

ما علاقة هذا به؟ ثم تأتي الضربة الأولى على وجهي وأنا مندهش ولستُ متأكدًا ممّا يحدث، ثم تصل الرّكلة إلى ضلوعي مع بضع لكمات عدّة ليستْ قاسية على نحو خاص، لكن يبدو أن تلك التي ضربتْ وجهي أخذتْ تتوالى تلسع وتحرق بحرارة متصاعدة على

نحو لطيف ممتع تقريبًا بالرّغم من القلق والخوف المتزايد في معدتي وصدري، وفي مكان ما من دماغي ثمّة ما يسقط في المكان فتقع عيناي عليه؛ يبدو ضريرًا حيث يحتل ثقبان فارغان محل محجريه، فيما يردّد طوال الوقت: اشترِه، لسوف تبتاعه، وينحسر الدوران إذ يتباطأ كل شيء، أعود إلى صوابي إلى حد ما فيصير الخوف سورة الغضب. أستعيد توازني، أركّز نظراتي، أهيّئ نفسي وأسدّد إليه اللكمات دون أن أدري كم ضربة؛ ثلاث أو أربع ربّما، وأمسك بشعره وأكيل له بركبتي في وجهه فنسقط بينما ما زلتُ أواصل ضربه قبل أن أدرك فجأة أنه أعرج تمامًا وقد توقف عن المقاومة، فأنهض بينما هو راقد بلا حراك، رأسه منحنٍ بزاوية غريبة تجاه جزيرة الطريق، وإذ أجول ببصري، أرى أحدهم يتّجه نحوي، فأدير له ظهري وأَجِدّ السّير مبتعدًا أو شبه راكضًا إلى محطة القطار فحجرة الانتظار، حيث أتسلل إلى المرحاض وأغتسل من الدّماء، وأعبّ الماء من الصنبور، ترتعش يداي وأشعر بالغثيان، أحاول تمالك نفسي فأسير تجاه لوحة المغادرة الكبيرة، أراجع الوقت ورقم الرّصيف وأجلس منتظرًا متطلّعًا نحو شرائط الأضواء التي نوعًا ما أراها تتأرجح مثل الومضات بالغة السرعة، وأعتقد أنني على الأرجح الشخص الوحيد الذي يمكنه رؤية هذا الآن، إذ يمكن لأي شخص آخر أن يرى تيارًا واحدًا من الضوء، وهجًا ثابتًا وحسب، بينما أستطيع أن أراه يتلألأ ويتأرجح، بل يمكنني رؤية فترات التوقف المؤقت التي تلسع وتوخز عظام وجنتيّ وصدري ومفاصل أناملي وصدغيّ.

فهل سيأتي رجال الشرطة الآن؟ ما الذي حدث بالفعل؟

أنظر إلى التليفزيون وهو يعرض صورًا بالأسود والأبيض لدمى الماريونِت المتحرّكة. وتقول امرأة مسنّة: حسنًا، هذا صحيح.

لطالما لعبنا كرة الرِّيشة والشَّطرنج والبولينج وما شابه في المراكز الاجتماعية، حيث تلك العصابة التي لأعضائها جميعًا ماضٍ إجرامي فيما توافدوا للدّخول إلى مسرح دمى الماريونت المتحركة، حيث أطلقوا على أنفسهم اسم «رِيس پاپتييرز»، وقدّموا أداءهم في كل تلك الحفلات الخيرية وفي الإذاعة أيضًا.

أشعل سيجارة عندما يهدأ الارتعاش قليلاً، ثم أصعد على متن القطار عندما يصل، وأظن أني أشعر بالسّوء حقًّا الآن. تمرّ المنازل والنوافذ والشوارع والأشجار وكل شيء يمر متسارعًا الآن فأنزل عن متن القطار لأجول بالأرجاء شاعرًا بالفزع وأهيم متجوّلًا لفترة طويلة، لا أعرف أين عليّ أن أذهب حقًّا أو ماذا عليّ أن أفعل. نفدتِ السيجارة فشرعتُ أبحث عن أعقاب السّجائر عند مدخل أحد المراكز التّجارية. يبدو كما لو أن الناس يحدقون بي فأعتمر قلنسوة السّترة وأدخن أعقاب السّجائر محاولًا تبيّن ما الذي عليّ أن أفعله تاليًا، غير أني لا أستطيع؛ إذ إنه كلّما واتتني فكرة، تتدفق آلاف أخرى غيرها، فأعجز عن التمييز بينها.

أدرك أنه ينبغي أن أنام ولكني لا أعلم أين وحسب، ولكم يؤلمني هذا كثيرًا، لن أستطيع النوم دون تعاطي شيء، غير أني ليس لديّ

ما أتعاطاه كما أني لا أملك أي نقود؛ لذا فها أنا نوعًا ما أجول وأهيم سيرًا أو غاديًا ورائحًا على طريق القناة بالقرب من النّزل، أعتقد أني قد أصادف أحدهم الذي قد يبيعني شيئًا كي أستطيع النوم ثم لَأرتّب كل الأمور لاحقًا، لكن لا يبدو أنني سأستطيع أن أزيح هذا عن كاهلي وقد أوشكتِ الدموع على الانهمار من عيني، أجلس على أحد المقاعد وأجهش في البكاء لبضع ثوانٍ قبل أن أتمالك نفسي سريعًا، مدركًا أن ألم صدري بات أشدّ من قدرتي على تجاهله وأنه عليّ التوجّه إلى المستشفى أو على الأقل زيارة الطبيب.

نهضتُ عن المقعد وواصلتُ السَّير، ثم بعد برهة مررتُ برجل يدخّن بالقرب من جسر القناة وليس ببعيد عن مركز الشرطة، فالتفتُّ نحوه عند مروري به وسألتُه ما إن كان بمقدوره أن يلقي ببعض الفكّة للمشردين، فنظر إليّ بهدوء وهو ينقّب في جيبه قبل أن يمنحني عشرين كرونة، أعطاني إيّاها مع كلمة تفضّل هادئة، فأخذتُها منه ودسستُها في جيب سترتي، أريدُ أن أطلب منه سيجارة أيضًا، لكن الكلمات تعلقُ نوعًا في صدري، وأحسُّها تبرّحني ألمًا وأستشعر الإجهاد على وجهي.

إنه يدخن شاخصًا إليّ كأنما ينتظر منّي فعل شيء ما؛ إمّا أن أبتعد أو أقول شيئًا، أو أن أطلب المزيد، ودون أن أدرك السّبب وقفتُ هناك، أنظر إلى يديه.. إلى السيجارة المشتعلة والدّخان، تلتقي نظراتنا فيحدوني شعور أنه متّزن بطريقة ما، وأنه بمقدوري الوثوق به، ثم سمعتُ نفسي أقول: لا أعلم أين سأنام،

فقد تعرّضتُ للضّرب أمس.

يحدّق قليلاً ثم ينظر إلى الجرح على وجهي قبل أن يقول:

- مَن ضربكَ؟

أحاول الرّد.. أحاول أن أشرح، لكن لا تصدر سوى غمغمة غامضة يتعذر تفسيرها، أريد أن أوضّح لكنّي لا أستطيع، أهز رأسي وحسب وأبصق على الأرض.

عليّ أن . . . هكذا أبدأ الحديث، بينما يختفي بقيته، ثم أتجهم قليلاً من الألم الذي يشبّ في داخلي، فيقول بينما أنا عطشان: يا زميل، على الأرجح ربما عليك إيجاد طبيب أو شيء من هذا القبيل. أضحك، فهو لا يبدو كثيراً من الطّراز الذي يقول يا زميل، ثم ينهشني الألم من داخلي مجدّدًا فأردّد: تبًّا، أسير وحسب مواصلًا التفكير في الأمر نفسه، فافهمني. أجل، وكما يقول ملوّحًا فإن ذلك يبدو جيدًا، وليس جيّدًا جدًّا، فلتجد طبيبًا جيّدًا يا رجل ولتعتنِ بنفسك يا أخي. فأُدير له ظهري مغادرًا، بينما أفكر تبًّا لك يا أخي، على ما أعتقد، يزداد الألم حدَّة أكثر فأكثر، وأظنّ أنه عليّ التوجّه إلى المستشفى، كما عليّ اختلاق قصَّة ما بشأن أين كنتُ وما حدث لي حتى لا تتدخّل الشرطة، على الأقل الآن أصبح لديّ نقود تكفي لاستقلال الحافلة حسبما أظن، فأستدير نحو الزّاوية متّجها إلى المحطّة الرَّئيسية حيث موقَف الحافلات.

مررتُ بفتاة سحبتُ منها سيجارة ثم جلستُ على درجٍ ما

لأدخّنها. نفضتُ رأسي ونهضتُ كي أمنع نفسي من أن أقعى نائمًا على الأرض هناك. وعلى مقربة ثمّة دراجة ترتكن إلى صندوق المرافق بينما لا يمكنني رؤية أي شخص بالجوار؛ لذا قفزتُ سريعًا إلى المعقد مبتعدًا قليلًا نحو التقاطع قبل أن ألحظ الحافلة التي تندفع نحوي بسرعة جنونية على ما أعتقد يا أخي.

"سرد متدفق يشبه مقطوعة موسيقية"

theguardian

بطل الرواية عازف تشيلو شاب تجذبه صدفة عادية في مدينة مالمو الفقيرة نسبيًا إلى ماضيه المعقد؛ حيث يأخذنا المؤلف في رحلة مع بطله عبر الذكريات والأصوات المتعددة والتساؤلات عن الأصل الاجتماعي والحراك الطبقي والصداقة. تتأرجح الأحداث بين الحاضر والماضي والشك والارتباك لتطل الاسئلة عن المكانه والمجتمع.

وفي ظلال مباني الإسكان الاجتماعي الضخمة وعبر مسارات الذاكرة تقودنا الرواية في رحلة داخل أحشاء أوروبا المخفية. ومن خلال تدفق إيقاعي ساحر تستكشف الرواية إمكانات الصعود الاجتماعي في أوروبا المعاصرة والرغبة المتناقضة في الهروب من أصولك، وتتساءل كيف تحب جارك عندما تكون محاطًا بالبؤس!

أندريه تيشي: هو روائي وباحث ومترجم سويدي، ولد في التشيك وانتقل طفلًا إلى السويد، صدرت له خمس روايات باللغة السويدية، وفازت روايته "بؤس" بجائزة الأدب المترجم السويدي والنرويجي 2018، ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة "أغسطس" في السويد 2016، كما وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة بوكر العالمية 2021. حصل على الدكتوراة من جامعة كاليفورنيا حول استخدامات العامية في الأدب وأغاني الراب. وصدرت له عدة كتب غير روائية وترجم مجموعة من الكتب.

Cover design by: Alaa Elnewehy

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET